

الفَصْلُ الثَّالِثُ
الإعجاز التشريعي
في القرآن الكريم
والسنة النبوية الصحيحة

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥٣).

الشرعة الإسلامية خيرٌ كلها

نحن المسلمين على يقين من أن القرآن الكريم كلام رب العالمين، لأنه بيانٌ مُعْجَزٌ، وقد تحدى به المولى ﷺ العرب لأنه نزل بلغتهم، وقد كانوا أرباب البلاغة، وأساطين الفصاحة فعجزوا، وفُضِّلوا أن يواجهوه بالقتال لعجزهم عن مواجهة ما تحداهم به بأن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو حتى بسورة من مثله.

ومن أوجه إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة الإعجاز في التشريعات، فإن ما اكتشفه الناس اليوم يؤكد أن التشريع الإسلامي مُعْجَزٌ ولا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، مما يدلّ دلالة قاطعة على أن هذا التشريع من عند الله العليم الخبير، وليس من عند النبي محمد ﷺ ولا أصحابه رضي الله عنهم، لعدم مقدرتهم على معرفة وإدراك كثير من حِكَم وأسرار هذه التشريع. ويجب أن يُعلم أنه ليست هناك مقارنة بين شرع الله وشرع البشر، فالأمر كما قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا

ولكن هناك ثلة من الجهال ظنوا أنفسهم عقلاء بينما هم في الحقيقة لا يعرفون الفرق بين السيف والعصا، وإلا فالمسلم يكفيهِ أن يعلم أن هذا الحكم حكم الله فلا يرد على الله ﷻ حكمه بل يسلم تسليماً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

إن شريعة الله ﷻ صالحة لكل زمان ومكان ويكفي أنها من عند الله ﷻ، وهذا الأمر واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن هناك من يتعامى عن هذه الحقيقة الواضحة؛ فهم كما قال المتنبي:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَفْهَامِ شَيْءٌ إِذَا احتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ

إن الشريعة الإسلامية ما شرعت إلا لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل، أي في الدنيا والآخرة، ودرء المفسد والاضرار عنهم في العاجل والآجل أيضاً، حتى إن بعض الفقهاء قال - وقوله حق - : « إن الشريعة كلها مصالح، إما درء مفسد أو جلب مصالح ».

ودرء المفسدة لا شك في أنه وجه من وجوه المصلحة؛ لأن المصلحة لها وجه إيجابي وهو جلب نفع لم يكن، ووجه سلبي وهو دفع ضرر أو مفسدة. وجميع الأحكام بلا استثناء مصالح لا يخرج منها أي حكم كان سواء أكان من أحكام الاعتقادات أو العبادات أو غير ذلك.

نعم، قد يجهل البعض تفاصيل المصلحة في حكم من الأحكام، ولكن هذا الجهل ليس بحجة على انتفاء المصلحة، فإن الإنسان قد يجهل تفاصيل منفعة دواء ولكن جهله به لا يمنع من تحقيق المصلحة فيه، فإذا كان هذا واقعياً فيما يضعه إنسان فكيف لا يكون فيما يضعه خالق الإنسان؟ هذه واحدة.

والثانية أن المصلحة المقصودة في التشريع الإسلامي لا تقتصر على مصالح الدنيا وإنما تتجاوزها إلى مصالح الآخرة أي إلى إعداد الإنسان للظفر بالسعادة الدائمة بالجنة.

وهنا بعض الأدلة الجزئية على هذه الحقيقة:

١- قال تعالى في تحليل رسالة نبينا محمد ﷺ: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (الأنبياء: ١٠٧)، والرحمة تتضمن قطعاً رعاية مصالح العباد ودرء المفسد عنهم، ولا يمكن أن تكون رحمة إذا أغفلت هذه المصالح.

٢- قَالَ تَعَالَى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة: ١٧٩)، فالقصاص شرع لتحقيق هذه المصلحة وهي الحياة للناس، أي الأمن

والاستقرار والاطمئنان وحقن الدماء بزجر مَنْ تسول له نفسه الاعتداء على أرواح الناس.

٣- قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ (المائدة: ٩٠ - ٩١).

فتحريم الخمر يمنع عن الناس مفسدة الصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

٤- تشريع الرخص عند وجود المشقات في تطبيق الأحكام إذا كانت هذه المشقات فوق طاقة البشر المعتادة، ومن ذلك إباحة النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها بالتهديد بالقتل ونحوه، وإباحة المحرّم عند الضرورة مثل أكل الميتة ولحم الخنزير عند التعرض للهلاك جوعاً، وإباحة الفطر في رمضان للمريض والمسافر. ولا شك أن دفع المشقة ضرب من ضروب رعاية المصلحة ودفع المفسدة عن الناس.

٥- من محاسن الشريعة الإسلامية ملاءمتها لفطرة الإنسان وتليتها لحاجاته البدنية والعقلية والروحية، فمن محاسن الشريعة أنها حرمت كل ما يضر ببدن الإنسان وعقله، ومن ذلك تحريم المسكر لضرره، وتحريم قليله الذي لا يسكر لأنه سبيل إلى تناول كثيره، ولا يمكن لكل الناس التحكم في الكمية، والتشريع يكون للجميع، إلى غير ذلك من الحكم المعلومة والمجهولة.

٦- بر الوالدين من محاسن الشريعة الإسلامية؛ ذلك أنه اعتراف بالجميل، وحفظ للفضل.

٧- ويُعدّ الوقف من محاسن الشريعة الإسلامية الغراء، حيث أثبتت الدراسات الاقتصادية أنه أنجح وسيلة لاستمرار المؤسسات العلمية والاجتماعية في أداء وظيفتها ورسالتها.

٨- من محاسن الشريعة الإسلامية، أنها لم تُحرم شيئاً إلا عوضت خيراً منه، مما يسدّ مسدّه، ويغني عنه، فالله ﷻ، لم يضيق على عباده من جانب، إلا وسّع عليهم من جانب آخر، من جنسه، فإنه - لا يُريد بعباده عتّاً، ولا إرهاقاً، بل يُريد بهم اليسر والخير

والهداية والرحمة، فقد حرم الله عباده، الاستقسام بالأزلام، وعوضهم عنه دعاء الاستخارة، حرم عليهم الزنا، وأعاضهم عنه الزواج الحلال، حرم عليهم شرب المسكرات، وأعاضهم عنها بالأشربة اللذيذة.

ليس في الدين حرمان، كما يتوهم الجهلة، فكل شهوة أودعها الله في الإنسان، جعل لها قناةً نظيفةً تتحرك من خلالها، وكل حاجة، ألجأ الله إليها عباده، جعل لهم أكثر من سبب لتحقيقها، فالحلال يُغني عن الحرام. وهذا من محاسن الشريعة الإسلامية حيث إن البيوت المسلمة التي بُنيت على أساس الرضا والرغبة غالبًا ما تكون أكثر استقرارًا وطمأنينةً.

٩- والإسلام بتشريعه للطلاق يكون منسجمًا مع نهج التوسط بين الإفراط والتفريط، بخلاف غيره من الشرائع، والتي منها ما تبيح الطلاق على إطلاقه بلا محاذير ولو بغير سبب، ومنها ما يجعل الزواج مؤبدًا ولا تبيح الطلاق مطلقًا كما هو الحال في الغرب حيث عمت الفوضى في الحياة الاجتماعية وشاع اتخاذ الأخدان والعشيقات، فجاء الإسلام وجعل الطلاق حاجة من حاجات البشر لا يتم اللجوء إليها إلا عند الضرورة ووجود المبرر القوي لها.

١٠- ومن محاسن الشريعة الإسلامية أن جعلت الطلاق بيد الرجل، وذلك لأن المرأة سريعة الغضب شديدة التأثر وغالبًا تدفعها طبيعتها إلى الجري وراء عواطفها بلا تروٍّ، ذلك لأنها خلقت على رقة في الطبع، وبها من الغرائز ما يصلح أن تكون مصدرًا للحنان والأمومة، إذ لو جعل الطلاق بيدها - وهي على ما تقدم من رقة العاطفة وسرعة الانفعال - لانهارت كثير من العلاقات الأسرية والزوجية في لحظة طائشة وبمجرد خصام عارض وهذا لا يمنع أن تكون هنالك نساء يتصفن بالحكمة والتروي ولكن أحكام الشرع تبنى على غالب الأحوال.

١١- من محاسن الشريعة الإسلامية تحريم الكذب لما فيه من مضار ومفاسد على الفرد والمجتمع.

١٢- مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ إِجْبَابُ الْغُسْلِ مِنَ الْمَنِيِّ دُونَ الْبَوْلِ: فَإِنَّ الْمَنِيَّ يُخْرُجُ مِنْ جَمِيعِ الْبَدَنِ، وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللَّهُ ﷻ: «سَلَالَةً»؛ لِأَنَّهُ يَسِيلُ مِنْ جَمِيعِ الْبَدَنِ، وَأَمَّا الْبَوْلُ فَإِنَّمَا هُوَ فَضْلَةُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الْمُسْتَحِيلَةِ فِي الْمَعِدَةِ وَالْمَثَانَةِ؛ فَتَأْتُرُ الْبَدَنَ بِخُرُوجِ الْمَنِيِّ أَعْظَمُ مِنْ تَأْتُرِهِ بِخُرُوجِ الْبَوْلِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْإِغْتِسَالَ مِنْ خُرُوجِ الْمَنِيِّ مِنْ أَنْفَعِ شَيْءٍ لِلْبَدَنِ وَالْقَلْبِ وَالرُّوحِ، بَلْ جَمِيعُ الْأَرْوَاحِ الْقَائِمَةِ بِالْبَدَنِ فَإِنَّهَا تَقْوَى بِالْإِغْتِسَالِ، وَالْغُسْلُ يَخْلُفُ عَلَيْهِ مَا تَحَلَّلَ مِنْهُ بِخُرُوجِ الْمَنِيِّ، وَهَذَا أَمْرٌ يُعْرِفُ بِالْحِسِّ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْجَنَابَةَ تُوجِبُ ثِقَلًا وَكَسَلًا وَالْغُسْلُ يُحْدِثُ لَهُ نَشَاطًا وَخِفَةً. وَلَوْ شَرَعَ الْإِغْتِسَالُ مِنَ الْبَوْلِ لَكَانَ فِي ذَلِكَ أَعْظَمُ حَرَجٍ وَمَشَقَّةٍ عَلَى الْأُمَّةِ تَمَنُّعُهُ حِكْمَةُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَإِحْسَانُهُ إِلَى خَلْقِهِ.

١٣- إِنْ إِبَاحَةُ السَّلَمِ وَتَحْرِيمُ الرِّبَا مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ الْكَامِلَةِ، وَقَدْ أَبَاحَ اللَّهُ - السَّلَمَ لِحَاجَةِ الْعِبَادِ إِلَيْهِ، وَشَرَطَ فِيهِ شُرُوطًا تُخْرِجُهُ عَنِ الْمَعَامَلَاتِ الْمَحْرُمَةِ، فَهُوَ عَقْدٌ عَلَى مَوْصُوفٍ فِي الذِّمَّةِ بِصِفَاتٍ تَمِيزُهُ وَتُبْعِدُهُ عَنِ الْجَهَالَةِ وَالْغُرْرِ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ بِثَمَنِ مَعْجَلٍ فِي الْمَجْلِسِ، يَشْتَرِكُ فِيهِ الْبَائِعُ وَالْمَشْتَرِي فِي الْمَصْلُحَةِ الْمُرْتَبَةِ عَلَى ذَلِكَ.

فَالْبَائِعُ يَنْتَفِعُ بِالثَّمَنِ فِي تَأْمِينِ حَاجَاتِهِ الْحَاضِرَةِ وَالْمَشْتَرِي يَنْتَفِعُ بِالْمُسْلَمِ فِيهِ عِنْدَ حُلُولِهِ؛ لِأَنَّهُ اشْتَرَاهُ بِأَقْلٍ مِنْ ثَمَنِهِ عِنْدَ الْحُلُولِ وَذَلِكَ فِي الْغَالِبِ، فَحَصَلَ لِلْمَتَاعِلِينَ فِي عَقْدِ السَّلَمِ الْفَائِدَةُ مِنْ دُونَ ضَرَرٍ وَلَا غُرْرٍ وَلَا جَهَالَةٍ وَلَا رِبَا.

أَمَّا الْمَعَامَلَاتُ الرِّبَوِيَّةُ فَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى زِيَادَةِ مَعِينَةِ نَصِ الشَّارِعِ عَلَى تَحْرِيمِهَا فِي بَيْعِ جَنْسٍ بِجَنْسِهِ نَقْدًا أَوْ نَسِئَةً، وَجَعَلَهُ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَلِمَا لِلْعِبَادِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيمَةِ وَالْعَوَاقِبِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي مِنْهَا سَلَامَتُهُمْ مِنْ تَرَكَمِ الدِّيُونِ عَلَيْهِمْ، وَمِنْ تَعْطِيلِهِمُ الْمَشَارِيعَ النَّافِعَةَ وَالصَّنَاعَاتِ الْمُفِيدَةَ اعْتِمَادًا عَلَى فَوَائِدِ الرِّبَا.

١٤- تَعَدُّ الزَّوْجَاتِ مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمِنْ رِعَايَتِهَا لِمَصَالِحِ الْمَجْتَمَعِ وَعِلَاجِ مُشْكَلَاتِهِ، وَقَدْ تَنَبَّهَ بَعْضُ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ لِهَذَا الْأَمْرِ، وَاعْتَرَفُوا بِحَسَنِ

ما جاءت به الشريعة في هذه المسألة، رغم عداوتهم لها، إقرارا بالحق واضطراراً للاعتراف به، فمن ذلك ما نقله صاحب المنار في الجزء الرابع من تفسيره صفحة (٣٦٠) عن جريدة (لندن ثروت) بقلم بعض الكاتبات ما ترجمته ملخصاً:

«لَقَدْ كَثُرَتِ الشَّارِدَاتُ مِنْ بَنَاتِنَا، وَعَمَّ الْبَلَاءُ، وَقَلَّ الْبَاحِثُونَ عَنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ، وَإِذَا كُنْتُ امْرَأَةً تَرَانِي أَنْظُرُ إِلَى هَاتِيكَ الْبَنَاتِ، وَقَلْبِي يَتَقَطَّعُ شَفَقَةً عَلَيْهِنَّ، وَحُزْنًا، وَمَاذَا عَسَى يُفِيدُهُنَّ بَنِي، وَحُزْنِي، وَتَوَجُّعِي، وَتَفْجُعِي، وَإِنْ شَارَكَنِي فِيهِ النَّاسُ جَمِيعًا؟ لَا فَائِدَةٌ إِلَّا فِي الْعَمَلِ بِمَا يَمْنَعُ هَذِهِ الْحَالَةَ الرَّجْسَةَ.

وَلِلَّهِ دُرُّ الْعَالَمِ الْفَاضِلِ (تُومَسْ) ، فَإِنَّهُ رَأَى الدَّاءَ، وَوَصَفَ لَهُ الدَّوَاءَ الْكَافِلَ لِلشَّفَاءِ وَهُوَ (الْإِبَاحَةُ لِلرَّجُلِ التَّزَوُّجَ بِأَكْثَرِ مِنْ وَاحِدَةٍ) ، وَهَذِهِ الْوَاسِطَةُ يَزُولُ الْبَلَاءُ لَا مَحَالَةَ، وَنُصْبِحُ بَنَاتِنَا رَبَّاتِ بُيُوتٍ، فَالْبَلَاءُ كُلُّ الْبَلَاءِ فِي إِجْبَارِ الرَّجُلِ الْأُورُبِّيِّ عَلَى الْاِكْتِفَاءِ بِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، فَهَذَا التَّحْدِيدُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ بَنَاتِنَا شَوَارِدَ، وَقَذَفَ بِهِنَّ إِلَى التِّيَاسِ أَعْمَالِ الرِّجَالِ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَفَاقُمِ الشَّرِّ إِذَا لَمْ يُبَحَّ لِلرَّجُلِ التَّزَوُّجُ بِأَكْثَرِ مِنْ وَاحِدَةٍ. أَيُّ ظَنٍّ وَخَرَصٍ يُحِيطُ بِعَدَدِ الرِّجَالِ الْمُتَزَوِّجِينَ الَّذِينَ لَهُمْ أَوْلَادٌ غَيْرُ شَرْعِيِّينَ أَصْبَحُوا كَلًّا، وَعَالَةً، وَعَارًا عَلَى الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ؟ فَلَوْ كَانَ تَعَدُّ الزَّوْجَاتِ مُبَاحًا لَمَا حَاقَ بِأَوْلِيكَ الْأَوْلَادِ وَبِأُمَّهَاتِهِمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْهُونِ، وَلَسَلِمَ عَرْضُهُنَّ، وَعَرَضُ أَوْلَادِهِنَّ، فَإِنَّ مَزَاحِمَةَ الْمَرْأَةِ لِلرَّجُلِ سَتَحُلُّ بِنَا الدَّمَارَ، أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ حَالَ خِلْقَتِهَا تُنَادِي بِأَنَّ عَلَيْهَا مَا لَيْسَ عَلَى الرَّجُلِ، وَعَلَيْهِ مَا لَيْسَ عَلَيْهَا، وَإِبَاحَةُ تَعَدُّ الزَّوْجَاتِ تُصْبِحُ كُلُّ امْرَأَةٍ رَبَّةَ بَيْتٍ، وَأُمُّ أَوْلَادٍ شَرْعِيِّينَ».

وقال جوستاف لوبون: «إن نظام تعدد الزوجات نظام حسنٌ يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تمارسه، ويزيد الأسر ارتباطاً، وتمنح المرأة احتراماً وسعادة لا تجدُهما في أوروبا».

١٥- ومن محاسن الشريعة أن الأصل الشرعي هو: الحل في المعاملات والشروط.

١٦- ومن محاسن الشريعة أَنَّ الْوَالِيَّ وَالْقَاضِيَّ وَالشَّافِعَ مَمْنُوعُونَ مِنْ قَبُولِ الْهَدِيَّةِ ^(١)، وَهُوَ أَصْلُ فَسَادِ الْعَالَمِ، وَإِسْنَادُ الْأَمْرِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، وَتَوَلِيَّةُ الْخَوَنَةِ وَالضُّعْفَاءِ وَالْعَاجِزِينَ، وَقَدْ دَخَلَ بِذَلِكَ مِنَ الْفَسَادِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ ﷻ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ قَبُولَ الْهَدِيَّةِ مِمَّنْ لَمْ تَجْرِعْ عَادَتُهُ بِمُهَادَاتِهِ ذَرِيعَةً إِلَى قَضَاءِ حَاجَتِهِ، وَحُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ، فَيَقُومُ عِنْدَهُ شَهْوَةٌ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ مُكَافَأَةً لَهُ مَقْرُونَةٌ بِشَرِّهِ وَإِغْمَاضٍ عَنْ كَوْنِهِ لَا يَصْلُحُ.

١٧- ومن محاسن الشريعة أَنَّهُ لَيْسَ لِلْقَاتِلِ مِنَ الْمِيرَاثِ شَيْءٌ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ تَوْرِيثَ الْقَاتِلِ ذَرِيعَةً إِلَى وَقُوعِ هَذَا الْفِعْلِ؛ فَسَدَ الشَّارِعُ الذَّرِيعَةَ بِالْمَنْعِ.

١٨- ومن محاسن الشريعة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ يُخْطَبَ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ أَوْ يَسْتَأْمَ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ ^(٢) أَوْ يَبِيعَ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى التَّبَاغُضِ وَالتَّعَادِي.

١٩- ومن محاسن الشريعة أَنَّمَا نَهَتْ الْمَرْأَةُ إِذَا خَرَجَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ أَنْ تَتَطَيَّبَ أَوْ تُصِيبَ بَخُورًا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى مِيلِ الرِّجَالِ وَتَشَوُّفِهِمْ إِلَيْهَا، فَإِنَّ رَائِحَتَهَا وَزِينَتَهَا وَصُورَتَهَا وَإِنْدَاءَ مَحَاسِنِهَا تَدْعُو إِلَيْهَا؛ فَأَمَرَهَا أَنْ تَخْرُجَ تَفِلَةً، وَأَنْ لَا تَتَطَيَّبَ، وَأَنْ تَقِفَ خَلْفَ الرِّجَالِ، وَأَنْ لَا تُسَبِّحَ فِي الصَّلَاةِ إِذَا نَابَهَا شَيْءٌ، بَلْ تُصَفِّقْ بِبَطْنِ كَفِّهَا عَلَى ظَهْرِ الْأُخْرَى، كُلُّ ذَلِكَ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ وَحِمَايَةً عَنِ الْمُفْسَدَةِ.

(١) عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رحمته الله أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَدَايَا الْعُمَّالِ غُلُولٌ» (رواه أحمد في المسند، وصححه الألباني). يعني: ليس للموظف أن يقبل الهدية، سواء كانت من موظف عنده، أو من مراجع من المراجعين الذين يأتون من الخارج لحاجاتهم، فلا يجوز لهم أن يهدوا للموظفين، ولا يجوز للموظفين أن يقبلوا منهم؛ لأن هذا من الغلول، فهدايا العمال من الرعايا وهداياهم لأمرائهم خيانة؛ لأنها لا تكون إلا لأجل خيانة فيما وكل إليهم من الأعمال، لأنه لا يهدي للعمال إلا مخافةً منه أو طمعاً فيه، فإذا أهدى العامل للأمير أو أهدى الرعية للعامل فهو لبيت المال ولا يحل للعمال قبولها لكن إن قبلها صارت لبيت المال.

(٢) المعنى: أَنْ يَكُونَ قَدْ اتَّفَقَ مَالِكُ السَّلْعَةِ وَالرَّاعِبُ فِيهَا عَلَى الْبَيْعِ وَلَمْ يَعْقِدَاهُ، فَيَقُولَ الْآخَرُ لِلْبَائِعِ: أَنَا أَشْتَرِيهِ، وَهَذَا حَرَامٌ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ الثَّمَنِ.

٢٠- ومن محاسن الشريعة أنَّها نَهَتْ أَنْ تُبَاعَ السِّلْعُ حَيْثُ تُبَاعُ حَتَّى تُنْقَلَ عَنْ مَكَانِهَا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى جَحْدِ الْبَائِعِ الْبَيْعَ وَعَدَمِ إِمْتَامِهِ إِذَا رَأَى الْمُشْتَرِيَ قَدْ رَیَحَ فِيهَا، فَيَعْرِهُ الطَّمَعُ، وَتَشَحُّ نَفْسُهُ بِالتَّسْلِيمِ كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ.

٢١- ومن محاسن الشريعة أنَّها أَمَرَتْ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ الْأَوْلَادِ فِي الْمُضَاجِعِ، وَأَنْ لَا يُتْرَكَ الذَّكَرُ يَنَامُ مَعَ الْأُنْثَى فِي فِرَاشٍ وَاحِدٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ ذَرِيعَةً إِلَى نَسْجِ الشَّيْطَانِ بَيْنَهُمَا الْمُوَاصَلَةَ الْمُحَرَّمَةَ بِوَاسِطَةِ اتِّحَادِ الْفِرَاشِ وَلَا سِيَّامَا مَعَ الطُّولِ، وَالرَّجُلُ قَدْ يَعْثُ فِي نَوْمِهِ بِالْمَرْأَةِ فِي نَوْمِهَا إِلَى جَانِبِهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ.

٢٢- ومن محاسن الشريعة أنَّها نَهَتْ عَنْ بَيْعِ الثَّمَارِ قَبْلَ بُدْوِ صَلَاحِهَا لِئَلَّا يَكُونُ ذَرِيعَةً إِلَى أَكْلِ مَالِ الْمُشْتَرِيَ بِغَيْرِ حَقٍّ إِذَا كَانَتْ مُعَرَّضَةً لِلتَّلَفِ، وَقَدْ يَمْنَعُهَا اللَّهُ ﷻ.

٢٣- ومن محاسن الشريعة أنها جَعَلَتْ لِلْقَازِفِ إِسْقَاطَ الْحَدِّ بِاللَّعَانِ فِي الزَّوْجَةِ دُونَ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَكِلَاهُمَا قَدْ أَلْحَقَ بِهِمَا الْعَارُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مُحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ؛ فَإِنْ قَازَفَ الْأَجْنَبِيَّةَ مُسْتَغْنٍ عَنْ قَذْفِهَا، لَا حَاجَةَ لَهُ إِلَيْهِ الْبَيِّنَةُ؛ فَإِنْ زَنَاهَا لَا يَضُرُّهُ شَيْئًا، وَلَا يُفْسِدُ عَلَيْهِ فِرَاشَهُ، وَلَا يُعْلَقُ عَلَيْهِ أَوْلَادًا مِنْ غَيْرِهِ، وَقَذْفُهَا عُدْوَانٌ مُحَضَّرٌ، وَأَدَّى لِلْحَصَنِ غَافِلَةً مُؤْمِنَةً، فَتَرْتَبَ عَلَيْهِ الْحُدُّ زَجْرًا لَهُ وَعُقُوبَةً.

وَأَمَّا الزَّوْجُ فَإِنَّهُ يَلْحَقُهُ بِزَنَاهَا مِنَ الْعَارِ وَالْمُسَبَّةِ وَإِفْسَادِ الْفِرَاشِ وَالْحَقِ وَلَدٍ غَيْرِهِ بِهِ، وَانْصِرَافِ قَلْبِهَا عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ؛ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى قَذْفِهَا، وَنَفْيِ النَّسَبِ الْفَاسِدِ عَنْهُ، وَتَحْلُصِهِ مِنَ الْمُسَبَّةِ وَالْعَارِ؛ لِكَوْنِهِ زَوْجٌ بَغِيٍّ فَاجِرَةٍ، وَلَا يُمَكِّنُ إِقَامَةَ الْبَيِّنَةِ عَلَى زَنَاهَا فِي الْغَالِبِ، وَهِيَ لَا تُقَرُّ بِهِ، وَقَوْلُ الزَّوْجِ عَلَيْهَا غَيْرُ مَقْبُولٍ؛ فَلَمْ يَبْقَ سِوَى تَحَالُفِهَا بِأَغْلَظِ الْإِيْمَانِ، وَتَأْكِيدِهَا بِدُعَائِهِ عَلَى نَفْسِهِ بِاللَّعْنَةِ وَدُعَائِهَا عَلَى نَفْسِهَا بِالْغَضَبِ إِنْ كَانَا كَاذِبَيْنِ.

ثُمَّ يَفْسَخُ النِّكَاحَ بَيْنَهُمَا؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ أَحَدُهُمَا أَنْ يَصْفُوَ لِلْآخَرِ أَبَدًا؛ فَهَذَا أَحْسَنُ حُكْمٍ يَفْصِلُ بِهِ بَيْنَهُمَا فِي الدُّنْيَا، وَلَيْسَ بَعْدَهُ أَعْدَلُ مِنْهُ، وَلَا أَحْكَمُ، وَلَا أَصْلَحُ، وَلَوْ جُمِعَتْ عُقُولُ الْعَالَمِينَ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ، فَتَبَارَكَ مَنْ أَبَانَ رُبُوبِيَّتَهُ وَوَحْدَانِيَّتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَعِلْمَهُ فِي شَرْعِهِ وَخَلْقِهِ.

من محاسن الشريعة فرض الحجاب على المرأة المسلمة ومنع الاختلاط بين النساء والرجال غير المحارم:

بل إِنَّهَا نَهَتْ أَنْ تَصِفَ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ لِزَوْجِهَا حَتَّى كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَلَا يَخْفَى أَنَّ ذَلِكَ سَدٌّ لِلذَّرِيعَةِ وَحِمَايَةٌ عَنْ مُفْسِدَةٍ وَقُوعِهَا فِي قَلْبِهِ وَمَيْلِهِ إِلَيْهَا بِحُضُورِ صُورَتِهَا فِي نَفْسِهِ، وَكَمْ مِمَّنْ أَحَبَّ غَيْرَهُ بِالْوَصْفِ قَبْلَ الرُّؤْيَةِ.

قال الشيخ أحمد بن عبد الرحمن الصويان: «كنت في زيارة لأحد المراكز الإسلامية في ألمانيا فرأيت فتاة متحجبة حجاباً شرعياً ساتراً قل أن يوجد مثله في ديار الغرب؛ فحمدتُ الله على ذلك، فأشار عليّ أحد الإخوة أن أسمع قصة إسلامها مباشرة من زوجها، فلما جلستُ مع زوجها قال:

«زوجتي الألمانية أباً لجدّ، وهي طبيبة متخصصة في أمراض النساء والولادة، وكان لها عناية خاصة بالأمراض الجنسية التي تصيب النساء، فأجرت عدداً من الأبحاث على كثير من المريضات اللاتي كنّ يأتين إلى عيادتها، ثم أشار عليها أحد الأطباء المتخصصين أن تذهب إلى دولة أخرى لإتمام أبحاثها في بيئة مختلفة نسبياً، فذهبتُ إلى النرويج، ومكثت فيها ثلاثة أشهر، فلم تجد شيئاً يختلف عما رأيته في ألمانيا، فقررت السفر للعمل لمدة سنة في السعودية.

تقول الطبيبة: «فلما عزمْتُ على ذلك أخذتُ أقرأ عن المنطقة وتاريخها وحضارتها، فشعرتُ بازدياد شديد للمرأة المسلمة، وعجبتُ منها كيف ترضى بذلّ الحجاب وقيوده، وكيف تصبر وهي تُمتَهَن كل هذا الامتهان؟!»

ولمّا وصلتُ إلى السعودية علمتُ أنني ملزمة بوضع عباءة سوداء على كتفيّ، فأحسست بضيق شديد وكأنني أضع إساراً من حديد يقيدني ويشلّ من حريتي وكرامتي (!!)، ولكنني أثرت الاحتمال رغبةً في إتمام أبحاثي العلمية.

لبثتُ أعمل في العيادة أربعة أشهر متواصلة، ورأيت عدداً كبيراً من النسوة، ولكنني لم أقف على مرض جنسي واحد على الإطلاق؛ فبدأتُ أشعر بالملل والقلق، ثم

مضت الأيام حتى أتممت الشهر السابع، وأنا على هذه الحالة، حتى خرجت ذات يوم من العيادة مغضبة ومتوترة.

فسألني إحدى الممرضات المسلمات عن سبب ذلك، فأخبرتها الخبر، فابتسمت وتمت بكلام عربي لم أفهمه، فسألتها: «ماذا تقولين؟!»، فقالت: «إن ذلك ثمرة الفضيلة، وثمره الالتزام بقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَالْحَفِظْتَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَنَفِظْتَ﴾ (الأحزاب: ٣٥).

هزتني هذه الآية وعرفتني بحقيقة غائبة عندي، وكانت تلك بداية الطريق للتعرف الصحيح على الإسلام، فأخذت أقرأ القرآن العظيم والسنة النبوية، حتى شرح الله صدري للإسلام، وأيقنت أن كرامة المرأة وشرفها إنما هو في حجابها وعفتها، وأدركت أن أكثر ما كُتب في الغرب عن الحجاب والمرأة المسلمة إنما كتب بروح غربية مستعلية لم تعرف طعم الشرف والحياء!.

إن الفضيلة لا يعدلها شيء، ولا طريق لها إلا الالتزام الجاد بهدي الكتاب والسنة، وما ضاعت الفضيلة إلا عندما استخدمت المرأة ألعوبة أيدي المستغربين وأباطرة الإعلام^(١).

لقد أثبتت التجارب والمشاهدات الواقعية، أن اختلاط الرجال بالنساء يثير في النفس الغريزة الجنسية بصورة تهدد كيان المجتمع. كما ذكر أحد العلماء الأمريكيين وهو "جورج بالوشي" في كتاب "الثورة الجنسية". وقال بأن الرئيس الأمريكي الراحل كينيدي قد صرح عام ١٩٦٢ بأن مستقبل أمريكا في خطر لأن شبابها مائع منحل غارق في الشهوات لا يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه وأن من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين لأن الشهوات التي أغرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية.

(١) ثمرة الفضيلة، أحمد بن عبد الرحمن الصويان، مجلة البيان (العدد ١٦١).

إن دعاة الاختلاط لا تسوقهم عقولهم، وإنما تسوقهم شهواتهم، وهم يتعدون عن الاعتبار بما وصلت إليه الشعوب التي تبيح الاختلاط والتحرر في العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة. من ذلك ما أورده تقرير لجنة الكونجرس الأمريكية عن تحقيق جرائم الأحداث، من أن أهم أسبابها الاختلاط بين الشباب من الجنسين بصورة كبيرة. ولقد ثبت من خلال فحص كثير من الجرائم الخلقية أن الاختلاط هو المسئول الأول عنها.

وماذا يقول أنصار الاختلاط عن فضيحة وزير الصناعة في إنجلترا مع سكرتيته التي أشارت إحدى الصحف إليها بأنها تنتظر مولودا منه، الغريب أن صحيفة التايمز البريطانية قد أشارت إلى أن مارجريت تاتشر، قد لعبت دورا رئيسيا في إقناع وزير الصناعة "باركتسون" بعدم الزواج من سكرتيته والاستمرار مع زوجته على أمل ألا يخطّ زواجه من السكرتيرة من قدره.

وهذا الخبر يحمل في مضمونه أثر الاختلاط بين وزير وسكرتيته بدون محرم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يحمل عدم الاعتراف بما نجم عن هذا الاختلاط، وهذا يعنى بصورة غير مباشرة عدم الاعتراف بالاختلاط والاستمرار فيه فالاختلاط في عمومه يحمل من الآثار السيئة ما يجعل كثيرا من الدعاة المخلصين يدعون إلى تنظيمه في إطار محدد يمنع شروره. مما يعد رجوعا إلى الهدى النبوى الشريف منذ أربعة عشر قرنا.

دعوات غربية لتطبيق الشريعة الإسلامية

نشر موقع "الإسلام اليوم" أن كبرى الصحف الاقتصادية الغربية دعت إلى تطبيق الشريعة الإسلامية كحل مؤكد للخروج من الأزمة المالية العالمية التي تهدد بانهيار أسواق المال العالمية، بعد الأزمة الاقتصادية الخطيرة التي هزت أمريكا وأوروبا. فقد كتب (بوفيس فانسون) رئيس تحرير مجلة (تشالينجز) في ٤/١٠/٢٠٠٩ هـ الموافق ٥/١٠/٢٠٠٨ موضوعاً بعنوان (البابا أو القرآن) تساءل الكاتب فيه عن أخلاقية الرأسمالية؟ ودور (المسيحية) كديانة، والكنيسة الكاثوليكية بالذات في تكريس هذا المنزع والتساهل في تبرير الفائدة، مشيراً إلى أن هذا النسل الاقتصادي السيئ أودى بالبشرية إلى الهاوية.

وتساءل الكاتب بأسلوب يقترب من التهكم من موقف الكنيسة قائلاً: «أظن أننا بحاجة أكثر في هذه الأزمة إلى قراءة القرآن بدلاً من الإنجيل لفهم ما يحدث بنا وبمصارفنا^(١) لأنه لو حاول القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن من تعاليم وأحكام وطبقوها ما حل بنا ما حل من كوارث وأزمات وما وصل بنا الحال إلى هذا الوضع المزري؛ لأن النقود لا تلد النقود».

بدوره، طالب (رولان لاسكين) - رئيس تحرير صحيفة (لوجورنال ديفينانس) - بوضوح أكثر بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية في المجال المالي والاقتصادي لوضع حد لهذه الأزمة التي تهز أسواق العالم من جراء التلاعب بقواعد التعامل والإفراط في المضاربات الوهمية غير المشروعة.

(١) المصرف: البنك.

وعرض "لاسكين" في مقاله بافتتاحية الصحيفة التي يرأس تحريرها والذي جاء بعنوان: «هل تأهلت وول ستريت لاعتناق مبادئ الشريعة الإسلامية؟»، المخاطر التي تحدق بالرأسمالية وضرورة الإسراع بالبحث عن خيارات بديلة لإنقاذ الوضع، وقدم سلسلة من المقترحات المثيرة في مقدمتها تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية برغم تعارضها مع التقاليد الغربية ومعتقداتها الدينية.

ومن ناحيتها، أصدرت الهيئة الفرنسية العليا للرقابة المالية - وهي أعلى هيئة رسمية تعنى بمراقبة نشاطات البنوك - قرارًا يقضي بمنع تداول الصفقات الوهمية والبيوع الرمزية التي يتميز بها النظام الرأسمالي، وهو ما يتطابق مع أحكام الفقه الإسلامي.

كما أصدرت نفس الهيئة قرارًا يسمح للمؤسسات والمتعاملين في الأسواق المالية بالتعامل مع نظام الصكوك الإسلامي في السوق المنظمة الفرنسية.

والصكوك الإسلامية هي عبارة عن سندات إسلامية مرتبطة بأصول ضامنة بطرق متنوعة تتلاءم مع مقتضيات الشريعة الإسلامية.

كما أكد تقرير صادر عن مجلس الشيوخ الفرنسي أن النظام المصرفي الإسلامي مريح للجميع مسلمين وغير مسلمين ويمكن تطبيقه في جميع البلاد فضلًا عن كونه يلبي رغبات كونية.

وكانت لجنة المالية ومراقبة الميزانية والحسابات الاقتصادية للدولة بمجلس الشيوخ الفرنسي قد نظمت طاولتين مستديرتين في منتصف مايو ٢٠٠٨ حول النظام المصرفي الإسلامي لتقييم الفرص والوسائل التي تسمح لفرنسا بولوج هذا النظام الذي يعيش ازدهارًا واضحًا وجمعت أعمال الطاولتين في تقرير واحد.

وأعطت الطاولة المستديرة الأولى صورة عن أنشطة الصناعة المالية الفرنسية في سوق ما زال متركزًا في المنطقة العربية وجنوب شرق آسيا، والأهمية المتزايدة بالنسبة لفرنسا في أن تعتنى بهذا المجال المالي المعتمد على الشريعة الإسلامية.

كما ركزت الطاولة المستديرة الثانية على العوائق التشريعية والضريبية المحتمل أن تحول دون تطوير هذا النظام في فرنسا ومن ذلك مثلاً فتح مصارف إسلامية بفرنسا أو إقامة نظم تشريعية وضريبية على التراب الفرنسي تراعي قواعد الشريعة الإسلامية في المجال المالي أو إصدار صكوك.

وإطلاق صفة (الإسلامي) على منتج مالي أو معاملة مالية يعني احترام خمسة مبادئ حددها النظام الإسلامي المالي، وهي تحريم الربا، وتحريم بيع الغرر والميسر، وتحريم التعامل في الأمور المحرمة شرعاً (كالخمر والزنا)، وتقاسم الربح والخسارة.

كما سنحت للطاولة بحسب موقع الجزيرة نت الإطلاع على التجربة البريطانية في هذا المجال وما يمكن استخلاصه منها والإطلاع كذلك على الأفكار التي تُداول في فرنسا في ذلك الحين حول هذا الموضوع من طرف المتخصصين والسلطات العمومية.

وأكد التقرير تناقض الموقف الفرنسي من النظام المصرفي الإسلامي، فهناك اهتمام بهذا النظام وفي نفس الوقت يوجد جمود في التعاطي معه، فأغلب المجموعات المصرفية الفرنسية فتحت لها فروعاً في البلاد العربية والإسلامية تتعاطى مع النظام الإسلامي المالي، في حين ما زال موقف الفروع الرئيسية بفرنسا محجماً في التعاطي معه.

كما أنه لا توجد معوقات تشريعية أو ضريبية من شأنها أن تفسخ بيوعاً ذات صبغة إسلامية، بل إن بعض النصوص التشريعية الفرنسية في مجال الضرائب غير بعيدة عن النصوص الإسلامية.

ودعا التقرير إلى توسيع دائرة النقاش حول هذا الموضوع ليشمل إلى جانب لجنة مجلس الشيوخ الجالية المسلمة الموجودة في فرنسا والمكونة من خمسة ملايين ونصف مليون شخص. وتعد فرنسا متأخرة جداً في مجال احتضان هذا النظام مقارنةً مع الدول الأوروبية حيث كانت بريطانيا الرائدة في القبول به على أراضيها وقد أصدرت نصوصاً تشريعية وضريبية من شأنها أن تشجع النظام الإسلامي المالي وفتح بها أول مصرف إسلامي عام ٢٠٠٤.

وتظهر منافسة النظام المصرفي الإسلامي للنظام المصرفي الغربي في كَوْن معدل النمو السنوي للأنشطة الإسلامية يتراوح ما بين ١٠ إلى ١٥٪. كما بلغ مجموع الأنشطة المسيرة من قبل المصارف ومؤسسات التأمين الإسلامية ٥٠٠ مليار دولار نهاية عام ٢٠٠٧.

الآثار الاقتصادية السيئة للربا

إن القرآن الكريم قد حرّم الربا ومنع الناس من التعامل به، لما فيه من الظلم وأكل أموال الناس بالباطل، وهذا ما كان يدركه المسلمون في صدر الإسلام، وأمّا اليوم فإنّ العلماء والخبراء الاقتصاديين يدركون أضرار الربا ومفاسده تبعاً لتطوّر العمليات الاقتصادية ومنها: سوء توزيع الثروة، وهدر الموارد الاقتصادية، وضعف التنمية الاقتصادية والاستثمار، والتضخم، البطالة وغيرها، كلّ هذا يدلّ على أنّ هذا التشريع معجز، وأنّه من عند الله ﷻ ولا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله.

إن آثار الربا وأضراره ومفاسده - التي اكتشفها الناس اليوم نتيجة تطوّر العمليات الاقتصادية وتعقّدها - تؤكّد أن تشريع الله في الربا معجز ولا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، مما يدلّ دلالة قاطعة على أنّ هذا التشريع من عند الله العليم الخبير، وليس من عند محمد ﷺ ولا صحابته رضي الله عنهم، لعدم مقدرتهم على معرفة وإدراك كثير من حكم وأسرار هذه التشريع.

إنّ التعامل بالربا فيه مفسد كثيرة، ومنع التعامل به فيه مصالح كثيرة للفرد والمجتمع، وهذا يثبت ويبيّن حقيقة الإعجاز الذي جاء به القرآن في هذا الجانب من التشريع. إن من أضرار الربا ومفاسده:

١- سوء توزيع الثروة:

تتركز عملية الإقراض بفائدة (الإقراض الربوي) على الأشخاص القادرين على تقديم ضمانات تسديد القروض وفوائدها، وهو ما يؤدي إلى تركّز ثروة البلاد في أيدي عددٍ قليل من الأشخاص، وتأييداً لهذا المعنى يقول الدكتور شاخت الألماني الجنسية والمدير السابق لبنك الرايخ الألماني: «إنّه بعملية غير متناهية يتّضح أن جميع مال الأرض صائر إلى عددٍ قليل جداً من المربين، ذلك لأنّ المرابي يربح دائماً في كل عملية، بينما المدين معرض للربح والخسارة، ومن ثمّ فإنّ المال كلّ في النهاية لا بدّ بالحساب الرياضي أن يصير إلى الذي يربح دائماً».

ومن مظاهر سوء توزيع الثروة تسخير العمل لحساب رأس المال، حيث يقوم الإنتاج على عنصرين: العمل والمال، والعمل هو الأساس الأول، لأنه هو الذي يوجد المال في الأصل، وموجب ذلك أن يتحمل كل من العنصرين نصيبه من الربح والخسارة، فإذا أشركنا صاحب المال في الربح، وجب أن يشترك في الخسارة النّازلة، غير أن الفائدة تهدم هذا البنيان الطّبيعيّ، وتسخر العمل لحساب رأس المال، لأن المنتج وهو المدين دائماً، يضمن للمرابي رأس ماله، ونصيبه من الربح، دون أن يشارك هذا الأخير في الخسارة النّازلة.

وبناءً على ما سبق فإنّ الذين يتركّز عندهم المال فئتان:

الفئة الأولى: المرابون الذين يقرضون المال ويربحون دائماً.

الفئة الثانية: الأشخاص الأغنياء المقترضون القادرون على تقديم ضمانات تسديد قروضهم.

وهذا يؤدي إلى تداول المال بين المرابين والأغنياء القادرين على تقديم ضمانات مما يجعل المال متداولاً بين هؤلاء وهو مخالف لمنهج الإسلام.

إن الطريقة الإسلامية يهّمها أن يكون الأشخاص القائمين على المشاريع من أهل الأمانة والخبرة والالتزام، وهذا يؤدي إلى تحقيق العدالة الاجتماعية في توزيع الثروة والدخل بين الناس.

إن ربّ المال - في نظام المشاركة الإسلامي - لا يطلب ضمانات، لأنّه هو الضّامن للمال، بحيث يتحمّل خسارته إذا وقع مقابل تحمّل العامل ضياع عمله.

وهذه المقارنة منطقيّة تقبلها العقول السليمة، فلو قسمنا الناس إلى فئتين: فئة تقرض بفائدة وفئة تقرض بفائدة، أمّا التي تقرض فتربح دائماً، وأمّا التي تقرض فهي معرّضة للربح والخسارة، فإذا تم تداول كمية من المال بين هاتين الفئتين، فإن هذه الكمية صائرة إلى الذين يربحون دائماً، لأنهم يسترجعون رأس المال مضافاً إليه الفائدة، أما الفئة الأخرى فهي معرّضة للخسارة وأغلب الظنّ أنّها ستحصل ولو لمرة واحدة، فيتمّ تسخير جهدهم وعملهم لخدمة رأس مال الفئة الأولى.

ولا يمكن لنظام الفائدة أن يُعالج مشكلة الفقر أو يصلح الدول الفقيرة، فالتزيف مستمر من الفقراء إلى أصحاب المال، وأصحاب المال تزيد أموالهم زيادة مستمرة، فالأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقراً، ومديونية الدول الفقيرة في ازدياد وفوائد هذه الديون في ازدياد أيضاً.

٢- هدر الموارد الاقتصادية:

ينتج هذا عند الإقراض بفائدة لأموال لا يتم توجيهها إلى أنشطة ومشاريع ذات جدوى ومنفعة حقيقية لحياة الناس. فيتم توجيه الاقتصاد وجهةً منحرفة من مشروعات صناعية وتجارية إلى نوادٍ للقمار والعهر والفساد بما يعود بالضرر على المجتمع، وكذلك تشجيع الناس على المغامرة والإسراف، بتسهيل وضع المال في أيدي المغامرين والجهلة والمسرّفين. فيؤدي هذا إلى هدر الموارد الاقتصادية.

إن هدر الموارد الاقتصادية ينتفي في الطريقة الإسلامية التي ينبغي أن توظف الأموال في مشاريع ذات منفعة حقيقية لحياة الناس وللدورة الاقتصادية في البلاد. فالأموال في النظام الإسلامي لا تمنح كقرض لا يُعلم إلى أين يتجه؟ إلى سلع استهلاكية أو متع ترفيحية أو أدوات كمالية.

٣- ضعف التنمية الاقتصادية والاستثمار:

من مقاصد النظم المالية الإسلامية والمؤسسات المصرفية الإسلامية المساهمة في التنمية وتحقيقها، وتمويل المشروعات الإنتاجية بنظام المشاركة وفقاً لقاعدة الغنم بالغرم. فالصيف الإسلامية - كالمضاربة الإسلامية، والمشاركات، والاستصناع والسّلم، والمرابحاث وغيرها - تتميز بأنها تتفاعل مع السلع لتولد مجموعة من الأنشطة الاقتصادية التي توظف أكبر عدد من عوامل الإنتاج ومنها عنصر العمل، وتساعد في علاج مشكلة البطالة والفقر وتحقيق الأمن الاقتصادي.

ويرى علماء الاقتصاد أن النقود لا تلد نقوداً، بل لابد من تدويرها من حلبة النشاط الاقتصادي، ثم تنقلب إلى سلع وخدمات، وتتفاعل مع عوامل أخرى لتحقيق النمو والتطور.

أما الإقراض بنظام الفائدة فإنه يؤدي إلى تضيق دائرة التمويل، لأنه يعتمد على ضمانات لا يقدر عليها إلا الأغنياء. ورب المال في نظام الفائدة أقل اهتمامًا بنجاح المشروع، ولا تهمّه الأمانة والخبرة والمقدرة في العمل، لأن أكثر ما يهمّه أن يكون المقترض غنيًا ومليئًا، وأن تكون فائدته ثابتة، ورأس ماله مضمونًا.

وبناءً عليه فكلّما توسّع الناس في الضمانات فإنه يؤدي إلى تخفيض التمويل، وهذا يعني تقليل الاستثمار، والذي يأخذ فائدة مضمونة لا يهتم بنجاح المشاريع الاقتصادية، وهذا بدوره يؤدي إلى ضعف التنمية الاقتصادية.

وإن تقلّص دور الضمانات في نظام المشاركة مثلاً يساعد على توسيع دائرة التمويل بحيث تشمل الفئات الأقل من العمال المهرة. وتوسيع دائرة التمويل يؤدي إلى زيادة الاستثمار وتشجيعه، بحيث يشمل العمال المهرة كالحدادين والتجارين وأصحاب المعامل الصغيرة على اختلاف حرفهم.

إن الإقراض بنظام الفائدة يقوم على تحديد سعر الفائدة مسبقًا، وهذا يؤدي إلى حجب بعض المشروعات التي يقل مردودها عن الفائدة الواجب دفعها، أو يساويها، أو لا يزيد عنها إلا قليلًا.

فبتحديد سعر الفائدة مقدّمًا - قبل أن يعلم أحد قيمتها الحقيقية بالضبط - ظلم للمقترض أو المقرض، فإذا ازدادت نسبة صافي الربح الفعلي عن سعر الفائدة وقع على المقرض ظلم بحرمانه من هذه الزيادة، وإذا قلّت نسبة صافي الربح الفعلي عن سعر الفائدة وقع على المقرض ظلم بإلزامه بسداد الفائدة بالكامل رغم زيادتها على الربح المحقق فعليًا. وهذا بيان للظلم الذي يقع على المقرض أو المقترض بسبب الإقراض بفائدة.

هذا بالنسبة إلى تحديد سعر الفائدة مسبقًا، أما ارتفاع سعر الفائدة فإنه يؤدي إلى إعاقة التنمية الاقتصادية، لأن رجل الأعمال عندما يفكر في توسيع مصنعه أو إنشاء مصنع جديد يرى أن سعر الفائدة سوف يلتهم ثمرة عمله فيحجم عن هذه المخاطرة، بل قد يؤثّر الكثيرون السلامة والكسل فيودعون أموالهم في البنوك أو شهادات الادخار

قانعين بما تدرّه عليهم من فوائد مُعرّضين عن الخوض في مجال التنمية وإيجاد الرزق الحلال والعمل الطيب للناس.

ويؤكد هذه المعاني الاقتصادي المشهور "جون كينز" فيقول: «إن معدل سعر الفائدة يعوق النمو الاقتصادي لأنه يعطل حركة الأموال نحو الاستثمار في حرية وانطلاق، فإن أمكن إزالة هذا العائق فإن رأس المال سيتحرك وينمو بسرعة».

وبرهان ذلك أنه من المقرر محاسبياً احتساب الفائدة ضمن تكاليف الإنتاج، فتعتبر كأي نفقة من نفقات الإنتاج، مثل الإيجار والكهرباء والمياه. وبناء على هذا تزيد النفقات كلما زادت الفائدة، وتقل كلما قلت، وبالتالي فإن الأرباح تقل كلما زادت الفائدة وتزيد كلما قلت الفائدة، فارتفاع سعر الفائدة يؤدي إلى انخفاض صافي الربح، وهذا بدوره يؤدي إلى انكماش حجم الاستثمار، وإلى توقف التكوين الرأسمالي، وإلى هبوط الدخل القومي، وانخفاض القوة الشرائية، والعكس صحيح، ومن هنا يتضح أن من مصلحة الاقتصاد القومي القضاء نهائياً على الفائدة.

ومما يعيق التنمية الاقتصادية ويُضعف الاستثمار ما تفرضه السياسة النقدية للبنوك المركزية على البنوك الأخرى الخاضعة لها من ضرورة الاحتفاظ بنسبة معينة من إجمالي الودائع الخاصة بكل بنك في حساب خاص به لدى البنك المركزي فيما يُعرف بالاحتياطي القانوني بهدف حماية أموال المودعين من ناحية، وتحجيم دور البنوك في زيادة العرض النقدي، هذه السياسة النقدية - التي تلائم المصارف التي تعتمد على نظام الفائدة - تؤدي إلى تعطيل جزء من الأموال التي قدمها أصحابها لتلك المؤسسات بغرض استثمارها.

٤ - التضخم:

يدور مفهوم التضخم حول الزيادة في كمية النقود تؤدي إلى ارتفاع في الأسعار، فهو ظاهرة تتمثل في انخفاض القوة الشرائية للنقود المقترضة أو ارتفاع الأسعار. ومن أسباب هذه الظاهرة زيادة كمية النقود.

وتأييداً لهذا يرى عالما الاقتصاد السويدي "فيكسل" والإنجليزي "كينز" أن التضخم يحدث عندما تزداد كمية النقود، حيث يزيد الطلب الكلي على السلع والخدمات أكثر من العرض الكلي لهذه السلع والخدمات.

ومما يدل على أثر الفائدة في التضخم أن صاحب المال لا يرضى إذا استثمر ماله في صناعة أو زراعة أو شراء سلعة أن يبيع سلعته أو الشيء الذي أنتجه إلا بربح أكثر من نسبة الربا، لأنه يفكر أنه استثمر المال وبذل الجهد واستعدّ لتحمل الخسارة، فلا بد أن تكون نسبة الربح أكثر من نسبة الربا، وكلما ازدادت نسبة الربا غلت الأسعار أكثر منها بكثير، هذا إذا كانت المنتج أو التاجر صاحب مال، وأما إذا كان ممن يقترض بالربا فرفعه للأسعار أمرٌ بدهيّ، حيث سيضيف إلى نفقاته ما يدفعه من الربا.

٥- البطالة:

أكبر مشكلتين يواجههما الاقتصاد الرأسمالي: البطالة والتضخم، وتزيد معدلات البطالة مع ارتفاع التضخم، فارتفاع الأسعار دون زيادة متناسبة في الأجور سوف تؤدي إلى الإقلال من الطلب على السلع، وبالتالي إلى انخفاض حجم الاستثمار والإنتاج ومن ثم زيادة معدلات البطالة.

لقد ساعدت الفائدة على وجود طبقة من البطالة المقنعة تمثلت في هؤلاء المدخرين الذين يقعدون عن العمل اكتفاءً بما توفره لهم الفائدة من دخل ثابت مما يحرم كثيراً من المشاريع من عمل هؤلاء المدخرين، وكذلك فإن أصحاب الأموال يفضلون إقراض أموالهم بالربا على استثمارها في إقامة مشاريع صناعية أو زراعية أو تجارية، ولهذا يقلل فرص العمل، فتنشر البطالة في المجتمعات التي يسود فيها التعامل الربوي.

ويؤيد هذه الفكرة الاقتصادي المشهور "كينز" فيقول: «إن العمالة الكاملة هي الواجب الأول للدولة ولا تتحقق إلا إذا أنزل سعر الفائدة إلى الصفر أو ما يقرب من ذلك، والعمالة الكاملة هي أن يجد كل راغب في العمل فرصته».

فيرى الاقتصادي كينز أن علاج مشكلة البطالة يكون بانعدام الفائدة أو بتخفيضها إلى أدنى حد ممكن، وهذا رأي علماء الاقتصاد الذين لا يدينون بالإسلام، مما يدل على أن الإسلام في موضوع الربا معجز.

وأما تعليل ذلك فإن الفائدة تؤدي إلى زيادة أسعار السلع فينقص الطلب عليها وينحسر الاستهلاك مما يؤدي إلى فائض في المنتجات، وقد يلجأ المنتجون في سبيل تخفيض الأسعار إلى تخفيض أجور العمال أو الاستغناء عن بعضهم.

أضرار الميسر بين الشريعة والحياة

الميسر هو القمار، وهو كل المغالبات التي يكون فيها عوضٌ من الطرفين من النرد والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية بعوض.

وفي عصرنا الحديث تنوعت آلات الميسر وتعددت صنوفها حتى فاقت الحصر أو كادت، وقد تفاقم الأمر مع تطور وسائل الإعلام والاتصال، فخاطر الناس وتغالبا في المبارات الرياضية بين الفرق، وعبر الشبكة العالمية (الإنترنت)، ورسائل الجوال القصيرة، والمسابقات في القنوات التلفزيونية والإذاعية، وربما سموها ألعاباً أو جوائز أو غيرها من الأسماء اللامعة، وهي لا تغير من حقيقتها شيئاً.

فكل ذلك من الميسر والقمار المحرم شرعاً، إذ توفرت فيها كل أركان الميسر.

أركان الميسر:

- اللاعبون: هما المشارك أو المشاركون في اللعبة أو المسابقة من جهة، والمنظم للعبة أو المسابقة من جهة أخرى وقد يكون شخصاً واحداً أو شركة.
- آلة الميسر: وهي المسابقة أو اللعبة مثل مباراة رياضية بين فريقين، أو سباق بين خيول، أو مصارعة بين رجلين، أو إرسال رسالة قصيرة من الهاتف الجوال إلى الرقم الفلاني تتضمن كلمة معينة ثم تتم القرعة بين المرسلين فمن خرج سهمه كان هو الفائز.
- المال: الذي يُيسر (يقامر) به الطرفان وهو ما يشتريه اللاعب من أوراق، أو تكلفة المكالمات الهاتفية من جهة اللاعب المتصل، أو تكلفة الرسالة القصيرة التي يرسلها، وما ينفقه الشخص أو الشركة المنظمة للعبة أو المسابقة من أموال يدفعها إلى شركات الاتصال أو وسائل الإعلام.

- نتيجة اللعبة: التي لا بد أن تكون خسارةً أو ربحاً كنتيجة كل أنواع الميسر القديمة والحديثة، ومما يميز الميسر في عصرنا الحديث أن الخاسر دائماً هو جهة واحدة وهي الأضعف وهو من يجمع دراهمه ودنانيره من الفقراء والمساكين ومن أصحاب الدخل المتوسط، ويُخدعون بتخصيص نزر يسير مما جمع من أموالهم ليدفع إلى واحد أو اثنين منهم، فيصدقون بعقولهم العفنة أن ذلك فائز!!!، أما الشخص المنظم للعبة أو المسابقة فلن يخسر شيئاً بحال من الأحوال، إلا ما يخسره من دينه وذلك شر الخسائر، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ (الشورى: ٤٥).

حكم الميسر في الشريعة الإسلامية:

إن الإسلام يريد من المسلم أن يتبع سنن الله ﷻ في اكتساب المال، وأن يطلب النتائج من مقدماتها، ويأتي البيوت من أبوابها، والقمار يجعل الإنسان يعتمد على الحظ والصدفة والأمانى الفارغة، لا على العمل والجد واحترام الأسباب التي وضعها الله وأمر باتخاذها.

والإسلام يجعل لمال الإنسان حرمة فلا يجوز أخذه منه إلا عن طريقة مبادلة مشروعة، أو عن طيب نفس منه بهبة أو صدقة، أما ما أخذ بالقمار فهو من أكل المال بالباطل.

وقد دل على تحريم الميسر قوله تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ (المائدة: ٩٠-٩١).

ففي الآية الكريمة من صيغ التحريم وصف الميسر بأنه: ﴿رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ مما يدل على تحريمه وأنه من الكبائر، وكذلك الأمر باجتنابه في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ واجتناب الشيء هو التباعد عنه بأن تكون في غير الجانب الذي هو فيه، ومن اجتنب شيئاً وابتعد منه لم يتعاطاه، ومن صيغ تحريم الميسر أيضاً الأمر بالانتهاء منه ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ فهو أبلغ في الزجر من صيغة الأمر التي هي: انتهوا.

أضرار الميسر الدينية:

هناك مفاسد دينية كثيرة تترتب من تعاطي الميسر والقمار ومنها أن في الميسر إثماً كبيراً فتعاطي الميسر عمل يستحق فاعله عقاب الله ﷻ ويعرضه لسخطه، وإثم الميسر أعظم بكثير مما قد يحصله من المال وعرض الدنيا الزائل، والله ﷻ لم يجعل الحرام طريقاً للكسب ولا سبباً للسعادة في الدنيا، بل إن تقوى الله ﷻ وفعل أوامره واجتناب نواهيه هي سبب كل خير في الدنيا والآخرة.

والميسر قرين الشرك وشرب الخمر: وهذه الصفة مما يزيد قبحه شرعاً، فالمنهيات على درجات، واقتران منهي من المنهيات بأكبر الكبائر في الذكر يزيده قبحاً وسوء، وقد نهى الله عن الميسر وقرنه بكبائر أخرى وعلى رأسها الشرك بالله تعالى فقال ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ والأنصاب حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، وأما الأزلام فهي قِدَاحٌ كانوا يستقسمون بها، وكل ذلك من الشرك وهو أعظم ما عصي الله به ولا يغفر الله لمن مات عليه.

ومن أضرار الميسر أنه من موانع الفلاح، وذلك بمجرد ارتكابه بدون استحلال فيمنع من مطلق الفلاح لما يسحقه من يلعب بالميسر من غضب الله ﷻ وعذابه لأنه من كبائر الإثم، ويمنع من الفلاح مطلقاً إذا استحل الميسر وكذب الله ﷻ ورسوله ﷺ، ورمى الشريعة بالضيق والقصور فيخرج بذلك من الإسلام، ويستحق الخلود في النار والعياذ بالله.

والميسر يصد عن ذكر الله وعن الصلاة فمن يتعاطون الميسر يهدرون أوقات غالية في ممارسة اللعب بوسائل الميسر من أوراق أو كعاب وغيرها، وبمتابعة أخبار الفائزين والخاسرين، ويضيعون الجُمع والجماعات، ويعرضون عن مجالس ذكر الله وحلق العلم، ويغفلون عن المواعظ وعن تذكر الموت وعذاب القبر وعن أهوال الآخرة، فتصبح معيشتهم ضنكا بما يخسرون من أموالهم وبما يضيعون من أعمارهم ويفوتون من مصالحهم.

مفاسد الميسر الدنيوية:

إن للميسر مفاسد تتعلق بالحياة الدنيا فتعكرها وتنغص صفوها، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض تلك المفاسد، كما أن بعضها مشاهدة وملموسة من واقع الحياة اليومية للمشتغلين بالميسر، وهذه بعض تلك المفاسد الدنيوية:

١ - إن الميسر يسبب العداوة والبغضاء بين الناس:

فالميسر بأنواعه وأشكاله عادة سيئة يؤدي انتشارها في المجتمع إلى العداوة والبغضاء، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَيْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾.

ووجه ذلك - والله أعلم - أن الميسر لا يخلو من ربح أو خسارة، وكلاهما حاصل على نحو باطل لا يقره دين ولا عقل، وليس كربح التجارة أو خسارتها، لأن التاجر المسلم أو العاقل يعترف بقضاء الله وقدره، ويسلم بنهاية الصفقات حسب المقدمات الصحيحة التي تُمليها طبيعة العرض والطلب، أما المقامر فيسعى وراء خيال وسراب ويركض خلف حظ موهوم، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، فيعض على أنامل الحسرة، ويلتفت فإذا حوله مياسروه يسخرون بملء أفواههم لما ربحوه من أموال الناس بالباطل، فهل بعد ذلك يُتصور بين الفريقين مودة أو رحمة، لا وهيات !!

٢- إن الميسر من عوامل انتشار البطالة:

إن شيوع الميسر في المجتمع يعطل الصناعات ويخسر التجارات وتهلك المزارع، كيف لا، والشياطين تعدّ السذج من الناس بالغنى الفاحش والثراء الطاغي بمجرد مشاركة في لعبة الميسر.

٣- إن الميسر يساهم في تفشي الجريمة:

إن صالات القمار، أو قل إن مجتمعات القمار لا تخلوا في أغلب الأحيان من جرائم السرقة والقتل ومن الشرب والخلاعة والميوعة، أما السرقة فلأن المشاهد للعبة القمار وكيف يخسر هذا بسرعة وكيف يربح ذلك في طرفة عين تستهويه العملية فيود المشاركة فيها بأي طريق ممكن، وغالبا ما يلجأ إلى السرقة لإشباع تلك الرغبة العارمة. وأما القتل فلما يسوء بعضهم أن يذهب ماله هباءً في دقيقة واحدة وربما تعب وكدّ في تحصيله، فيشتاط غضباً، فيتحرّ هو، أو يقتل أصحابه ليسترد ما ذهب من ماله. والمجتمعات البشرية اليوم تعاني من ويلات هذه الأضرار والمفاسد، الناتجة عن الميسر الذي حرمه الله ﷻ وبين أضراره في كتابه ومن أصدق من الله حديثاً، ولا منجى ولا مفر من ضنك الحياة وضيق المعاش إلا بالرجوع إلى الله ﷻ والتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ.

إعجاز القرآن في الضبط الاجتماعي

ذكر العلماء أنّ الوحي يشتمل على كافة العلوم إما تفصيلاً أو تأصيلاً، أي: إما بتفاصيلها أو بأصولها، ولا زال الوحي يؤكد أن عجائبه لا تنقضي، وأنّ العلماء كلما أمعنوا النظر فيه خرجوا بحقائق علمية في غاية الدقة.

ولما كان الأمر كذلك فقد فقدت المعرفة - باستبعاد الوحي - رافداً من أهم روافدها فدخلت في أزمة خانقة، وإذا كانت العلوم الطبيعية - رغم طبيعتها المادية ورغم دقتها وصحة جزئياتها - في الغالب - قد احتيج فيها إلى معطيات الوحي، فإنّ العلوم الاجتماعية والإنسانية هي أكثر حاجةً للوحي من تلك العلوم الطبيعية، وتتمثل هذه الحاجة في أمور كثيرة منها:

● إنّ العلوم الإنسانية والاجتماعية ذات طبيعة تختلف كل الاختلاف عن تلك العلوم الطبيعية، ولأجل ذلك يكثر فيها من التنظير ما لا يكثر في العلوم الطبيعية، الأمر الذي يجعل الإنسان أكثر تدخلاً فيها وأكثر تثبيتاً للأمور الذاتية.

● إنّ الصفة العلمية - حسب المفهوم الغربي - في العلوم الاجتماعية والإنسانية مهتزة إلى حد كبير، إذ أن أكثر موادها غير قابلة للتجريب والتحقق العلمي، الأمر الذي يتيح تدخل الأهواء والأخيلة البشرية في تفسير الظواهر تدخلاً مباشراً.

● إنّ العلوم الاجتماعية والإنسانية لما كانت ذات طبيعة قِيَمِيَّة فقد احتلت المكانة السامية التي كان يحتلها وحي السماء في إرشاد الناس وتوجيههم لما يصلحهم دون الاستعانة بمعطيات هذا الوحي، الأمر الذي جعلها تتخبط تخبطاً شديداً دون أن تصل إلى شيء مقبول.

● إذا كان الوحي يساهم مساهمة فاعلة في تشكيل الرؤى الكلية للعلوم الطبيعية، وإذا افترضنا أنه لا يمكن دخوله في جزئيات هذه العلوم ذات الطبيعة المادية، حيث يمكن إدراك هذه الجزئيات من الواقع المادي المحسوس مباشرة في أكثر الأحيان - فإن هذا الافتراض في العلوم الاجتماعية والإنسانية غير مقبول ابتداءً، إذ أن هذه

العلوم تحتاج إلى الوحي ليس في تشكيل الرؤى الكلية ولا في بلورة النظريات فحسب بل يتعدى الأمر ذلك إلى جزئيات هذه العلوم وتفاصيلها الدقيقة أيضًا، إذ أن طبيعة بنائها يقتضي ذلك.

● لما لم تجد العلوم الاجتماعية والإنسانية بعد استبعاد الوحي من سلطة مرجعية ترتكز عليها فقد اتخذت هذه العلوم من العلوم الطبيعية سلطةً مرجعيةً تحاول تقليدها في كل شيء، رغم الاختلاف الكبير بين الطبائع في كلا النوعين من العلوم، ولأجل ذلك ظهرت المفارقة الكبرى في نظريات هذه العلوم، الأمر الذي يستوجب إعادة الوحي إلى مضمار المعرفة حتى يخرج هذه العلوم من مأزقها المعرفية.

● لما احتلت هذه العلوم الاجتماعية والإنسانية المكانة العالية التي كان يحتلها الوحي في توجيه الناس وإرشادهم وأصبحت بديلاً له رغم عدم اعترافها بمعطياتها، كانت ثمرة ذلك أنها لم تبين نفسها بناءً صحيحاً ولا اتخذت سلطةً مرجعيةً مناسبة ولا قدمت حلولاً معقولة للمشكلات خاصة مشكلات العالم الإسلامي المعاصر.

● أخذ العالم الإسلامي علومًا اجتماعية وإنسانية لم تنبع من ذاته، ولم تكن حلًا لمشاكله، وإنما كانت صدًى لمشكلات الغرب الخاصة التي عمل على ترويج أنها مشكلات عالمية باعتبار أنه مركز العالم، ولأجل ذلك لم تنجح هذه العلوم في حل مشكلات العالم الإسلامي من جهة بينما ناقشت قضايا تعتبر جانبية في العالم الإسلامي من جهة أخرى.

● عملت العلوم الاجتماعية على تحقيق الأهداف الاستعمارية وفرض المعايير والأنماط الثقافية الغربية بكافة مناهجها وقيمها مع خنق الثقافة المحلية المناهضة.

● لما لم تكن العلوم الاجتماعية والإنسانية علومًا محايدة - فقد أدى اعتمادها في العالم الإسلامي إلى الجهل بالذات وعدم إدراك الفوارق الذاتية لكل من المجتمعات الإسلامية والغربية.

إعجاز السنن الاجتماعية القرآنية:

لا شك أن الذي يميز السنن والقوانين الاجتماعية القرآنية التي تفسر النشاط الإنساني عمومًا أنها تقود إلى الحق والصدق واليقين لتمثل علما قاطعا لا تشوبه الأهواء ولا تعتريه الظنون، فيصدق عندئذ التنبؤ من خلال هذه القوانين وتسعد المجتمعات في حياتها الدنيا عند التزامها بالأوامر الإلهية المعيارية أو تشقى بمخالفتها، إذ أن السنن القرآنية في طبيعة الكون والأصول الإنسانية الاجتماعية ثابتة محايدة ليس لها من تغيير ولا تبديل ولا تحويل، وذلك بخلاف النظريات والقوانين الاجتماعية الوضعية ذات الأصول المتحيزة التي لم تسلم من الأهواء والظنون.

وهذا الجانب الذي يثبت فاعلية القوانين والسنن القرآنية وتميزها يشكّل جانبا من جوانب الإعجاز العميقة التي تتجلى في صدق المعاني والقوانين القرآنية عند انطباقها على الواقع الإنساني والاجتماعي بصورة عامة.

ولاشك أن الأحكام القرآنية قد جاءت لتحقيق السعادة، ولهذا فقد عملت على تحصيل المصالح وتعطيل المفسد في كافة أشكال الفعل الإنساني، وهذا هو وجه الإعجاز في ذلك حيث إن الأحكام القرآنية محققة لمصالح العباد بصورة لا يمكن أن يحققها أيّ تشريع ديني أو بشري آخر. ولما أكمل الله للمسلمين الدين وأتمّ عليهم النعمة فإنه لم يغادر في كتابه العظيم مصلحة دنيوية ولا أخروية إلا نبّه عليها.

القرآن وقضايا علم الاجتماع:

لقد القرآن العظيم اهتم اهتمامًا كبيرًا بتأسيس الحياة الاجتماعية وما ينشأ فيها من علاقات مختلفة، وأحكام القرآن وأوامره - في الغالب - هي قواعد تصوغ التفاعل الاجتماعي في كافة أشكاله وتحدد الأهداف والوسائل التي تمكّن من تحقيق هذه الأهداف. وما علم الاجتماع عمومًا إلا علم يقوم بدراسة التفاعل الاجتماعي ويصوغ هذا التفاعل حسب الأهداف العامة للمجتمع ووسائل ذلك، وغاية ما يصبو إليه هذا العلم هو دراسة هذا التفاعل وتفسيره ووضع القوانين التي تحكمه.

ولعلم الاجتماع قضاياها المحورية الكبرى مثل قضايا الأسرة والتغير الاجتماعي وضبط السلوك الإنساني وغير ذلك، ويعتبر موضوع الضبط الاجتماعي من أهم قضايا علم الاجتماع ويحظى بعناية واسعة من قبل العلماء والدارسين، ويتمثل ذلك في العناية بدراسة ماهيته ووسائله وأثره على الأفراد والجماعات وأثر عمليات التطور التلقائية والتداخل الثقافي الحادث بين المجتمعات.

والضبط الاجتماعي هو مجموعة من القواعد والمعايير الرسمية وغير الرسمية المنظمة للسلوك الإنساني والتي تعمل على تنظيم وتوجيه سلوك الفرد من خلال مجموعة من الوسائل التي تحدد أنماط السلوك المقبول وغير المقبول اجتماعياً، ويختلف هذا المفهوم اختلافاً جوهرياً باختلاف الرؤى الفكرية، ومن هنا فإن هذا المفهوم يختلف في الرؤية القرآنية عنه في الرؤية الغربية، حيث دار هذا المفهوم في الفكر الغربي حول ثلاثة اتجاهات:

- الاتجاه الطبيعي الذي يدرس الضبط كما موجود دون التركيز على الأهداف أو المثل التي يعمل على تحقيقها، ودون تكوين رؤية معيارية له.
 - الاتجاه النفسي وهو الاتجاه الذي يأخذ فيه هذا المفهوم صبغة سيكولوجية ويتم فيه استخدام معايير علم النفس وعلم النفس الاجتماعي.
 - الاتجاه المثالي الذي يذهب إلى أن الضبط الاجتماعي عملية ذاتية يضبط فيها المجتمع نفسه بنفسه وبمعاييره النسبية الخاصة.
- أما في الإسلام فإن الضبط ليس عملية نابعة من المجتمع نفسه، وإنما هو ضبط إلهي متعال، ويسعى هذا الضبط إلى صياغة الإنسان وتركيبته من خلال عملية لها أهدافها ومقاصدها التي تحقق للإنسان مصالح الدنيا والآخرة.

فلسفة الضبط الاجتماعي في القرآن:

يرتبط مفهوم الضبط الاجتماعي وطبيعته وماهيته في القرآن بالقيم والمقاصد الكبرى، ولهذا فإن النظم الاجتماعية والعلاقات الإنسانية والقواعد القانونية تقوم على المصالح الكلية التي يحددها القرآن، ولهذا فإن الضبط الاجتماعي بقواعده ووسائله

المختلفة في القرآن يحكم المجتمع ولا يحتكم إليه، وهذا النموذج يقدم إطاراً شاملاً ويحدد معالم منهج متميز للضبط الاجتماعي يظهر تميز الأحكام القرآنية ويبرز إعجازها في هذه التشريعات.

وقد ارتبط مفهوم الضبط الاجتماعي في القرآن بالإيمان ارتباطاً وثيقاً، فهو إطار فكري عقدي تنبثق عنه أشكال الفعل الإنساني، ولهذا ربط الله تعالى في القرآن في غير ما موضع الإيمان بعمل الصالحات، ولما كانت السنة مفسرة للقرآن ومبينة له فقد قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وقد جمع رسول الله ﷺ حقيقة الدين وربطها بالقواعد الخلقية السلوكية ووضعها بين طرفين أولهما يمثل القمة والمرجعية لما هو دونه ومنتهاها الطرف الآخر الذي يمثل أبسط نموذج لقواعد السلوك والضبط الاجتماعي والآداب العامة.

وسائل الضبط الاجتماعي في الفكر الغربي:

هنالك شبه اتفاق - في علم الاجتماع الغربي - على أن للضبط الاجتماعي قسمان رئيسيان من حيث الوسائل المستخدمة فيه، وهما:

١- الوسائل غير الرسمية: وتتمثل في:

• الطرق الشعبية، وهي الوسائل التي أقرها المجتمع ليصوغ أفرادها سلوكهم وفقاً لها.

• الآداب الاجتماعية، وهي تمتاز عن الطرق الشعبية بقوة إلزامية.

• العُرف، وهو الوجه التقني للعادات والتقاليد وآداب السلوك العامة.

٢- الوسائل الرسمية:

وتتمثل هذه الوسائل في مواد القانون، وتعمل من خلال المفهوم العام للضبط الاجتماعي في الفكر الغربي حيث إن المجتمع لا يمكن ضبطه إلا عبر الجزاءات التي

تفرض عبر الوسائل سواء على المستوى غير الرسمي من حيث تقبل الهيئة الاجتماعية لسلوك الفرد أو نبذه، ويتشكل المجتمع بناء على قوة هذه الجزاءات أما المستوى الرسمي فوسائله هي مواد القانون التي تقوم على تجريم بعض السلوك ووضع عقوبات متناسبة معه.

وسائل الضبط الاجتماعي في القرآن:

يعمل الضبط الاجتماعي في القرآن على تدعيم القيم من خلال التزكية النفسية حيث يتشكل الضمير الديني الذي يصبح وازعاً يضبط سلوك الفرد الذي تتطابق إرادته السلوكية مع القواعد الكلية للأحكام القرآنية ومقاصدها وأهدافها، ولهذا فإن الضبط الاجتماعي في القرآن يسعى إلى الوقاية من المفساد ولا يلجأ إلى العقوبات القانونية إطلاقاً إلا عند حدوث الخلل الظاهر، ولذلك فإن وسائل الضبط الاجتماعي في القرآن تكمن في الآتي:

الوسائل غير الرسمية:

● نُظُم العبادات والمعاملات، وترتبط العبادات والمعاملات بالإيمان، وهو مفهوم ذو صبغة ضبطية إلزامية لدى الفرد، حيث يقوم على الخضوع لأوامر الله وتعظيمها وإجلالها، وهذه العبادات هي عوامل ضبط للسلوك الداخلي والخارجي، وهى المحرك الفاعل فيه، وليس ذلك فحسب بل إن مفهوم العبادة مفهوم شامل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة في السلوك الإنساني إلا ويدرجها تحته مظلتها. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣).

● الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

هذه الوسيلة الضابطة من أهم خصائص المجتمعات المسلمة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ

اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة: ٧١﴾. وقد ربط الله تعالى - كما هو ملاحظ - بين ولاية المؤمنين لبعضهم وبين أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وقد عاب على غيرهم عدم قيامهم بهذا الدور الفاعل في ضبط المجتمع فقال
تَعَالَى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ
لِنَسْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة: ٧٨ - ٧٩).

الوسائل الرسمية:

حافظ القرآن بشدة على الكليات التي تصون كيان المجتمع وتحفظه وحرم الجرائم التي تهدد ذلك الكيان لسوء عاقبتها وشدة خطرها، ولكنه لم يكتف في الزجر عن اقتراف الجرم بالترهيب من غضب الله وسخطه وعذابه يوم القيامة، إذ أن الوازع الديني قد لا يكون كافياً في بعض النفوس، ولهذا شرع الله تعالى العقوبات التي تقوم على المحافظة على المصالح الكلية للمجتمع مراعيًا فيها حقوق الله وحقوق المجتمع وأفرادهم والحقوق المشتركة بينهما، ويتمثل في الآتي:

١ - المحافظة على عقيدة المجتمع المسلم التي تحفظ تماسكه وشرع عقوبة الردة:

إنّ الارتداد يُدخل الخلل في صفوف المجتمع المسلم ويفككه ويضعف قوته ويشيع الاستخفاف به، وفي ذلك شرٌّ عظيم، لأنّ أخطر شيء على حياة الأمم والمجتمعات وكيانها هو الفوضى في الاعتقاد والاضطراب الفكري وعدم الثقة بها يظلمها من نظام.

ومن الواضح لكل عاقل أنّ كفر المرتد بعد إسلامه أخطر على الأمة من الكفر الأصلي، لأنّ الشك في الدين والتفكك في الجماعة قد يكون من العوامل الأساسية في نصر الأعداء ولذا لم يترك الإسلام للمرتد حرية الرجوع، إذ أجبره على هذا الرجوع بالتهديد بالقتل، هذا مع تركه حرية الاعتقاد للكافر الأصلي، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ (البقرة: ٢٥٦). قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩) (١).

ولما كانت الردة عن الإسلام من أخطر المفاصد التي تشكك في الدين وتفكك الأمة وتعمل على تفتيت كيانه فقد كان الارتداد أكثر خطورة من الكفر الأصلي، ولهذا تشدد الإسلام في أمر الارتداد وجعله مُحِبَطًا للأعمال الصالحة وماحيًا للحسنات قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتٌ وَهُوَ كَاْفِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢١٧).

ولما كان الأمر كذلك فقد اتضح أَنَّ هنالك فرقًا كبيرًا بين المنافق والمرتد ويتمثل ذلك في أن المنافق يُظهر الإسلام ويخفي الكفر في ذلة بينما المرتد يتبجح بارتداده العلني الظاهر متحديًا المجتمع بأكمله ومستهترًا بثوابته، ولهذا فإن المرتد يُمهَل فإن تاب حُلِّي سبيله وإلا قُتِلَ حدًا.

٢- المحافظة على أفراد المجتمع وشرع عقوبة القتل:

الإنسان من أعظم مخلوقات الله تعالى، ولذلك كانت المحافظة على النفس البشرية من المقاصد التي عملت الشريعة الإسلامية على تثبيتها، ولأجل ذلك جعلت للإنسان حرمة عظيمة من أكبر الحرمات وجعلت قتله من كبائر الذنوب وأعظمها وأقبحها، وليس ذلك فحسب بل جعلت هذا القتل من الفظائع التي تستوجب غضب الله تعالى.

(١) هاتان الآيتان الكريمتان والآيات الأخرى التي في معناهما بيّن العلماء أنها في حق من تؤخذ منهم الجزية كاليهود والنصارى والمجوس، لا يُكْرَهُونَ، بل يُحَرِّمُونَ بين الإسلام وبين بذل الجزية عن يد وهم صاغرون. وقال آخرون من أهل العلم: إنها كانت في أول الأمر ثم نُسِخت بأمر الله سبحانه بالقتال والجهاد، فمن أبى الدخول في الإسلام وجب جهاده مع القدرة حتى يدخل في الإسلام أو يؤدي الجزية إن كان من أهلها.

وقد حافظ الله تعالى على نفوس أفراد المجتمع المسلم فشرع القصاص لئلا يستسهل الناس القتل فينعدم الأمن وتعم المجتمع الفوضى، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُذِّبَ عَلَيْكُمْ الْقصاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأْتِبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْدَتِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقصاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَبُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٨ - ١٧٩).

٣- المحافظة على مصلحة العقل وشرع عقوبة الخمر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ (المائدة: ٩٠ - ٩١).

والخمر هي أم الخبائث ومصدر كل الجرائم الاجتماعية وباعثة كل رذيلة وهي تثير ما عملت الشريعة على محاربته والقضاء عليه من العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع، ومعلوم أنّ الإنسان إذا فقد عقله أو غاب أو اختل لم يتميز عن الحيوان أصلاً. ولما كان الأمر كذلك فقد حذرت الشريعة من كل ما من شأنه أن يفسد العقل البشري الذي هو أعظم نعمة، يقول بنتام في كتابه "أصول الشرائع" مشيراً إلى إصابة الإسلام عند تحذيره من المسكرات: «النبذ في الأقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالأبله وفي الأقاليم الجنوبية يصير كالمجنون، وقد حرمت ديانة محمد جميع هذه المشروبات؛ وهذه من محاسنها».

وقال أحد الأطباء الألمان: «اقفلوا لي نصف الحانات أضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والملاجئ والسجون».

ومعلوم أنّ للخمر أضراراً كثيرة جداً، ومن هذه الأضرار الآتي:

- الخمر مذهب للعقل، ومعلوم أنّ العقل هو الذي يميز الإنسان فإذا ما أفقدت الخمر هذا الإنسان عقله كان حاله حال الحيوان.

● للخمير على الجهاز العصبي أثرٌ بالغ السوء، حيث تُلحق به الهبوط والضعف والاضمحلال وتسبب أمراضاً خطيرة كشلل الأطراف والهذيان والارتعاش وفقدان البصر.

● كثيراً ما يؤدي تسمم الجهاز العصبي الذي تسببه الخمر إلى الجنون، وقد ثبت بالإحصاءات الرسمية أنّ ٣٠ ٪ من المجانين الذين يعالجون في المستشفيات الخاصة بالأمراض العقلية كان جنونهم ناشئاً عن تعاطي المسكرات.

● إن أجهزة الجسم كالأوعية الدموية والكليتين والرئتين تكون في حالة السكر مضطرة للقيام بعملها مضاعفاً، ولذلك تقوم بنشاط غير طبيعي لمواجهة الظروف غير العادية، وذلك أمر خطير يجهد الجسم أيما إجهاد فتسهل حينئذ إصابته بالالتهابات العديدة.

● إن الخمر لا تتحول إلى دم كما تتحول سائر الأغذية النافعة بعد الهضم، وإنما تبقى هذه الخمر على حالها، فتزاحم الدم في مجاريه وعندئذ تسرع حركته وتخرج هذه الحركة عن وضعها الطبيعي، ومعلوم أن الخمر مادة كحول وزيادتها في الجسم لمدة طويلة يحدث التهاباً مزمناً في الأعصاب والكلى وتصلباً في الشرايين وتحجراً في الكبد وضعفاً في القلب.

● للخمير تأثير على المعدة، إذ ترشح العصارة الفعالة في الهضم حتى يغلظ نسيجها وتضعف حركتها وقد تحدث احتقاناً أو التهاباً.

● يكون موت السكران محققاً إذا بلغت نسبة الكحول في دمه ستة في الألف.

● جُعِلَ الإنسان مستخلفاً في المال يقضى به ضرورياته وحاجاته وفق ما أمره الله، ولكن مدمن الخمر يضيع ماله في الخمر دون أن يحصل على ضرورياته في الحياة وبذلك يخسر دنياه وأخراه، وذلك هو الخسران المبين الواضح.

● إنّ من شأن شارب الخمر المدمن لها الفشل الاجتماعي والتقصير في حقوق الزوجة والأولاد فتراهم مهملاً لشؤونهم في الرعاية والعناية من جهة تاركاً حاجتهم وضرورياتهم دون تلبية، وبذلك تضيع أسرته ضياعاً لا يخفى على أحد.

● يقود شرب الخمر إلى مفاسد كالزنا الذي لا يتورع منه السكران في الغالب كما هو معروف، وبذلك يخرب السكران نظام المجتمع ونظام الشريعة التي أراد الله للناس أن يسيروا على نهجها ووفقاً لطريقتها.

● الخمر تثير العداوة والبغضاء بين الناس وربما أدى السكر إلى القتل كما هو معروف، وما ذلك إلا لأن الخمر تثير الشهوة والغضب، فتنتلق هاتان الصفتان دون عقل يضبطهما ودون حاجز يقيد حريتهما، فتنشأ بين الناس النزعات التي يكون فيها السب والقذف أيضاً، فيؤدي ذلك إلى البغض والكراهية، وربما أدى هذا في بعض الأحيان إلى الضرب والقتل أيضاً، ولهذا قال تعالى في الخمر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾.

● الأمم والمجتمعات - في أصلها - مكوّنة من أفراد وأشخاص، فإذا اختل أمر الأفراد وانتشرت المسكرات اختل - باختلاله - أمر الأمة وأصبحت بالضعف والوهن والتفكك.

● من الأمور الواضحة أن الخمر تؤثر تأثيراً سالباً على القوى العاملة فتضعف نشاطها وتعطل طاقاتها وتقلل إنتاجها.

● الخمر تحل العقل من قيوده، فيكون ذلك مرتبطاً بإذاعة الأسرار وكشف الخفايا، فنجد السكران يذيع سره ولا يقوى على كتمه والاحتفاظ به في قلبه، فيفشي أخص أسرار وأسراره بل وأسرار دولته إلى الأعداء، وفي ذلك شر كبير ومصيبة عظيمة ليس بعدها من مصيبة.

ولهذا شرعت عقوبة الخمر للمحافظة على العقل من الاختلال أو الغياب أو الفساد، وحتى يرتدع شارب الخمر فإنه يعاقب في الشريعة الإسلامية بالجلد، ومقداره: أربعون جلدة، ويجوز أن يبلغ ثمانين جلدة، وذلك راجع لاجتهاد الإمام، يفعل الزيادة عند الحاجة إلى ذلك، إذا أدمن الناس الخمر، ولم يرتدعوا بالأربعين.

٤- المحافظة على تكاثر المجتمع وشرع عقوبة الفواحش وإشاعتها:

حافظت الشريعة الإسلامية على النسل وعملت من أجل استمراره وعدم تعطله لأنه يمثل الأجيال والمجتمعات التي تعمر الأرض، وقد حث الإسلام المسلمين على الزواج، وجعل له هدفاً أصيلاً وأهدافاً تبعية مكملية لذلك الهدف، أما الهدف الأصلي فيتمثل في المحافظة على النسل وحفظه من الانقطاع وما عده مما يقصده الإنسان من منافع الزواج يعتبر من الأهداف التبعية المكملية والمتمة للمقصد الأصلي وعلى هذا فإن فكرة تحديد النسل وتقييد تعدد الزوجات أمور تناقض قصد الشارع إن كانت في صورة مبدأ عام لحياة الأمة الإسلامية وأما في حالة الضرورة الخاصة فإن ذلك يقدر بقدره ويخضع لأحكامه.

ولاشك أنّ العقول السليمة والفطرة المستقيمة تقضي بأن تكون رابطة الزواج هي الطريق الوحيد لامتداد النسل والمحافظة عليه من الانقطاع. ويلزم من ذلك سد الطريق الذي يناقض مقتضى هذا الطريق أو يعرضه للخطر.

فرابطة الزواج هي السبيل الوحيد الذي يكفل للنسل البقاء والاستمرار في أسمى صور المحافظة؛ وعليه فإن طريق الزنا المقابل للزواج يعد محظوراً أمام جميع أفراد المجتمع من غير استثناء لأنه يناقض مقتضى نظام الزواج ويعرضه للفوضى والانهيار ويهدم كيان الأسر وبالتالي يعرض بقاء الجنس البشري لمخاطر عظيمة.

ورغم أنّ الجنس يؤدي إلى أصل عملت الشريعة على المحافظة عليه وهو النسل، إلا أنّ هذا الجنس إذا خرج عن منهاج الله تعالى كان وبالاً وخراباً على الأمم والمجتمعات ولأجل ذلك عملت الشريعة في المحافظة على هذا المنهاج بالآتي:

أ- شرعت عقوبة الزنا:

ولما كانت المحافظة على النسل وإثبات النسب في الشريعة الإسلامية أمراً منضبطاً وله قواعده وأركانه فقد أبطلت الشريعة كل ما عده، وجعلت الزواج دائماً غير مؤقت بوقت معين، إذ ليس المقصود في الشريعة هو قضاء الشهوة فحسب بل المقصود هو حصول النسل وبقاؤه، ودوام الزواج يضمن رعاية النسل وتربية الأطفال، ولما كان

الأمر كذلك فقد أوجب الإسلام الإعلان عن الزواج حتى يعلم كل فرد من أفراد المجتمع أن هذه المرأة صارت مقصورة على هذا الرجل. ولما كان الأمر كذلك فقد ثبت أنّ الزنى أمر قبيح ومحرم وذلك لأمر كثيرة منها:

• الزنا خروج عن منهج الله تعالى وضوابطه ومعايره التي حددها في حفظ النسل وتربية الأطفال وإثبات النسب.

• الزنا ينشأ عنه أطفال لا راعي لهم فينشؤون مشردين في أغلب الأحوال دون أن يرعاهم أو يربيهم أحد.

• الزنا يؤدي في كثير من الأحيان - إذا حملت المرأة - إلى إزهاق أرواح الأطفال حيث تلقى أمهاتهم خوفاً من العار دون أن تأبه لحياتهم أو موتهم.

• زيادة النسل أمر مقصود في الشريعة، والزنا يمنع تكاثر الأمة، وذلك لأنّ كثرة الزنا تزهّد الإنسان في الزواج وتنفر من أعبائه.

• الزنا يفكك الأسر القائمة إذ أنه اعتداء على أعراض الغير من ناحية وخيانة عظمى للزوج أو الزوجة من ناحية أخرى فهو لأجل ذلك أمر منافٍ للفطرة والعقل الصحيح.

• الزنا ينقل الأمراض وبه تتجدد الأمراض، وقد ظهر السيلان والزهري ثم كانت الطامة الكبرى في طاعون القرن العشرين وما بعده " الإيدز " وفيرس الإيدز كما هو معلوم يدخل إلى جسم الإنسان عبر الاتصال الجنسي وغيره، وسرعان ما يبحث عن خلايا لتستضيفه ثم تستعد هذه الفيروسات لمعركة شرسة مع الخلايا الثانية المسئول الأول في جهاز المناعة، فيفقد الجسم قدرته على التصدي للأمراض الميكروبية، فيظل حاله كذلك حتى يموت صاحبه متأثراً بذلك.

وقد انتشر الزنا عند الغربيين في إطار البحث عن الحرية الفردية والتحرر من قيود الدين، وقد تبلور ذلك في الفلسفة التي سادت في عصر النهضة وما بعده، ثم بلغت الحرية الجنسية ذروتها بمذهب الحداثة وما بعد الحداثة التي توسعت فيها مفاهيم

الحرية الجنسية والإباحية المطلقة والإمعان في الحصول على المتعة الجنسية بكافة الوسائل.

وقد أدت إشاعة هذه الفاحشة إلى ظهور مرض الأيدز الخطير، وهو فيروس يتبع كريات الدم البيضاء المدافعة عن جسم الإنسان فيدمرها الواحدة تلو الأخرى حتى يفقد الجسم أهم وسائل الدفاع ويصبح بعد ذلك عاجزاً كل العجز عن مقاومة الأمراض التي يتغلب عليها الجسم السليم في الظروف العادية، ويظل صاحبه كذلك حتى يقضي عليه بالموت بعد معاناة طويلة وآلام مبرحة، لفترات قد تطول وقد تقصر، بسبب انهيار جهاز المناعة في الجسم.

وقد انتشر هذا المرض بسرعة رهيبية في أوساط الشاذين جنسياً، وكان عدد المصابين بهذا المرض إلى بداية عام ١٩٨١ م لا يتجاوز العشرات، وأما اليوم فقد وصل العدد إلى ملايين الحالات، ولم يتمكن الأطباء حتى الآن من اكتشاف علاج يمكنه القضاء على فيروس الإيدز، كل ذلك على الرغم من أنه قد تم القضاء على كثير من الأمراض المعدية في هذا العصر نتيجة التقدم في الطب والعلاج، إلا أن الأمراض الجنسية تظل حتى الآن من أكثر الأمراض المعدية انتشاراً في العالم وصعوبةً في العلاج إضافة إلى ظهور أمراض أخرى مختلفة ومتنوعة بسبب انتشار الفاحشة وشيوعها وانتشار الشذوذ الجنسي في البلاد الإباحية.

ولا شك أن الأمراض الجنسية تشكل عقاباً إلهياً عاجلاً لمن تجرأ واعتدى على الفطرة الإنسانية السليمة وسلك غير سبيل الهدى بارتكاب الفواحش من زنى ولواط وسحاق وغيرها. وانتشار هذه الأمراض مع الإباحية الجنسية والعلاقات الفاجرة ما هو إلا تحقيق لنبوء سيد البشر وإعجاز نبوي لقوله ﷺ: «لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَصَّتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا». (رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني). (الْفَاحِشَةُ) أي الزنا. (الْأَوْجَاعُ) أي الأمراض. وهكذا نرى أن رسولنا الكريم ﷺ قد جنبنا هذه المفسد قبل دعوة المنظمات الصحية ومناشدتها اجتناب الزنا.

إن هذا الحديث يكشف لنا عن سنة من سنن الله في المجتمعات حين تحيد عن منهج الله وتتمرد على الفطرة السليمة، وهو يكشف لنا كذلك الوجه الآخر القبيح لهذه الحضارة المعاصرة التي كشفت كل مستور، وانتهكت كل فضيلة، ولم يعد عندها معنى للشرف والعفة، فكان هذا المرض في هذا العصر لينتبه الناس ويستيقظوا ولا ينخدعوا بزييف الحضارة وبريقها، وليكون وصمة عار على أولئك الذين عزفوا عن الطريق السوي، واتخذوا الفاحشة والشذوذ وسيلة لتصريف شهواتهم، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أما عقوبة الزنا فالجلد مائة جلدة، قَالَ تَعَالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهَادَةُ عَدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢). وهذه الآية حكم عام لكنه مقصور على البكر من الرجال والنساء أما الثيب فحكمه الرجم بالحجارة حتى الموت رجلاً كان، أو امرأة، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة^(١).

(١) لقبح هذه الجريمة جعل الله عقوبة من فعلها الرجم حتى الموت إن كان مُحْصَنًا، والجلد مائة جلدة إن لم يكن مُحْصَنًا. فلا يخلو حال الزاني من أحد أمرين:
١ - أن يكون مُحْصَنًا.

٢ - أو يكون غير مُحْصَن.

أولاً: الزاني المحصن: ويشترط للإحصان الموجب للحدِّ الشروط التالية:

أ- أن يحصل منه الوطء في القُبْل، وذلك بأن يتقدم للزاني والزانية وطء مباح في الفرج.

ب- أن يكون الوطء في نكاح صحيح.

ج- أن يكون الرجل والمرأة حال الوطء بالغين حُرَّين عاقلين.

فالمُحْصَن: هو من وطئ زوجته في قُبْلها، بنكاح صحيح، وكانا بالغين عاقلين حرين.

فهذه خمسة شروط لا بد منها لحصول الإحصان الموجب للحدِّ، وهي: البلوغ، والعقل، والحرية، والوطء في الفرج، وأن يكون الوطء بنكاح صحيح.

حده: إذا زنى المحصن فإن حده الرجم بالحجارة حتى الموت، رجلاً كان، أو امرأة.

ب- شرعت الشريعة الإسلامية عقوبة اللواط:

إذا كان الزنا أمراً قبيحاً فإنّ اللواط أكثر قبحاً وبشاعةً وذلك لأنه منافٍ للفطرة السوية، وهو شذوذ وانحراف عن الطبيعة، وإذا كان قوم لوط الذين دمر الله مدينتهم وأمطر عليهم الحجارة قد انصرفوا عن فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليهم فمالوا إلى الذكور دون الإناث، فإن الحضارة الغربية السائدة الآن قد تولدت عنها الممارسات غير الشرعية بالصورة التي يندى لها جبين الإنسانية ففاقوا فيها قوم لوط أنفسهم الذين لم يكن لديهم سحر الثورة الجنسية المعاصرة بآلياتها التكنولوجية والإعلامية ووسائلها السمعية والبصرية الجذابة المعضدة بوسيلة العلم والتدعيم النفسي الذي تتلقاه من العلوم الاجتماعية العلمانية.

واللواط من أخطر الأمور على الإنسانية ومن مخاطره الآتي:

- ١- اللواط جريمة بشعة للغاية تخالف الفطرة السليمة والخلق القويم.
- ٢- اللواط أمر يعطل النسل الذي عملت الشريعة من أجل المحافظة عليه، وهذا التعطيل يكون في كلا الطرفين فاعلاً ومفعولاً كما هو معلوم.
- ٣- في اللواط من الأمراض ما لا يعلم خطورته إلا الله، ومن أخطر الأمراض المعروفة الإيدز الذي هو مرض ناتج عن الممارسة الجنسية المنحرفة التي يتعاطاها الشواذ جنسياً.

ثانياً: الزاني غير المحصّن: وهو من لم تتوافر فيه الشروط السابقة في الزاني المحصّن.

حده: إذا زنى غير المحصّن فإن حده الجلد مائة جلدة، وتغريب عام، إلا أنه يشترط في تغريب المرأة وجود محرم معها. فعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدٌ مِائَةٌ وَنَفْيٌ سَنَةٍ، وَالتَّيِّبُ بِالتَّيِّبِ جَلْدٌ مِائَةٌ وَالرَّجْمُ». (رواه مسلم).

وتغريب الزاني: نفيه وإبعاده عن وطنه.

أما عقوبة اللواط فالقتل، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ فَأَقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

ج- شرعت الشريعة الإسلامية عقوبة القذف:

كما حافظ الإسلام على المجتمع من الفواحش فقد حافظ عليه من الإعلام الجنسي الهدام، فجعل الله تعالى لرمي الناس بالزنا باطلاً حَداً معيناً في القرآن سواء كان كاذباً أو كان صادقاً ولم يستطيع إثبات اتهامه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٤). فإذا شهد أقل من أربعة لم تثبت البيّنة، ويُحدّون حدَّ القذف ثمانين جلدة.

فإذا تجرأ مرتكب هذه الجريمة ولم يراع لمجتمع المسلمين حرمة فارتكب جريمته أمام أعين أفرادهِ حتى توفر منهم أربعة شهود ففي هذه الحالة يعاقب هذا الجاني بما حاول من نشر الفساد في المجتمع وإلا فحسابه على ربه إن لم يره أحد.

وإذا كانت الشريعة الإسلامية الغراء قد عملت على المحافظة على المجتمع من مفاسد الزنا والرذائل الجنسية فقد عملت أيضاً على المحافظة على هذا المجتمع من عار الجنس المنفلت الذي تأباه الفطرة السليمة، ولأجل ذلك منعت رمي الناس بجريمة الزنا، ولتحقيق معنى الستر اشترطت الشريعة أربعة في الشهود.

ولما كان غرض الإسلام من تحريم القذف هو الستر وعدم إشاعة الفاحشة في مجتمع المسلمين فقد ذم الله تعالى الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في مجتمع الذين آمنوا فقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩).

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد عملت على الستر فإن الحضارة السائدة الآن كما هو معلوم تسعى لإشاعة الفاحشة ونشر الزنا والرذيلة، وقد كرس وسائل الإعلام الغربية جهوداً جبارة لصناعة الجنس في الرواية والأدب والإعلانات والأفلام.

وليس ذلك فحسب بل عمدت وسائل الإعلام الغربية إلى تلطيف المفردات الجنسية المنفرة فسمت الزنا "الجنس مع شركاء متعددين" وسمت "اللواط" بـ "الجنسية المثلية" وقد جاء ذلك التعبير مرتبطاً عندهم بتغيير في الاتجاهات النفسية والاجتماعية نحو الجنس.

ولم يقف الإعلام الغربي عند حد إشاعة الفاحشة وتلميع صورتها الشوهاء بل إنه حاول تزييف الحقائق المتعلقة بأخطار هذه الممارسات، إذ نجده أتى في كارثة الأيدز بنظرية لا أساس لها من الصحة وهي أنّ الأيدز بضاعة أفريقية قد سببها القرد الأخضر للإنسان الأفريقي ثم انتقل إلى أمريكا.

والحق أنّ الإيدز لم يأت من أفريقيا ولم يسببه القرد الأخضر ولم يأت كذلك من مجرة فضائية مقتحمًا عليهم الكرة الأرضية ولم يصنع كذلك في أضابير المعامل الحربية الأمريكية وإنما كان مرضًا جنسيًا ناتجًا عن الممارسة الجنسية المنحرفة التي يتعاطاها الأمريكيون الشواذ جنسيًا.

وقد اقتنعت المؤسسات الأكاديمية الأمريكية تمامًا بالأسباب الحقيقية لانتشار الإيدز إلا أنّ باحثيها قد لاذوا بالصمت وأخفوا نتائج أبحاثهم تفاديًا لسطوة الإعلام وخوفًا من جمعيات الشواذ جنسيًا وجمعيات الضغط كما حدث للباحث "سونانيد" حين أعلن أنّ نمط الحياة عند الشواذ هو وراء أزمة الإيدز.

يقول باحث أمريكي: «لقد أمعنت النظر والتحليل في المعلومات الطبية فوجدت نظريات الإيدز مليئة بالثقوب الواضحة والتناقضات المشوشة والمفارقات الواضحة، أنا لا أقول أكثر مما قال به الأدب الطبي عن الإيدز ولكن الفارق الوحيد أنني أستطيع أن أقول ذلك جهرًا وعلانية على صعيد الحياة العامة بينما لا يستطيع معظم الباحثين والعاملين في مجال الأيدز ذلك».

والحق أنه ما من أمة أو مجتمع تنشر الفاحشة وتشيعها إلا وقع عليها الوبال والكوارث والأزمات والأوجاع التي لم يسبق لها مثيل.

٥- المحافظة على الأموال وعقوبة سرقتها:

لما كان للمال في الشريعة الإسلامية أهمية كبيرة فقد عملت الشريعة على حفظه فشرعت عقوبة السرقة وهي قطع يد السارق من الكف، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٨).

وقد جاءت الشريعة بهذه العقوبة الشديدة لأن السارق يتعدى على حقوق الغير بصورة فيها استهانة بالآخرين وبحقوقهم كما أن فيها من الترويع ما فيها إذ ينتهك الحرز ويكسر ما أغلق ويروع أفراد المجتمع، ولهذا أوجب الله تعالى فيه القطع دون المختلس والمتنهب، فالسارق لا يمكن الاحتراز منه فإنه ينقب الدور وينتهك الحرز ويكسر القفل ولا يمكن لصاحب المتاع الاحتراز بأكثر من ذلك فلو لم يشرع قطعه لسرق الناس بعضهم بعضاً وعظم الضرر واشتدت المحنة بالسارق بخلاف المتنهب والمغتصب.

فإن المتنهب هو الذي يأخذ المال جهره بمرأى من الناس فيمكنهم أن يأخذوا على يديه ويخلصوا حق المظلوم أو يشهدوا له عند الحاكم وأما المختلس فإنه إنما يأخذ المال على حين غفلة من مالكة فلا يخلو من نوع تفريط يمكن به المختلس من اختلاسه وإلا فمع التحفظ والתיقظ لا يمكنه الاختلاس، فليس كالسارق بل هو بالخائن أشبه.

٦- المحافظة على أمن المجتمع وعقوبة الحرابة:

الحرابة من الأمور التي تقطع الطريق وتعطل حياة المجتمع في انتقال أفرادها من مكان إلى مكان، ومن الممكن أن تعوق هذه الحرابة مصالح الناس الكبرى ولأجل ذلك كانت من أكبر الكبائر واستحققت عقاباً شديداً، ومن مساوي هذه الجريمة البشعة الآتي:

- أخذ مال الغير دون وجه حق.
- ترويع الناس وتخويفهم.

• إلحاق الأذى بالآخرين وقتلهم أحياناً.

ولما كانت الحراة من الجرائم التي تهدد أمن الناس وتعطل منافعهم التي تتوقف على الأسفار والضرب في الأرض للابتغاء من فضل الله فقد شرع الله تعالى للحراة عقوبة شديدة، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣).

وبهذه الآية يتبين أن للحراة عقوبات مختلفة هي:

- القتل والصلب، وفي هذه الحالة يكون المحارب قاتلاً وآخذاً للمال.
- القتل بدون صلب، وفي هذه الحالة يكون المحارب قاتلاً دون أخذ المال.
- قطع اليد والرجل من خلاف وفي هذه الحالة يكون المحارب آخذ للمال بدون قتل.
- النفي من الأرض، وفي هذه الحالة يكون المحارب يخيف الطريق دون قتل أو أخذ مال.

النتائج المترتبة على الضبط الاجتماعي في كلا النموذجين القرآني والغربي:

لما كان مفهوم الضبط الاجتماعي وطبيعته وخصائصه تختلف اختلافاً جوهرياً نتيجة لاختلاف الأسس والمنطلقات التي تبنى عليها الفلسفة العامة، فقد اختلفت النتائج التي تترتب على عملية الضبط الاجتماعي في كل من النظامين القرآني والغربي، ولأجل ذلك كانت النتائج التي تترتب على الضبط الاجتماعي الغربي كالآتي:

- فقدت وسائل الضبط الغايات العليا التي يجب أن تهدف إليها.
- فقدت وسائل الضبط عنصر القداسة والإلزام عند الفرد الموجهة إليه.
- سادت روح النسبية وافتقدت المجتمعات إلى القواعد المعيارية الثابتة المتعالية.

- ازدادت حدة الخلخلة في المجتمعات وظهر الفساد وتفشيت الرذائل والانحرافات حتى سعت المجتمعات إلى تقنينها وإجازتها.
- ساد الشعور بعدم الثبات في قواعد التجريم وأهملت حالة التطابق بين السلوكيات والمعايير فتأكلت المجتمعات.
- أما في الإسلام فإن الأمر مختلف اختلافًا واضحًا ولهذا تميزت نتائج الضبط الاجتماعي القرآني بالآتي:
- إن حالة المطابقة بين السلوك والقواعد الخلقية المعيارية - التي يرجى الثواب عليها - إنما هي حالة طبيعية عند الفرد والمجتمع حيث إن المرتكز هو الإيمان الذي تغدو في إطاره حالات الانحراف شاذة ونادرة وبعيدة عن النمط العام.
- إن سيادة الأمن والانضباط والتواءم الاجتماعي هي مكوّن أساس للمجتمعات المسلمة التي استجابت كليًا لعملية التزكية بما تحمل من أسس وقواعد، وهذه العملية إنما تركز على الروح الكلية للإسلام ولا تتأتى بالعقوبات والقوانين فحسب.
- إن أسس ومكونات الضبط في القرآن تؤدي إلى تهيئة الظروف النفسية والاجتماعية للأفراد والمجتمع حتى تطابق بين السلوك والمعايير، وهي كما تسعى لهذه التهيئة فإنها تسعى من جانب آخر إلى تخفيف منابع الشر والانحراف في النفس والمجتمع.
- أنشأ القرآن من النظم الاجتماعية ما هو كفيّل بهذا الضبط المنشود، وذلك عن طريق آلية مستمرة لمتابعة التقيد بالمعايير، مثل آلية الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فضلاً عن المراقبة الداخلية للفرد.
- إن النظام القرآني يقوم على التحصين والوقاية ودرء المفسد، وليس هو نظامًا علاجيًا عقابيًا يهتم بنتائج الأعمال ويغفل أسبابها، إذ أنه لا يلجأ إلى الحدود والعقوبات إلا في آخر المطاف وعند ظهور المفسدة المشهود عليها، ولهذا فإن هذا البناء لا يقوم على القوانين، بل إن أساسه المتين هو وجدان الفرد لا العقوبات القانونية.

• يتميز الضبط الاجتماعي في الإسلام بالثبات والمعارية لا النسبية، كما يتميز بأنه إلهي المصدر، الأمر الذي يمنحه القداسة والاحترام عند أفراد المجتمع.

ولما كان الأمر كذلك فقد أحس الغربيون أنفسهم بإعجاز الضبط الاجتماعي الإسلامي في مستويات تركية النفس البشرية وتهذيبها كما أحسوا بعجز نظامهم في الضبط الاجتماعي وفشله في هذه الجوانب إزاء النظام الإسلامي وإن لم يعترفوا بذلك صراحة، ويبدو ذلك واضحاً في أنهم يجلبون شيوفاً مسلمين إلى عتاة السجناء المجرمين عندهم ليهذبوا أخلاقهم ويحسنوا طباعهم ويضبطوا سلوكهم ليعودوا مواطنين صالحين يأمن المجتمع شر جرائمهم، وهو أمر معتاد في السجون الأمريكية كما هو معروف.

ولا شك أن تميز نظام الضبط الاجتماعي في القرآن يكشف عن إعجازه في هذا الوجه المتفرد الذي لا تستطيع التشريعات الإنسانية أن تأتي بمثله أو تفضي إلى مثل نتائجه، ومن أحسن من الله حكماً وضبطاً وتنظيماً للمجتمعات.

إعجاز التشريع الإسلامي في مُحاربة الزنا والتحرش الجنسي

الإسلام دين كل زمان ومكان لأنه من الله العليم الخبير الذي يعرف النفس البشرية حق المعرفة لأنه خالقها وبالتالي يعرف ما يصلحها، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (المالك: ١٤). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ (النجم: ٣٢). فالقانون الرباني ينظر للمشكلة بنظرة شاملة، لا تتنافى مع طبيعة واحتياجات النفس البشرية، فالإسلام تعامل مع هذه المشكلة بالترهيب من العقوبة المشددة، وبالوقاية من خلال التربية الإسلامية الصحيحة التي تقنن الشهوة ولا تكبتها، فتشجع علي الزواج وتمنع العلاقات الجنسية غير المشروعة وما يؤدي إليها.

أولاً: العقوبات الرادعة:

لقد فرض الإسلام العقوبات المشددة لمنع الزنا والتحرشات الجنسية، ولمنع خوض الألسنة في أعراض المحصنات ولردع الذين يجنون إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، كل ذلك مع التخويف بعذاب الآخرة.

وقد جعل الله ﷻ حد الحراة لمعاقبة كل من سولت له نفسه سفك الدماء وسلب الأموال وهتك الأعراض وإهلاك الحرث والنسل، والتحرش بالنساء يتضمن إفساداً في الأرض، بحسابه متضمناً قطع الطريق على المتحرش بها، أو إلجائها إلى الطريق الضيقة بغية النيل منها أو سماعها ما تكره، أو إجبارها على الرضوخ له بطريقة أو أخرى، وقد يتضمن إخافتها أو إرعابها لتحقيق مقصوده، وذلك يكون جريمة حراة متكاملة الأركان.

ولذا فإنه يرد في حق المتحرشين بالنساء العقوباتان الدنيوية والأخروية الواردتان في قول الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا

مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾. وذلك لقطع دابر هذه الجريمة من المجتمع.

ثانيًا: الوقاية من خلال تربية النفوس على العفة:

تشيع الشريعة الإسلامية نور العفة بين الناس لكي تحول بينهم وبين الوقوع في الشهوات والعقوبات، فدعت إلى تخفيف نار الشهوة في النفوس بنهيها عن إتباع خطوات الشيطان التي تأمر بالفاحشة، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٢١).

وأمرت الشريعة بغض البصر لأهميته في كبح جماح الشهوة وحفظ الفروج للرجال والنساء، وحثت على ستر المرأة لزيبتها حتى لا يفتن بها الرجال، وفي مقابل كف النفس عن إشباع الغريزة الجنسية بالحرام، شجع المولى تبارك وتعالى على تيسير الزواج الحلال حتى لا يحدث كبت نفسي قد يؤدي إلى انفجار غير محسوب فقال تَعَالَى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٢). وأمر الإسلام بالعفاف في غير وجود الزواج فقال تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النور: ٣٣).

وجاء ﷺ بالدواء المعين على الاستعفاف فقال ﷺ عن علاج الشهوة: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» (رواه البخاري ومسلم).

ولأن الاختلاط بين الرجال والنساء يؤجج نار الشهوة ويؤدي إلى ما لا تحمد عقباه، فقد حرص شرعنا الحنيف على منع الاختلاط بين الجنسين، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٣)، فقد دلت هذه الآية على أن الأصل احتجاب النساء عن الرجال، وعدم الاختلاط لاسيما في دور العلم، حرصًا على طهارة قلوب الرجال والنساء.

وقد منع رسول الله ﷺ الرجال الأجانب من الدخول على النساء، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالْدُخُولَ عَلَى النِّسَاءِ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمُوءَ؟»، قَالَ: «الْحَمُوءُ الْمَوْتُ» (رواه البخاري ومسلم).

فحذّر ﷺ من الدخول على النساء باسم فعل الأمر (إِيَّاكَ)، والمعنى احفظوا أنفسكم واتقوا الدخول على النساء، فهو أمرٌ بَاتِّقَاءِ الدخول على النساء والأمر يفيد الوجوب، ونهى عن الدخول عليهن؛ لأن الأمر بالشئ نهى عن ضده، والنهي يفيد التحريم. وسمى ﷺ دخول قريب الرجل على امرأته وهو غير مُحَرَّم لها باسم الموت، ولا شك أن تلك العبارة هي أبلغ عبارات التحذير.

وحرم الإسلام خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية فقال رضي الله عنه: «لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ» (رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني).

وقد حرم الإسلام اللمس المحرم، ومنه المصافحة باليد، لقوله رضي الله عنه: «لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ رَجُلٍ بِمَخِيطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ». (رواه الطبراني، وصححه الألباني، والمخيط: الإبرة).

دلائل إعجازية في غض البصر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴿النور: ٣١-٣٢﴾. وقد أتبع الله حفظ الفرج بعد غض البصر إذ أن هذا وسيلة ذاك والبصر يريد الزنا لكل من الرجل والمرأة فالأمر سواء.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: «يَا عَلِيُّ لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ» (رواه أبو داود، وحسنه الألباني). وَعَنْ جَرِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الْفَجَاءَةِ فَقَالَ: «اصْرِفْ بَصْرَكَ» (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

وقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ». (رواه مسلم).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الْإِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرَّجُلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَتَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ». (رواه مسلم).

وفي رواية: «الْعَيْنُ تَزْنِي، وَالْقَلْبُ يَزْنِي، فَرِزْنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَرِزْنَا الْقَلْبِ التَّمَتَّى، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ مَا هُنَالِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وصححه الأرنبوط). وفي رواية: «وَرِزْنَا الْفَمِ الْقَبْلُ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ أَوْ يُكَذِّبُهُ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وقال الأرنبوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم»).

إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ زِنَاهُ حَقِيقِيًّا بِإِدْخَالِ الْفَرْجِ فِي الْفَرْجِ الْحَرَامِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ زِنَاهُ مَجَازًا بِمُقَدِّمَاتِ الزَّنا مِنَ النَّظَرِ الْحَرَامِ أَوْ الْإِسْتِمَاعِ إِلَى الزَّنى وَمَا يَتَعَلَّقُ بِتَحْصِيلِهِ أَوْ بِالْمَسِّ بِالْيَدِ بَأَنْ يَمَسَّ أَجْنَبِيَّةً بِيَدِهِ أَوْ يَقْبِلَهَا أَوْ بِالْمَسِّ بِالرَّجْلِ إِلَى مَوْضِعِ الزَّنا، أَوْ اللَّمَسِ أَوْ الْحَدِيثِ الْحَرَامِ مَعَ أَجْنَبِيَّةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ أَوْ بِالْفِكْرِ بِالْقَلْبِ فَرِزْنَا الْقَلْبَ: تَمَتُّيهِ وَاشْتِهَائُهُ وَقُوعَ الزَّنا الْحَقِيقِيِّ. فَكُلُّ هَذِهِ أَنْوَاعٍ مِنَ الزَّنى الْمَجَازِيِّ.

وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ بِاسْمِ الزَّنا لِأَنَّهَا مُقَدِّمَاتُ لَهُ، وَمُؤَدِّنَةٌ بِقُوعِهِ، وَنُسِبَ التَّصَدِيقُ وَالتَّكْذِيبُ إِلَى الْفَرْجِ لِأَنَّهُ مَنْشُؤُهُ وَمَكَانُهُ، أَيْ: يُصَدِّقُهُ بِالْإِثْنَانِ بِمَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْهُ، وَيُكَذِّبُهُ بِالْكَفِّ عَنْهُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: إِنْ فَعَلَ بِالْفَرْجِ مَا هُوَ الْمُقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدْ صَارَ الْفَرْجُ مُصَدِّقًا لِتِلْكَ الْأَعْضَاءِ، وَإِنْ تَرَكَ مَا هُوَ الْمُقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدْ صَارَ الْفَرْجُ مُكَذِّبًا.

وقد أشارت الأبحاث إلى أن المؤثرات الخارجية وأهمها البصر واللمس والشم والسمع على الترتيب هي التي تتحكم في إنطلاق الإثارة الجنسية وأن التغيرات الفسيولوجية وإفراز الهرمونات الجنسية التي تحفز السلوك الجنسي تأتي تبعاً لذلك.

الآثار السلبية لإطلاق النظر إلى المناظر المثيرة جنسياً:

- تزايد إفراز الهرمونات الجنسية والرغبة في إكمال الفعل الجنسي مما يؤدي إلى استثارة الجهاز العصبي بشدة ينتج عنها أضرار بدنية إذا لم يتم تفريغ هذه الطاقة (زيادة ضربات القلب - الإجهاد القلبي لزيادة إفراز الكاتيكول أمين).
- فقدان السيطرة على النفس نتيجة الانفعالات الشديدة والنشاط الزائد لمراكز المخ المتحكممة في الاستثارة الجنسية مما يجعل السلوك الإنساني خارج دائرة التحكم.
- الوقوع في الزنا وحوادث الاغتصاب.
- الانخراط في العادة السرية وهي إهدار للطاقة الحيوية للجسم وهي التي يحتاجها الجسم بشدة في عمليات النمو البدني والمهاري خاصة أثناء فترة البلوغ. وقد ثبت علمياً أن الانخراط الزائد في هذا السلوك يمكن أن يؤدي إلى أمراض عقلية.

دلائل الإعجاز في الكتاب والسنة:

إن الأمر بغض البصر عن المحارم يحنب الإنسان الإثارة الجنسية وبالتالي التغيرات الهرمونية والعصبية والبدنية التي تتوالى كرد فعل طبيعي لهذه الإثارة. كما أن غرض البصر هو وسيلة حفظ الفرج إذ أن النظر يؤدي إلى الإثارة التي تؤدي إلى الرغبة الشديدة في إكمال الفعل الجنسي.

وهذه دراسة جديدة تؤكد صدق ما جاء في كتاب الله قبل أربعة عشر قرناً، حيث تؤكد دراسة هولندية جديدة أجراها أحد الباحثين على طلاب وطالبات في الجامعة أن مجرد حضور النساء الفاتنات والحديث معهن يسبب التشويش للرجال ويخفض أداءهم العقلي بشكل كبير.

ويقول العلماء إنه كلما كانت زينة المرأة وفتنتها أكبر كلما كان التأثير أكبر، ويفسر العلماء هذه الظاهرة بأن خلايا الدماغ التي تقوم بمعالجة المعلومات واتخاذ القرار تتأثر

بحضور المرأة والنظر إليها والحديث معها. وركزت هذه الدراسة على موضوع الجاذبية والفتنة والتبرج. فالنظر إلى المرأة المتبرجة يُفقد الرجل صوابه وبالتالي لا يتمكن من اتخاذ قرار صائب، على الأقل خلال وبعد النظر بفترة قصيرة حتى يزول التأثير.

إن الدراسات أظهرت أن تأثير المرأة المتبرجة أكبر بكثير من المرأة العادية، ومن هنا ربما ندرك لماذا حرم الإسلام تبرج المرأة، بل إن النبي ﷺ قد حذر المرأة من التبرج وأخبر بأنها لا تشم رائحة الجنة، إلا أن تتوب إلى الله تعالى.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا» (رواه مسلم).

قال النووي رحمته الله: «هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ مُعْجَزَاتِ النُّبُوَّةِ، فَقَدْ وَقَعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ، فَأَمَّا أَصْحَابُ السِّيَاطِ فَهُمْ غُلَمَانُ وَالِى الشَّرْطَةِ.

أَمَّا (الْكَاسِيَاتُ) فَفِيهِ أَوْجُهُ أَحَدُهَا: مَعْنَاهُ: كَاسِيَاتٌ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ، عَارِيَاتٌ مِنْ شُكْرِهَا، وَالثَّانِي: كَاسِيَاتٌ مِنَ الثِّيَابِ، عَارِيَاتٌ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ وَالْإِهْتِمَامِ لِأَخْرَجَتِهِنَّ، وَالْإِعْتِنَاءُ بِالطَّاعَاتِ. وَالثَّالِثُ: تَكْشِفُ شَيْئًا مِنْ بَدَنِهَا إِظْهَارًا لْجَمَاهَا، فَهِنَّ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ. وَالرَّابِعُ: يَلْبَسْنَ ثِيَابًا رَفَاقًا تَصِفُ مَا تَحْتَهَا، كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ فِي الْمَعْنَى.

وَأَمَّا (مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ): فَقِيلَ: زَانِغَاتٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا يَلْزَمُهُنَّ مِنْ حِفْظِ الْفُرُوجِ وَغَيْرِهَا، وَمُمِيلَاتٌ يُعَلِّمْنَ غَيْرَهُنَّ مِثْلَ فِعْلُهُنَّ، وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ مُتَبَخِّرَاتٌ فِي مَشِيَّتِهِنَّ، مُمِيلَاتٌ أَكْتَافَهُنَّ، وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ يَتَمَشَّطْنَ الْمِشْطَةَ الْمِيلَاءَ، وَهِيَ مِشْطَةُ الْبَغَايَا مَعْرُوفَةٌ هُنَّ، مُمِيلَاتٌ يُمَشَّطْنَ غَيْرَهُنَّ تِلْكَ الْمِشْطَةَ، وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ إِلَى الرِّجَالِ مُمِيلَاتٌ لَهُمْ بِمَا يُبْدِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَغَيْرِهَا.

وَأَمَّا (رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ) فَمَعْنَاهُ: يُعْظَمْنَ رُءُوسُهُنَّ بِالْخُمْرِ وَالْعَمَائِمِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُلَفُّ عَلَى الرَّأْسِ، حَتَّى تُشَبِّهَ أَسْنِمَةَ الْإِبِلِ الْبُخْتِ، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ فِي

تفسيره، قَالَ الْمَازِرِيُّ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ يَطْمَحْنَ إِلَى الرَّجَالِ وَلَا يَغْضُضْنَ عَنْهُمْ، وَلَا يُنْكِسْنَ رُءُوسَهُنَّ.

وَاخْتَارَ الْقَاضِي أَنَّ الْمَائِلَاتِ تُمَشِّطُنَ الْمِشْطَةَ الْمِيلَاءُ، قَالَ: وَهِيَ ضَفَرُ الْغَدَائِرِ وَشَدَّهَا إِلَى فَوْقَ، وَجَمَعَهَا فِي وَسْطِ الرَّأْسِ فَتَصِيرُ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ، قَالَ: وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّشْبِيهِ بِأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ إِنَّمَا هُوَ لَا رَتْفَاعَ الْغَدَائِرِ فَوْقَ رُءُوسَهُنَّ، وَجَمَعَ عَقَائِصَهَا هُنَاكَ، وَتَكَثَّرَهَا بِمَا يُضَفِّرُهُ حَتَّى تَمِيلَ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ جَوَانِبِ الرَّأْسِ، كَمَا يَمِيلُ السَّنَامُ. قَوْلُهُ وَالْمِيلَاءُ: (لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ) يُتَأَوَّلُ تَأْوِيلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مُحْمُولٌ عَلَى مَنْ اسْتَحَلَّتْ حَرَامًا مِنْ ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهَا بِتَحْرِيمِهِ، فَتَكُونُ كَافِرَةً مُخَلَّدَةً فِي النَّارِ، لَا تَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَبَدًا.

وَالثَّانِي: يُحْمَلُ عَلَى أَنَّهَا لَا تَدْخُلُهَا أَوَّلَ الْأَمْرِ مَعَ الْفَائِزِينَ^(١).

من بديع الإعجاز التشريعي في الإسلام:

وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛

تحرص الشريعة الإسلامية على حمل الناس على طاعة أوامرهم ونواهيها طاعة اختيارية، تنبعث من أعماق النفس، وتعتمد في تحقيق هذه الطاعة على تنبيه وإيقاظ الشعور الإيماني في النفوس، وتذكير الناس باليوم الآخر وما فيه من الجزاء والحساب مع بيان ما في هذه الأوامر والنواهي من خير ومصلحة للناس في الدنيا والآخرة.

لكن هذا لا يكفي لحمل الناس على هذه الطاعة، وذلك لأن الناس ليسوا متساوين في يقظة الضمير الديني والإنساني، وتحقق الإيمان واستحضار اليوم الآخر وخشيته، وغلبة نوازع الشر والهوى وحب المنافع ولو كان ذلك على حساب الآخرين. وانطلاقاً من هذا الاعتبار فإن العقوبات التي توقعها الدولة على الذنوب والجرائم هي السبيل الملزم لتنفيذ أوامر الله ونواهيها.

(١) شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٩٠ - ١٩١).

فللعقوبة في الإسلام أغراض منها:

١- تحقيق العدالة: فحياة الإنسان، وممتلكاته، وعرضه من الأمور الواجبة الاحترام وبالتالي فليس من العدل في شيء ترك الإنسان الذي يتعرض لهذه الأمور دون أن يطاله شيء.

٢- تحقيق الردع: والردع هنا على نحوين:

- الردع العام: بإنذار الجماعة بشرها إذا ما ارتكب أحد أفرادها فعلاً يعد جريمة، أو بمثل العقوبة التي تصدر ضد الجاني إذا ارتكب فعلاً مجرماً وتثبت مسؤوليته، فوظيفة العقوبة هنا تهديدية.

- الردع الخاص: أما وظيفة الردع الخاص فيما يتركه ألم العقوبة من أثر نفسي في المحكوم عليه يحول بينه وبين العودة إلى الإجرام مرة ثانية.

٣- إصلاح الجاني: فالعقوبة إنما قررت لإصلاح الجاني لا للانتقام من الجاني والتشفي منه، فالمجرم إذا شعر بالألم وأحس به فإنه سيشعر حتماً بمقدار ما تسبب به للآخرين من الألم مما يولد حالة صحوة الضمير في نفسه ذلك الذي يدفعه إلى تأنيبها مما يؤدي بالنتيجة إلى الإقلاع عن الأعمال الإجرامية.

ولنأخذ إشهاد طائفة من المؤمنين لجلد الزانية والزاني كمثال على ذلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢). فلماذا اشترط الآية الكريمة لكمال تطبيق الحد أن يشهد عليه عدد من المؤمنين؟ ولماذا لم تقل: "طائفة من الناس"؟

الجواب: الغاية من شهود المؤمنين لتنفيذ الحد هي:

١- يشهدون للحاكم أمام الله تعالى ثم أمام الناس أنه يحكم بما أنزل الله تعالى.

٢- يراقبون الجالد فلا يزيد في الضرب عن العدد المحدد (مائة جلدة) ولا ينقص منه، ولا يزيد من شدة الضرب عن الحد المعقول، ولا يتهاون في الجلد.

- ٣- فيه عذاب نفسى للمجلود أشد من الأذى البدني حيث يرى جَلْدَه أعيانُ البلد وفضلاؤهم، وهذا لا يتحقق إن تم جلد الفسقة أمام بعضهم بعضاً، وبهذا يجزم أن لا يعود لمثله مرة أخرى.
- ٤- حين يعود الشهود إلى بيوتهم ويخبرون أهاليهم بما رأوا يتحقق الهدف الرئيس للعقوبة في الإسلام وهو الردع.
- ٥- قد تصدر أصوات أو حركات أو انكشاف للعورات، والشهود المؤمنون يحفظون السر.
- ٦- أن المؤمنين الذين يشهدون تنفيذ الحد يستغفرون للمجلود ويسألون الله سبحانه وتعالى أن يرزقه الصبر وأن يخفف عنه.

من إعجاز القرآن والسنة في الطب الوقائي والكائنات الدقيقة

وضع الإسلام منهجاً فريداً متكاملًا لحفظ الصحة البشرية، سبق به كل المعارف الإنسانية، يتكون من إرشادات لحفظ: صحة الجسم، وصحة العقل، وصحة السلوك الخلقي، والصحة النفسية.

ويُعَدُّ الالتزام بالطهارة وتحمي النظافة، من أول ما أمر به الإسلام من تعاليم الخصال الحميدة، ومما يدلُّ على ذلك خطاب الله تعالى لرسوله ﷺ، بقوله تَعَالَى: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدر: ٤). إذ كانت تلك الآية، من أوائل ما نزل به الروح الأمين من تعليمات الشارع الحكيم، التي أظهرت ما للطهارة من مكانة رفيعة، جعلتها من أهمِّ معالم هذا الدين الجديد.

وما كان في إمكاننا قبل اختراع عدسات المجهر، أن ندرك الكثير من أسرار الحقائق الغائبة، التي أشار إليها القرآن والسنة، وأثبتتها بحوثُ العلماء المعاصرين، فقد تمَّ اكتشاف ما يسببه عالم الأحياء المجهرية الدقيقة، من الأمراض المختلفة، وظهرت بذلك لنا حقائق وحكم صحيحة، حملتها توجيهات الإسلام، فوضعتُ بها حجر الأساس لعملية بناء الطب الوقائي الحديث، الذي يُعنى بمنع انتشار الأمراض، وتعزيز صحة الفرد والجماعة، وإغلاق منافذ الداء.

والطب الوقائي الحديث هو العلم المتعلق بالوقاية من الأمراض الجرثومية، والعضوية، والنفسية للفرد والمجتمع. وعليه تكون مسببات الأمراض الرئيسة ثلاثة:

- مسببات من الكائنات الدقيقة.
- مسببات من مركبات عضوية.
- مسببات من إصابات نفسية.

وتعتبر الكائنات الدقيقة أمة من الكائنات الحية، التي لا ترى أعيننا معظمها، وتوجد في كل مكان؛ في الهواء والماء والتربة، وعلى أجسامنا وفي أفواهنا وأمعاننا، بل

وأحيانا في الطعام الذي نأكله، وبعضها مفيد وبعضها ضار، وتتكون من عائلات وأجناس وأنواع متباينة وعديدة، وتتفاوت في الصغر فأصغرها الفيروسات، التي يتراوح حجمها من ١٠-٣٠ نانومتر (١/ بليون من المتر)، يليها الميكروبات التي يصل حجمها إلى ١٠٠٠ نانومتر، ثم الفطريات ثم الطفيليات الأولية، فالديدان المتطفلة بأنواعها المختلفة، وأخيرًا الحشرات المفصلية المتطفلة.

ويعتبر الجسم البشري أرضًا خصبة لأنواع كثيرة وقطاعات واسعة، من الكائنات الدقيقة؛ وخصوصا في الأنف والحلق، وفي الجزء السفلي من القناة الهضمية، وعلى الجلد، وهي كائنات متخصصة لكل عضو ونسيج. وتعيش هذه الكائنات المتطفلة فيما بينها وبين الإنسان في علاقة ديناميكية وحيوية متوازنة. والجسم البشري في حالة اشتباك دائم مع هذه الكائنات الداخلية والخارجية التي تهاجم وتلحق به الضرر، يقاومها بكل الأسلحة التي يمتلكها، وقد سخر الله - له أسلحة عديدة، يغالب بها هذه الكائنات الغازية له، غير أنها قد تفلت من كل الوسائل الدفاعية أو تتغلب عليها، لتوقع الضرر بجسم الإنسان، لذلك كانت الوقاية منها، هي خير وسيلة للنجاة من شرورها والحد من أخطارها.

والوقاية من هذه الكائنات لا يكون إلا بأمور ثلاثة:

- قطع الطرق الموصلة لهذه الكائنات إلى جسم الإنسان.
- الحفاظ على أجهزة المناعة والدفاع لدى الإنسان وتقويتها.
- التخلص من مخازن هذه الكائنات أو تنظيفها بقدر الإمكان.

وتتوزع هذه المخازن بين ثلاثة مصادر:

- الإنسان.
- الحيوان.
- البيئة: التربة والماء.

ويعتبر الإنسان مخزناً لعدد كبير من الكائنات الدقيقة، في أماكن مهمة في جسمه تعمل كمخازن دائمة لها، وأبرزها: الجلد والفم والأنف والحلق والقناة الهضمية، والتي تحتوي عدد كبيراً من الميكروبات والفيروسات، والتي يمكن أن تبقى في الجسم لعدة أشهر أو سنوات.

وهنا بعض التشريعات والتوجيهات الإسلامية التي تتعلق بالنظافة الشخصية والتي تخلص الإنسان من الكائنات الضارة وتشكل أحد الأسس في علم الطب الوقائي بمفهومه المتكامل في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

فقد حرصت نصوص الشريعة أن تستأصل هذه الكائنات من مخازنها وتحول بينها وبين إلحاق الضرر بالإنسان فأرست قاعدة النظافة الشخصية، لوقاية الفرد من الأمراض المعدية والعضوية والتي تتحقق بما فرضه الله ﷻ وبما سنّه نبيه ﷺ من الوضوء والغسل ونظافة الثياب وأماكن الصلاة وسنن الفطرة.

ولقد سمّت النصوص النظافة بالطهارة، وجعلتها جزءاً مهماً من الدين، بل هي شرطه، كما قال ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ» (رواه مسلم). وأثنى الله ﷻ على عباده المطهرين فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨). وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

وجعل الإسلام وسيلة الطهارة الأولى هي الماء لأنه وسط غير ملائم لنمو الكائنات الدقيقة فيه متى كان نقياً. وقد فرض الله ﷻ وبين رسوله ﷺ أن على الإنسان المسلم إذا أراد أن يصلي فإنه يجب عليه أن يتوضأ، ومن فرائض الوضوء وسننه غَسْلُ الأجزاء المكشوفة من جلده، (الوجه واليدين والذراعين ومسح الرأس والأذنين وغسل القدمين وغسل الفم والأنف)، وقد يحدث ذلك خمس مرات في اليوم الليلة.

كما شرع الإسلام غسل جميع البدن على وجه الإلزام، وندب إليه في أكثر من مناسبة^(١)، بل حدد الفترة الزمنية التي لا يمكن تجاوزها بغير غسل، فقال ﷺ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ» (رواه البخاري ومسلم). وهذا يحقق غاية الكمال في نظافة الجسم كله، ويزيل عدد هائلا من الكائنات الدقيقة التي تعيش على جلد الإنسان.

تذكر المراجع الطبية أن الجلد يعتبر مخزنًا لنسبة عالية من البكتريا والفطريات، ويكثر معظمها على البشرة وجذور الشعر، ويتراوح عددها من عشرة آلاف إلى مائة ألف جرثومة على كل سنتيمتر مربع من الجلد الطبيعي، وفي المناطق المكشوفة منه، يتراوح العدد بين مليون إلى خمسة ملايين جرثومة/سم، كما ترتفع هذه النسبة في الأماكن الرطبة مثل: المنطقة الإربية (أصل الفخذ مما يلي البطن) وتحت الإبط، إلى عشرة ملايين جرثومة/سم. وهذه الجراثيم في تكاثر مستمر.

والغسل والوضوء خير مزيل لهذه الكائنات، إذ ينظف الغسل جميع جلد الإنسان، وينظف الوضوء الأجزاء المكشوفة منه، وهي الأكثر تلوثًا بالجراثيم، لذا كان تكرار غسلها أمرًا مهمًا، وقد أثبتت عدة دراسات قام بها علماء متخصصون: أن الاستحمام يزيل عن جسم الإنسان ٩٠٪ من هذه الكائنات، أي أكثر من مائتي مليون جرثومة في المرة الواحدة، وهذه الجراثيم تلتصق بالجلد بواسطة أهداب قوية عديدة، لذا يشرع في الوضوء والغسل تدليك الجلد.

ولو استعرضنا مناطق الجسم التي يشملها الوضوء، لتبين لنا أحد وجوه الحكمة العظيمة منه، فالفم والأنف هما المدخلان الرئيسيان لأعضاء الجسم الداخلية، فنظافتهما من الجراثيم تعني حماية الأجهزة الداخلية من المرض والعطب.

(١) منها: غسل الجمعة، وقيل بوجوبه، والأحوط المحافظة عليه، والاعتسال للعديد، والاعتسال بعد الإفاقة من الإغماء، والاعتسال للإحرام بالحج أو العمرة، والاعتسال لدخول مكة.

واليدين والذراعان، والوجه وشعر الرأس، والقدمان وأسفل الساقين، كلها أجزاء مكشوفة من البدن، وتتراكم عليها الجراثيم بكميات كبيرة، فغسلها بالماء ينقيها منها ويزيلها عنها، وكذلك أمرنا النبي ﷺ بتخليل أصابع اليدين والقدمين، وجعل من سنن الفطرة غسل عقدها، وذلك تعقيباً لما يمكن أن تحويه هذه المخابئ من الجراثيم والفطريات الضارة وغير ذلك.

نظافة السبيلين واجتناب النجاسات:

لقد أكد الإسلام على الطهارة، وجعلها شرطاً لصحة الصلاة التي تتكرر في اليوم خمس مرات، وأولى خطوات هذه الطهارة نظافة السبيلين اللذين منها تخرج نفايات الجسد التي تحتوي على قدر هائل من الكائنات الدقيقة والسموم الضارة، وسمها الشارع نجاسات، وأمر بغسل الدبر والقبل بالماء؛ ليزيل أي أثر منها يمكن أن يعلق بالجسد أو بالثياب.

ولك أن تنظر في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن النبي ﷺ والذي أخبر فيه عن رجل يعذب في قبره؛ لأنه كان لا يتنزه من بوله لتدرك شدة الاهتمام بنظافة هذا المكان، والتخلص من هذه النفايات الضارة وما فيها من أعداد كثيرة من الجراثيم، وقد وجد أن إهمال نظافة الشرج والأعضاء التناسلية، قد يكون سبباً في إصابتها بمرض السرطان.

ولقد بدأ الغرب في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، يطبق بعض هذه السنن؛ لِمَا وجد فيها من فوائد صحية، وقد ندرك حجم الخطر إذا علمنا أن الجرام الواحد من البراز في الشخص السليم؛ يحتوي على مائة ألف مليون جرثومة، وفي المريض بمرض التيفويد؛ قد يحتوي الجرام الواحد خمسة وأربعين مليوناً من بكتريا التيفويد، أما في مريض الدزنتاريا أو الكوليرا؛ فمن المستحيل إحصاء أعداد الجراثيم لكثرتها الهائلة.

نظافة الثياب وحسن المظهر:

إن الله ﷻ لم يأمر بتطهير البدن فقط، ولكنه أمر بتطهير الثياب فقال تعالى: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدر: ٤). وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَأَى رَجُلًا ثَائِرَ الرَّأْسِ فَقَالَ: «أَمَّا يَجِدُ هَذَا مَا يُسْكِنُ بِهِ شَعْرَهُ؟» وَرَأَى رَجُلًا وَسِخَ الثِّيَابِ فَقَالَ: «أَمَّا يَجِدُ هَذَا مَا يُنَقِّي بِهِ ثِيَابَهُ؟» (رواه الحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي).

وبهذه التدابير المحكمة في تحقيق نظافة مداخل ومخارج وجلد الإنسان، وملابسه، وأماكن جلوسه ونومه وصلاته، يتوقى من أخطار الكائنات الدقيقة وسمومها الضارة؛ والتي يمكن أن تكون سبباً في مرضه أو هلاكه. هذا فضلاً عن الفوائد النفسية للطهارة، التي تكون أثراً وانعكاساً لها، لكونها عبادة لله الخالق العظيم، وتعود بالنفع على جهاز المناعة فتقويه، وتزداد لديه المقاومة لكثير من الأمراض والعلل التي تهدد حياة الإنسان.

قطع الطرق الموصلة لهذه الكائنات إلى جسم الإنسان:

إن الشريعة الإسلامية تقطع الطرق الموصلة لهذه الكائنات إلى جسم الإنسان. وهو عامل رئيسي في الوقاية والحد من انتشار الأمراض والأوبئة. فقد حمت نصوص الشريعة الإسلامية هذا الإنسان، ووقته من شرور وأخطار هذه الكائنات، فشرعت التدابير التالية للحيلولة بين الكائنات الممرضة والإنسان:

١ - نظافة البيئة المحيطة بالإنسان:

لقد حرصت الشريعة على نظافة البيئة التي ستنعكس حتماً على صحة الفرد والمجتمع والتي تتمثل في:

أ- نظافة المساكن والأفنية:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «طَهَرُوا أَفْنِيَتَكُمْ فَإِنَّ الْيَهُودَ لَا تُطَهِّرُ أَفْنِيَتَهَا» (رواه الطبراني، وصححه الألباني). (الأفنية): جمع (فناء) وهو الساحة أمام البيت. وعدم تطهير الأفنية يؤذي الجيران أيضًا.

ب- نظافة الطرقات وأماكن التجمع:

حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى إِمَاطَةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَعَدَمِ التَّخْلِ فِي طَرِيقِ النَّاسِ وَظَلَّهِمْ فَقَالَ ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنَهَا وَسَيِّئَهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا اللَّعَّانِينَ» قَالُوا: وَمَا اللَّعَّانَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ فِي ظِلِّهِمْ» (رواه مسلم).

والمراد باللعانين الأمرين الجالبين للعين الحاملين الناس عليه والداعين إليه وذلك أن من فعلهما شتم ولعن يعني عادة الناس لعنه فلما صار سببا لذلك أضيف اللعن إليهما (الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ) معناه يتغوط في موضع يمر به الناس (أَوْ فِي ظِلِّهِمْ) المراد بالظل هنا مستظل الناس الذي اتخذوه مقبلا ومناخا ينزلونه ويقعدون فيه. إن المناطق الباردة الرطبة وذات الظل تعتبر جواً ملائماً لنمو أغلب أنواع البكتريا وبويضات الديدان وذلك لخلوها من تأثير الأشعة فوق البنفسجية القاتلة للجراثيم والبويضات، وبما أن البول والبراز يعتبران من مصادر هذه الجراثيم والديدان - حيث يحتوي الجرام الواحد من البراز على أكثر من مائة ألف مليون جرثومة - فقد نصح رسول الله ﷺ بعدم التبول والتبرز في الظل.

٢- حفظ الطعام والهواء والماء من التلوث:

إن جراثيم الأمراض والأوبئة تنتقل بشكل رئيسي من خلال الطعام والهواء والماء. فأمر الشارع الحكيم بأمور تصب كلها في حفظ هذا الثلاثي من التلوث بها:

أ- حفظ الطعام من التلوث:

يعتبر تناول الأطعمة الملوثة من أهم وسائل انتقال الأمراض كالتيفود، حيث تنتقل جراثيم المرض من براز المريض أو حامل المرض إلى الإنسان وذلك عن طريق اليد أو الآنية ونسبة حدوث ذلك تعتمد اعتماداً كبيراً على مستوى نظافة الفرد والبيئة وتطورها.

فها هو رسول الله ﷺ يثث الثقافة الصحية بين المسلمين قبل أن تُكتشف الكائنات الدقيقة الممرضة ليقِيهم أخطارها، فخصص يداً للأكل والمصافحة، ويداً لمباشرة الأذى والخلاء، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْيُمْنَى لِبُطْهْوَرِهِ وَطَعَامِهِ وَكَانَتْ يَدُهُ الْيُسْرَى لِحِلَائِهِ وَمَا كَانَ مِنْ أَدَى. (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

ب- حفظ الهواء من التلوث:

إن نفخ الرذاذ وزفره يؤدي إلى انتقال كثير من الأمراض المعدية كالأنفلونزا وشلل الأطفال والنكاف والحصبة الألمانية والرشح والتهاب الحلق والجذري والسل وغيرها من الأمراض وخاصة الفيروسية، لذلك وجه رسول الله ﷺ أتباعه عدم النفخ والتنفس في آنية الأكل والشرب، كما أمرهم بتغطية الوجه أثناء العطاس والشاؤب.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ النَّفْخِ فِي الشُّرْبِ. فَقَالَ رَجُلٌ: «الْقَذَاءُ أَرَاهَا فِي الْإِنَاءِ». قَالَ «أَهْرِفْهَا». قَالَ: «فَإِنِّي لَا أَرَوِي مِنْ نَفْسٍ وَاحِدٍ». قَالَ: «فَأَبْنِ الْقَدَحَ إِذَا عَنَ فِيكَ». (رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

(القذاة): ما يقع في العين والشراب من غبار ووسخ. (أَبْنُ): أبعد.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُتَنَفَّسَ فِي الْإِنَاءِ أَوْ يُنْفَخَ فِيهِ. (رواه أبو داود، وصححه الألباني). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا عَطَسَ غَطَّى وَجْهَهُ بِيَدِهِ أَوْ بِثَوْبِهِ وَغَضَّ بِهَا صَوْتَهُ. (رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

وقال ﷺ: «إِذَا تَنَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَى فِيهِ» (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

ج- حفظ الماء من التلوث:

يعتبر الماء الراكد جَوْاً ملائماً لنمو الكثير من البكتريا كالكوليرا والسالمونيلا والشيغلا وغير ذلك، كما تحتاج بعض الطفيليات الأولية والديدان كالزحام الأميبي والديدان المستديرة والبلهارسيا إلى الماء لإكمال دورة حياتها خارج جسم الإنسان، ويساعد التبول والتبرز على نمو هذه الطفيليات والديدان وسرعة تكاثرها وانتشارها، لذلك نهى رسول الله ﷺ عن التبول في الماء الراكد- الذي لا يجري- لكي يبقى الماء في وقاية من التلوث. فقال ﷺ: «لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا يَجْرِي، ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ» (رواه البخاري ومسلم).

كما أوصى رسول الله ﷺ بتغطية الآنية وربط قِرب الماء منعاً من تلوثها من الجراثيم الوافدة والتي تؤدي إلى ظهور الأوبئة وانتشارها فقال ﷺ: «عَطُّوا الْإِنَاءَ وَأَوْكُوا السَّقَاءَ فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ لَا يَمُرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غِطَاءٌ أَوْ سِقَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ وَكَاءٌ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَبَاءُ». (رواه مسلم).

وقد أثبت الطب الحديث أن الأمراض المعدية تسرى في مواسم معينة من السنة، بل إن بعضها يظهر كل عدد معين من السنوات، وحسب نظام دقيق لا يُعرف تحليله حتى الآن. من أمثلة ذلك: أن الحصبة، وشلل الأطفال، تكثر في سبتمبر وأكتوبر، والتيفود يكثر في الصيف أما الكوليرا فإنها تأخذ دورة كل سبع سنوات. والجدرى كل ثلاث سنين. وهذا يفسر لنا الإعجاز العلمي في قول الرسول ﷺ: «فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ» أي أوبئة موسمية ولها أوقات معينة.

ولوقاية الماء من التلوث أيضاً نهى النبي ﷺ عن إدخال المستيقظ من نوم يده في الإناء قبل أن يغسلها ويطهرها فلعله مس أو حك بها سوءته أو عضواً مريضاً متقرحاً من جسمه وهو نائم، قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ

فَلَا يَغْمَسُ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

ولحفظ الماء من التلوث أيضًا نهى ﷺ عن الشرب مباشرة من فم السقاء (القربة)، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الشُّرْبِ مِنْ فِي السَّقَاءِ. (رواه البخاري).

إن المليلتر من اللعاب يحوي بلايين الجراثيم فعندما تخرج هذه البلايين في لعاب الشارب أثناء شربه من إناء كبير، يمكث فترة طويلة كمصدر لشرب كثير من الناس، تنهياً الفرصة لتكاثر هذه البلايين وتسبب تلوثاً لهذه الماء ويصير مصدر خطر لمن يشرب من هذا الماء بعد ذلك.

٣- عزل المرضى والحجر الصحي:

ومنعاً لانتشار الأمراض والأوبئة وضع رسول الله ﷺ قاعدتين أساسيتين تعتبران من أساسيات الطب الوقائي الحديث بعد اكتشاف مسببات الأمراض والأوبئة وهما قاعدتي العزل والحجر الصحي، ففي الأولى قال رسول الله ﷺ: «لَا يُورَدَنَّ مُمَرِّضٌ عَلَى مُصَحٍّ» (رواه البخاري ومسلم). وفي الثانية قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونَ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا» (رواه البخاري ومسلم).

وهذا الحديث الشريف هو أساس الحجر الصحي الذي لم يُعرف إلا في القرن العشرين، فإذا وقع وباء مُعدٍ في بلدٍ ما يُضرب عليه حجر صحي، فلا يدخل إليه أحد خوفاً من أن يرمي بنفسه إلى التهلكة فيصاب بالوباء، ولا يسمح لأحد من داخله بالخروج خوفاً من أن يكون مصاباً بالمرض ولا يزال في دور الحضنة فينقل الوباء إلى خارج البلد ويعم انتشاره في الأرض.

لقد كانت الأوبئة الفتاكة والأمراض المعدية في العالم الإسلامي أقل بكثير منها في أوروبا، في نفس المرحلة بل إن موجات الطاعون التي كانت تقضي على ربع سكان أوروبا كانت تنكسر حدها عند حدود العالم الإسلامي.

٤- تجنب لحوم الحيوانات الخطيرة:

كما قد تنتقل الكائنات الدقيقة للإنسان عن طريق أكل لحم الحيوانات الخازنة أو المصابة بها أو تناول منتجاتها لذلك حرم الإسلام أكل لحومها أو حتى التعامل معها وسماها خبائث في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (الأعراف ١٥٧).

فحرم أكل لحوم الحيوانات الميتة والدم وأكل لحم الخنزير، والسباع والطيور الجارحة، وأكل الحيوانات والطيور التي تتغذى على القاذورات، واقتناء الكلاب والتعامل معها إلا لضرورة، وقد أثبت العلم أن هذه الحيوانات ولحومها تشكل بؤراً لتجمعات هائلة وخطيرة من الكائنات الدقيقة الفاتكة بالإنسان، فماذا قال العلم الحديث فيها؟

إن لحوم الميتة والدماء المسفوحة قد تحقق ضررها علمياً وظهر خطرهما على حياة الإنسان، وذلك لأن احتباس دم الميتة في عروقه المتشعبة ضمن أنسجتها ييسر للجراثيم التي تعيش متطفلة على الحيوان، في الفتحات الطبيعية والأمعاء والجلد، أن تنتشر بسرعة وسط اللحم من خلال السائل الزلالي في الأوعية والعروق، وتتكاثر بسرعة وينتج عنها مركبات كريهة الرائحة سامة التأثير، كما قد يموت الحيوان بسبب مرض معين فتنتقل جرثومة المرض إلى الإنسان فتؤذيه وقد تهلكه، كما في مرض السل والجمرة الخبيثة وجراثيم السلمونيلا وداء الكلب.

وقد حرم الله ﷻ أيضاً الميتة بسبب الاختناق أو بسبب الرض سواء كان ذلك الرض بالوقذ أو الترددي من مكان عال أو بواسطة النطح من حيوان آخر وكذلك ما أكل السبع. إن تلك الأنواع إضافة إلى ما ينتج عن احتباس دمائها في أنسجتها من الأخطار السابقة فإن الاختناق يزيد من سرعة تعفن الجثة، والرض يسبب انتشار للدم تحت الجلد وداخل اللحم والأنسجة في الأماكن المرضوضة، وقد تكون به جروح تسهل عبور جراثيم الهواء إلى داخل الأنسجة فتعجل بتحللها وفسادها، وما تحمله

السباع من جراثيم وكائنات دقيقة فتاكة بين أنيابها تؤدي نفس النتيجة بأنسجة الحيوان ولحمه مما تجعله يشكل خطرًا داهما على حياة الإنسان حينما يأكل لحمه.

أخطار أكل الدم:

يعتبر الدم من أخطر الأوساط لنمو شتى الجراثيم وانتشارها وحينما يسفح الدم بالذبح أو الفصد فإنه ينغزل عن الأوعية الدموية التي تحفظ حيويته وتقيه من التلوث حيث تفقد كريات الدم البيضاء قدرتها على التهام الجراثيم وتموت خلايا جهاز المناعة، وتنهزم آلياته فتتكاثر الجراثيم بسرعة مذهلة، وتفرز سموماً فتاكة قد تكون أشد مقاومة لحرارة الطبخ من الجراثيم ذاتها.

أخطار الخنازير:

أما الخنزير فقد وصفه ﷺ بأنه رجس، والرجس الشيء القذر، والأقذار والنجاسات هي السبب الأكبر في إصابة الإنسان بالأمراض المختلفة لما فيها من جراثيم وطفيليات ممرضة، فالخنزير ينقل إلى الإنسان كثيراً من الكائنات الدقيقة الخطرة حيث يصاب الخنزير بعدد كبير من الأمراض البائية لا تقل عن (٤٥٠) مرضاً ويقوم بدور الوسيط لنقل أكثر من (٧٥) مرضاً وبائياً للإنسان غير الأمراض العادية الأخرى التي يسببها أكل لحمه، مثل تليف الكبد وعسر الهضم والحساسية الغذائية وتصلب الشرايين وتساقط شعر الرأس وضعف الذاكرة والعقم، وتنشيطه لمرض الربو والروماتيزم وكثرة الأكياس الدهنية وعلاوة على آثارة السيئة على العفة والغيرة في التكوين النفسي.

وينقل الخنزير بمفرده (٢٧) مرضاً إلى الإنسان وتشاركه بعض الحيوانات في بقية الأمراض على أنه يقوم بدور المخزن والمصدر الأساسي لهذه الأمراض في نقلها إلى الإنسان مباشرة بنقلها إلى الحيوانات القابلة للعدوى، ثم منها إلى الإنسان. وينتقل أكثر من (١٦) مرضاً من الخنزير إلى الإنسان عن طريق تناول لحمه ومنجاته.

وأهم هذه الأمراض هي الحويصلات الخنزيرية والحمى المتموجة والدودة الكبدية وداء وايل، وداء المكسيات اللحمية، والتهاب السحايا والمشيمة، وداء

اليرقانات الشريطية الجواله، والدودة الوحيدة المسلحة، وداء المصورات الذيفانية المقوسة وداء الشعريات الحلزونية، والديدان السوطية، وداء السل، وداء المبيضات الفطرية، والالتهابات المعوية بجراثيم السالمونيلا والشايحالا وغير ذلك.

كما تنتقل عن طريق المخالطة والتربية والتعامل مع منتجات الخنزير ومخلفاته عدة أمراض لا تقل عن (٣٢) مرضًا، وأكثر الناس إصابة بها هم عمال الحظائر والمجازر والأطباء البيطريين.

وأهم هذه الأمراض علاوة على بعض الأمراض السابقة، الجمرة الخبيثة، الكلب الكاذب، الزحار الزقي، الحمى القلاعية، الجمرة الخنزيرية، التسمم الدموي، الأنفلونزا الخنزيرية، الحمى اليابانية الخنزيرية، الديدان الرئوية الخنزيرية، الجرب الغائر، السعار، داء النوم، الديدان القنفدية، وغير ذلك.

كما تنتقل عدة أمراض لا تقل عن (٢٨) مرضًا عن طريق تلوث الطعام والشراب بمخلفات الخنزير.

أخطار الكلاب:

لقد شدد رسول الله ﷺ النهي عن مخالطة الكلاب، وهي سباع مدجنة فيها من الطفيليات والجراثيم الدقيقة الشيء الكثير، والتي قد تسبب للإنسان أخطارًا محقة منها على سبيل المثال:

- احتواء أمعاء الكلاب على أعداد كبيرة من الديدان الشريطية والتي تنتقل إلى الإنسان عن طريق ابتلاع بيضها الموجود في الطعام أو الماء الملوث ببراز الكلاب.
- داء الكلب المعروف وبعض أنواع داء الليشمانيات.
- مرض الكيسة المائية الكلبية والتي تكون الكلاب فيها هي السبب الغالب في إصابة الإنسان وحيواناته الأليفة والتي تتغذى على الجيف، ذلك لأن الكلب ينظف استه بلسانه فينتقل بيوض ديدان (الشريطية

المكورة المشوكة) والتي تعيش في أمعائه إلى الإنسان عن طريق الطعام أو الماء الملوث بها وتسبب له (داء الكيسات المائية الخطير).

- كثير من الأمراض الطفيلية وأخطرها مرض (عداري) والتي تسببه الدودة الشريطية (أكنوكاوكاس جرانيلوساس) والتي توجد في كل مناطق العالم التي تعيش فيها الكلاب على مقربة من الحيوانات الداجنة آكلة العشب.

من هذا وغيره ندرك السر في نهى الرسول ﷺ عن اقتناء الكلاب إلا لضرورة. حيث قال ﷺ: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ» (رواه البخاري ومسلم). وقال ﷺ: «مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا إِلَّا كَلْبَ صَيْدٍ أَوْ مَاشِيَةٍ نَقَصَ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطَانٍ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). كما ندرك السر في قوله ﷺ: «ظَهَرُوا إِنَاءً أَحَدَكُمْ إِذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ، أَنْ يَغْسِلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَوْ لَاهُنَّ بِالتُّرَابِ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

أخطار السباع والطيور الجارحة:

حرم رسول الله ﷺ أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير. فعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ فَأَكْلُهُ حَرَامٌ» (رواه مسلم). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ، وَعَنْ كُلِّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

كما أمر النبي ﷺ بقتل الحيوانات الشديدة الضرر على صحة الإنسان كالفأرة من القوارض والغراب والحدأة من الطيور الجارحة، والكلب العقور من السباع المدجنة، والحية من الزواحف.

ينتشر طفيل (الشعرنية ناتيفا) بين الدببة والثعالب القطبية ويصاب الإنسان بها فور تناول لحوم هذه الحيوانات أو الحيوانات الحاضنة لهذا الطفيل بصورة ثانوية كالحقن، كما ينتشر طفيل (تريخينلا نلسوني) في الضباع وبنات آوي والنمور والأسود وبعض الحيوانات المفترسة الأخرى، وتقع معظم الإصابات البشرية في أفريقيا بتناول لحم

الخنزير الداجن والوحشي، وهما حاضنان ثانويان لهذا الطفيل لأنها يتغذيان على الجيف، كما تنتشر الطفيليات التي تعرف بالشعريئات شبه الحلزونية، (تريخنيليا سود وسيبراليس) في الطيور الجوارح (ذات المخلب) ويصاب الإنسان بالعدوى إذا تناول لحم الجوارح من الطيور كالنسور والعقبان والصقور وغيرها.

وقد أثبت علم التغذية الحديثة أن الشعوب تكتسب بعض صفات الحيوانات التي تأكلها لاحتواء لحومها على سُمّيات ومفرزات داخلية تسري في الدماء وتنتقل إلى معدة البشر فتؤثر في أخلاقياتهم. فقد تبين أن الحيوان المفترس عندما يهم باقتناص فريسته تفرز في جسمه هرمونات ومواد تساعد على القتال واقتناص الفريسة ولقد تأكدت الدراسات والبحوث من هذه الظاهرة على القبائل المتخلفة التي تستمرئ أكل مثل تلك اللحوم إلى حد أن بعضها يصاب بالضراوة فيأكل لحوم البشر.

كما انتهت تلك الدراسات والبحوث أيضًا إلى ظاهرة أخرى في هذه القبائل وهي إصابتها بنوع من الفوضى الجنسية وانعدام الغيرة على الجنس الآخر فضلًا عن عدم احترام نظام الأسرة ومسألة العرض والشرف. وهي حالة أقرب إلى حياة تلك الحيوانات المفترسة، ولعل أكل الخنزير أحد أسباب انعدام الغيرة الجنسية بين الأوربيين وظهور الكثير من حالات ظواهر الشذوذ الجنسي.

أمر الإسلام بقتل الغراب:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْحَرَمِ الْفَأْرَةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْحَدْيَا، وَالْغُرَابُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

اتَّفَقَ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى جَوَازِ قَتْلِهِنَّ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ وَالْإِحْرَامِ، فَكُلُّ مُؤْذٍ يَجُوزُ لِلْمُحَرَّمِ قَتْلُهُ، وَأَمَّا تَسْمِيَةُ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ فَوَاسِقُ فَصَحِيحَةٌ جَارِيَةٌ عَلَى وَفْقِ اللَّغَةِ، وَأَصْلُ الْفَسْقِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْخُرُوجُ وَسُمِّيَ الرَّجُلُ الْفَاسِقُ لَخُرُوجِهِ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ، فَسُمِّيتْ هَذِهِ فَوَاسِقُ لَخُرُوجِهَا بِالْإِيذَاءِ وَالْإِفْسَادِ عَنْ طَرِيقِ مُعْظَمِ الدَّوَابِّ وَقِيلَ لَخُرُوجِهَا عَنْ حُكْمِ الْحَيَوَانِ فِي تَحْرِيمِ قَتْلِهِ فِي الْحَرَمِ وَالْإِحْرَامِ.

من جرائم الغراب الحديثة:

توفي عجوز استرالي يبلغ من العمر ٧٤ سنة بأحد مستشفيات ملبورن بعد أن نقره الغراب في عينه وكان ذلك في مدينة ميلدورا بولاية فيكتوريا. وذكرت وكالة أنباء إيه إيه بي الأسترالية أن الطائر انقض في وقت لاحق على سائح كوري يبلغ من العمر ٢٧ سنة وألحق بعينه جروحا خطيرة استدعت دخوله المستشفى. ونصح مسؤول الحياة البرية الذي قتل الطائر رميا بالرصاص سكان ميلدورا بارتداء خوذات رأس واقية ويفضل أن تكون مزودة بعيون غير حقيقية لإخافة الطيور المهاجمة. وتزداد الغربان شراسة في فصل الربيع وتنقض على من تعتقد أنهم قد يهاجمون أفرادها.

غراب شرس يهاجم أسرة:

تناقلت وكالات الأنباء هذا الحدث ونقله موقع الجزيرة على شبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت) فقالت: تحدث كل يوم في العالم أمور عجيبة لا نستطيع أن نجد لها تفسيراً. مثلاً حدث في قرية ألمانية أمر عجيب، حيث هاجم غراب غريب امرأة وطفلة مرات عديدة، واحتار القرويون فيما يفعلون إزاء ذلك فدعوا رجال الشرطة لحل المشكلة. ولكن بسبب سرعة الغراب، فشل رجال الشرطة بعد محاولات كثيرة في اصطياده.

ثم خطرت لهم فكرة جميلة وهي وضع حبات القط الصناعية اللذيذة الجاهزة في سائل خمر قوى ليأكلها الغراب. ولم يمض وقت طويل حتى طار الغراب الشره إلى المكان الذي تنتشر فيه حبات القط المغمورة بالخمير القوى وأكلها بلهفة. وبعد فترة وجيزة، سقط الغراب السكران على الأرض نائماً وأمسك به رجال الشرطة بسهولة وحملوا هذا الغراب إلى مركز حماية الحيوانات المحلي.

أضرار الغراب التي كشفها العلم الحديث:

أثبت العلماء أن الطيور الجارحة ومنها الغراب تعد مصدراً لإصابة الإنسان بكثير من الأمراض الفيروسية والبكتيرية والطفيلية وتدعى وطريقة نقل هذه الأمراض تختلف حسب نوعية المرض إما عن طريق الفضلات التي تحتوي على الميكروبات

المسببة للأمراض والتي تتحول إلى مسحوق ينقله الهواء، وإما عن طريق الرذاذ من الفم وإما عن طريق تلوث الماء والغذاء بالفضلات المحتوية على الميكروبات التي تنقلها بعض الحشرات مثل الصراصير والذباب وإما عن طريق الدم بواسطة البعوض.

أولاً: الأمراض الفيروسية:

من الأمراض الخطيرة التي يتسبب في وجودها الغراب مرض الالتهاب الدماغى والعمود الفقري.

ثانياً: الأمراض البكتيرية:

من الأمراض البكتيرية التي تصيب الغراب والذي تسببه بكتيريا (*Chlamydia psittaci*) وتنقل إلى الإنسان عن طريق التعرض لإفرازات الطائر أو استنشاق رذاذ الهواء المحمل ببراز الطائر وتصيب الإنسان بالالتهاب الرئوي والتهاب عضلة القلب والتهاب الدماغ كما يصاب بميكروب (*Campylobacter jejuni*) ويصاب به الإنسان نتيجة تلوث الغذاء والماء ببراز الطائر وهو يسبب إسهال وحمى وآلام شديدة بالبطن.

ولقد لوحظ في عدن سنة ١٩٩١م أن الغراب كان سبباً في انتشار الميكروبات المسببة للإسهال وبالكشف عنها وجد أنها تشمل مجموعة (*Enterobacteriaceae*) والتي تضم كل من ميكروب (*salmonella*) والشيغلا والبروتيس) ومجموعة (*Vibrionaceae*) ومجموعة (*Pseudomonae*) ولقد وجد أيضاً من البكتيريا التي يصاب بها الغراب (*Spirochetes Burgdroferi Brorrelia*) والتي تنتقل إلى الإنسان عن طريق القراد وتسبب مرض يسمى (*Disease Lyme*) نسبة لمدينة لايم الأمريكية حيث اكتشف لأول مرة، ويسبب هذا المرض نتوءات صغيرة على الجلد وحمى ورعشة وغثيان واحتقاناً بالحلق والقيء، كما يسبب صداعاً حاداً وتضخم عضلة القلب وتقلصاً بالرقبة وآلاماً بمفصل الركبة وتورماً وآلاماً بالمفاصل الأخرى وأمراض انحلالية بالعضلات.

ثالثًا: الأمراض الطفيلية:

ومن الطفيليات التي تصيب الغراب الجيارديا (*Giardia Lamblia*) cysts) والهيمنوليس (*Hymenolep. Nana*) وتنتقل إلى الإنسان عن طريق تلوث الغذاء وماء الشرب بالطور المعدي للطفيل وتصيب الإنسان بالإسهال.

ويصاب الغراب أيضًا بالتوكسوبلازما التي تسببها (*Toxoplasma gondii*) وتنتقل للإنسان عن طريق تلوث الغذاء بالطور المعدي الذي تنقله الحشرات عند تغذيتها على فضلات الحيوانات المصابة.

رابعًا: الأمراض الفطرية:

من الأمراض الفطرية التي يصاب بها الغراب نوع من الخمائر المغلفة التي تسمى (*Crptococcus neoformans*) والتي تخرج مع براز الغراب وتنقلها الحشرات إلى غذاء الإنسان فيصاب بها الإنسان خصوصًا عندما تضعف مناعته (كالمصابين بالإيدز أو الذي أجري له زرع أعضاء أو الذي يتناول دواء يسبب نقص المناعة، وأعراض هذا المرض هي: صداع والتهاب السحايا واختلال في الحالة العقلية واضطراب في الأعصاب الخارجة من الدماغ وإغماء وقيء).

الغراب مؤذي الحيوانات:

يتسبب الغراب في انتقال كثير من الأمراض المعدية إلى الحيوانات مما يؤثر على الثروة الحيوانية منها:

- مرض النيوكسل الذي يسببه فيروس (*Newcastle viroous*).
- ومرض الجداري الذي يسببه فيروس (*Fowlpox virus*).
- ومرض الكوليرا ويسببه بكتريا (*Pasteuralla multocida*).
- ومرض الملاريا ويسببه طفيل (*Plasmodium reticulum*).
- ومرض الفلاريا ويسببه طفيل (*Chandlerellaquiscali*).

• ومرض الكوكسيديا ويسببه الحويصلة الجرثومية لهذا الطفيل وتسمى: (Isospora corviae).

• ومرض السركوستوزيس ويسببه طفيل (Sarcocystis spp).

النهى عن أكل لحوم الجلالة وشرب ألبانها:

نهى النبي ﷺ عن أكل لحم الجلالة وشرب ألبانها؛ فعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ حُلُومِ الْجَلَالَةِ وَالْأَبْنَاهَا». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني). والجلالة هي كل دابة تأكل الأقدار وخصوصًا العذرة (البراز)، التي تعتبر بيئة خصبة لنمو وتكاثر الديدان والطفيليات والجراثيم الضارة، إذ تحتوي على عدد هائل منها، يزيد على المائة بليون جرثومة في الجرام الواحد، لذلك فالعذرة تشكل مخزنًا ومصدرًا رئيسيًا للخطر.

كما أثبتت الأبحاث العلمية أن الأقدار تحتوي على نسبة عالية ومتنوعة من السموم الخطرة على صحة الإنسان، فإذا تناولها حيوان أو طير انتشرت هذه الجراثيم في دمه ولحمه، وترسبت في أنسجته، وعندما يتناول الإنسان لحم هذا الحيوان أو لبنه، يصاب بالعلل والأمراض.

وجه الإعجاز:

لقد شرع الإسلام للمسلم ووجهه إلى كل طرق الوقاية من الأمراض والأخطار باجتنب أسبابها وتقوية كل وسائل الدفاع لمقاومتها والقضاء عليها، وإن المتدبر في هذه النصوص يلاحظ الإشارة الجلية أحيانًا والإشارة الخفية أحيانًا أخرى إلى المواد الضارة كمسببات للأمراض وحدوث العلل وانتشار الأوبئة بينما كان الناس في زمن الرسول ﷺ وقبل زمنه بل وبعده - حتى اكتشاف (باستير) الميكروبات - كانوا يعتقدون أن الأمراض تسببها الأرواح الشريرة والشياطين والنجوم ولا علاقة لها بنظافة أو نظام أو سلوك وكانوا يطلبون لها العلاج بالشعوذة والخرافات.

إن علم الطب الوقائي لم يتبلور ولم يظهر للوجود، إلا بعد اكتشاف علم الكائنات الدقيقة بأنواعها وخواصها المختلفة، وبعد التقدم العلمي والتقني الهائل في

معرفة مسببات الأمراض، والذي لم يحدث إلا في هذا القرن أما قبل ذلك فكان الناس فريقين: مسلمين وغير مسلمين، فالمسلمون لديهم نظام دقيق في الطب الوقائي، هو جزء من دينهم يتعبدون الله به، وينفذونه في سهولة ويسر، وأما غيرهم، فهذه شهادة علمائهم عليهم!

وفقد وصفت العالمة الألمانية (زيفريد هونكه) في كتابها المسمى "شمس الشرق تشرق على الغرب" انطباع (الطرطوسي) من زيارته لبلاد الإفرنج في تلك الآونة، وكيف كان وهو المسلم الذي يتوضأ، قبل كل فرض من فروض الصلاة الخمسة، يستنكر حال القذارة التي كان يحياها الشعب الأوربي، وأبدى دهشته من أنهم لا يغتسلون إلا مرة أو مرتين كل عام وبالماء البارد، أما ملابسهم فلا يغسلونها بعد أن يلبسوها كي لا تتمزق، ثم بينت الباحثة الألمانية تأثر المجتمعات الأوربية بعد ذلك شيئاً فشيئاً بالعادات الإسلامية الحميدة، بعد أن اتضحت فوائدها، ومنها إقامة الحمامات الخاصة والعامة.

ولقد كان البريطانيون يَعتَبِرُونَ أن الغسل مُضِر بالصحة حتى أنه قد يؤدي الى الموت والهلاك. وإنه كان من العيب والعار أن يُبنى حمام داخل بيت أمريكي، حتى إن أول حمام مجهز بمغطس بُنيَ في البيت الأبيض كان عام ١٨٥١م. ولقد أثار في حينه ضجة لأنه اعتبر عملاً مشيناً في ذلك الوقت. وفي فرنسا كان قصر فرساي الشهير على رحابته خالياً من حمام واحد.

لقد استعمرت بريطانيا جزر الساندويش وأرغمت سكانها المسلمين بالقمع والإغراء على أن يتحولوا إلى النصرانية ولكن كانت النتيجة كما ذكرها الطبيب البريطاني (برنارد شو) في كتابه "حيرة الطبيب": أن انتشرت بينهم الأمراض والأوبئة الفتاكة، وعلل ذلك بتركهم لتعاليم الدين الإسلامي؛ التي تقضي بالنظافة المطلقة في كل صغيرة وكبيرة؛ إلى حد الأمر بقص الأظافر وتنظيف ما تحتها.

إن عالم الكائنات الدقيقة كان غيبياً في زمن النبوة وبعده، حتى القرن الماضي، لكن التوجيهات الإسلامية في الطهارة والوضوء والغسل، والنظافة في المسكن والملبس

وأماكن التجمعات، والتوجيهات في المأكل والمشرب، والسلوك الخلقي العام والخاص، لتشير كلها بطريق أو بآخر إلى هذه العوالم الخفية وإلى مسببات الأمراض الأخرى، التي تضعف البدن وتوهن الصحة، وتصيب الجسم بالعلل والأمراض التي قد تؤدي به إلى الهلاك.

وهكذا أثبت العلم سبق القرآن الكريم والسنة النبوية في الإشارة إلى الكائنات الدقيقة، وقدم التشريع الإسلامي أنجح السبل في القضاء عليها، وحماية الإنسان ووقايته من أخطارها، ورأى العلماء بأعينهم صدق وحي الله ﷻ لرسوله ﷺ.

انظروا بتجرد:

يقال للعلماء: انظروا بتجرد إلى هذه الحقيقة العلمية في قول رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونَ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا» (رواه البخاري ومسلم). ولضمان تنفيذ هذه الوصية النبوية العظيمة فقد ضرب رسول الله ﷺ سوراً منيعاً حول مكان الوباء، فوعد الصابر والمحتسب بالبقاء في مكان المرض بأجر الشهداء، وحذر الفار منه بالويل والثبور، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْفَارُّ مِنَ الطَّاعُونَ، كَالْفَارِّ مِنَ الرَّحْفِ، وَالصَّابِرُ فِيهِ، كَالصَّابِرِ فِي الرَّحْفِ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وصححه الألباني).

إذا قيل هذا الكلام لرجل صحيح منذ مائتي عام فقط وهو يرى صرعى المرض الوبائي يتساقطون حوله وهو بكامل قواه وقيل له: امكث في مكانك لا تخرج، لا اعتبر هذا الكلام جنوناً أو عدواناً على حقه في الحياة، ويفر هارباً بنفسه إلى مكان آخر خالٍ من الوباء، وقد كان المسلمون هم الوحيدون بين البشر الذين لا يفرون من مكان الوباء منفذين أمر نبيهم ﷺ ولا يدركون لذلك حكمة.

فلما تقدمت العلوم واكتشفت العوالم الخفية من الكائنات الدقيقة وعُرفت طرق تكاثرها وانتشارها وتسببها في الأمراض والأوبئة تبين أن الأصحاء الذين لا تبدو عليه أعراض المرض في مكان الوباء هم حاملون ميكروب المرض وأنهم يشكلون مصدر الخطر الحقيقي في نقل الوباء إلى أماكن أخرى إذا انتقلوا إليها، وبسبب اكتشاف هذه

الحقيقة نشأ نظام الحجر الصحي المعروف عالمياً الآن والذي يُمنع فيه جميع سكان المدينة التي ظهر فيها الوباء من الخروج منها كما يُمنع دخولها لأي قادم إليها فمن أطلع محمداً ﷺ على هذه الحقيقة؟

أيمكن أن يتكلم بشر عن هذه الحقائق الدقيقة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان؟ اللهم إلا أن يكون كلامه وحياً يأتيه من عليم خبير بخلقه! حتى يرينا سبحانه آياته فنعرفها أنها من ربنا فنحمده على ما من علينا من تشريع وتكليف. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (النمل: ٩٣).

وهكذا أثبت العلم سبق القرآن الكريم والسنة النبوية في الإشارة إلى الكائنات الدقيقة، ومسببات الأمراض. وقد قدم الإسلام للبشرية أيسر وأنجح السبل في القضاء عليها وحماية الإنسان ووقايته من أخطارها، ورأى العلماء بأعينهم صدق وحي الله لرسول الله ﷺ.

سنن الفطرة ونظافة الفرد

إن سنن الفطرة التي أوصى بها النبي ﷺ تمثل أساس نظافة الفرد. وتأتي في رأس قائمة ما يندرج تحت تعليمات الطهارة من الوصايا، والتي يتضح منها عظيم حكمة الشارع حين حثّ على التزام تلكم التعليمات، وقد أثبتت تقارير العلم الحديث أهمية التقيد بمفرداتها وإرشاداتها.

وقد ورد في سنن الفطرة، أحاديث صحيحة تعددت رواياتها وألفاظها، إلا أنّها اتفقت على ذكر طائفة من الخصال الحميدة، فعن زكريّا بن أبي زائدة، عن مُصْعَبِ بْنِ شَيْبَةَ، عن طَلْقِ بْنِ حَبِيبٍ، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْقَاءُ الدَّحِيَّةِ، وَالسَّوَاكِ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ، وَتَنْفُ الْإِيطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ». قَالَ زَكْرِيَّا: قَالَ مُصْعَبٌ: «وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمُضْمَضَةُ».

قَالَ وَكِيعٌ: «انْتِقَاصُ الْمَاءِ: يَعْنِي الاسْتِنْجَاءَ» (رواه مسلم).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ - أَوْ خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ - الْحِثَانُ، وَالْإِسْتِحْدَادُ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَتَنْفُ الْإِيطِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «وُقِّتَ لَنَا فِي قَصِّ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمِ الْأَظْفَارِ وَتَنْفِ الْإِيطِ وَحَلْقِ الْعَانَةِ أَنْ لَا نَتْرُكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً». (رواه مسلم).

الفطرة في اللغة: الابتداء والخلقة والولادة على نوع من الطبع، وهي ما فطر الله عليه الخلق، وهي شعور يميل الإنسان إليه بطبعه وذوقه السليم، وقد جُبل عليه في الأصل، وعُدّ الخروج عنه إخلالاً بمعاني الإنسانية السويّة.

وقد ورد عن كثير من العلماء، أنّ الفطرة هي السنّة، والهدي النبوي، والطريقة التي جاء بها الأنبياء، وأمر خاتمهم ﷺ باقتدائها.

لقد كشفت البحوث الطبية الأهمية الصحية البالغة لتطبيق هذه الخصال، وما يترتب على إهمالها من أضرار؛ فترك الأظفار مجلبة للمرض، حيث تتجمع تحتها ملايين الجراثيم. وترك شعر العانة؛ هو المسئول عن مرض تقمل العانة المنتشر بكثرة في أوروبا، والذي يؤدي إلى تقرحات والتهابات في هذه المنطقة. وأما الختان فقد أثبتت الأبحاث أن غير المختونين يصابون بمعدل أكبر بأمراض المسالك البولية؛ بسبب عدد من الجراثيم؛ وخصوصاً ارشيا كولاي، والكبسيلا، كما ازدادت نسبة الصديد والبكتريا لديهم في البول، كما ثبتت العلاقة بين سرطان عنق الرحم، وبين عدم اختتان الرجال.

وغسل البراجم (عقد الأصابع) يزيل المستعمرات الجرثومية، التي تتخذ من ثنيات الجلد في هذه الأماكن كهوفا وأخاديد لها، ونتف الإبط ينظف هذا المكان المختبئ من الجلد؛ الذي تتجمع فيه الأوساخ، وتنمو فيه الجراثيم وخصوصاً الفطرية منها، كما أن بعض الجراثيم تهوى العيش على مادة الشعر نفسها في هذه الأماكن.

ولأهمية سنن الفطرة تلك، فإنه لا بدّ من سبر أغوارها، ودراسة كلّ سنة منها على حدة، من جوانب طبية صرفة، لمعرفة ما حوّته من فوائد أثبتتها تقارير العلم الحديث.

قصّ الشارب:

الشارب هو ما ينبت على الشفة العليا من الشعر، وجمعه: شوارب.

وقد ورد في الحثّ على قصّ الشارب وتعهده بالعناية، أحاديث عديدة، منها قوله ﷺ: «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ: وَقَرُّوا اللَّحَى، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ» (رواه البخاري). وقوله ﷺ: «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ أَحْفُوا الشَّوَارِبَ، وَأَوْفُوا اللَّحَى» (رواه مسلم). ومن ذلك قوله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ شَارِبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

ولقصّ الشارب العديد من الجوانب الصحية، إذ تستقر أعداد كبيرة من البكتريا وغيرها من الأحياء الدقيقة المتطفلة، في خلايا شعر الشارب الطويل، الذي يحيط بفتحة الفم، وهذا يعني بالضرورة أن تلك الكائنات، ستدخل الفم مع ما يدخله

من جزيئات الطعام والشراب، التي تؤمن بقاياها ضمن نسيج الشارب، بيئة مناسبة تتكاثر خلالها الأحياء المجهرية، مسببة الكثير من الأمراض الالتهابية.

من جهة أخرى، فإن وجود شعر الشارب إلى الأسفل من الأنف، يجعله عرضة لما يخرج منه من سوائل ومفرزات، ويزيد من رطوبة ذلك الوسط أيضاً، ما يصله من رذاذ اللعاب المتطاير، وهي عوامل تزيد من الأجواء والظروف المناسبة، لنمو الأحياء الدقيقة وتكاثرها.

وبناء عليه، سيصبح شعر الشارب الطويل بؤرة فاسدة، ترتع فيها المخلوقات الحية المجهرية وتتكاثر، من غير رادع أو مانع، يقف حيال ما تسببه من الأمراض، التي وقت تعليمات الشارع الحكيم أجسامنا منها، حين أمرت بقص الشارب.

إعفاء اللحية:

وقد جمعت الأحاديث، بين فضيلتي تخفيف الشارب وإعفاء اللحية، فقد أوجب النبي ﷺ إعفاء اللحية بقوله: «خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ، أَحْفُوا الشَّوَارِبَ وَأَوْفُوا اللَّحَى»، وقوله ﷺ: «جُزُّوا الشَّوَارِبَ وَأَرْخُوا اللَّحَى خَالِفُوا الْمَجُوسَ» (رواهما مسلم).
وحيثما دخل رسولا كسرى على رسول الله ﷺ وَقَدْ حَلَقَا لِحَاهُمَا وَأَعْفَيَا شَوَارِبَهُمَا كَرِهَ النَّظَرَ إِلَيْهِمَا، وَقَالَ: «وَيْلَكُمْ، مَنْ أَمَرَكُمْ بِهَذَا؟»، قَالَا: «أَمَرَنَا بِهَذَا رَبُّنَا» - يَعْنِيَانِ كِسْرَى - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَكِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي بِإِعْفَاءِ لِحَيَّتِي، وَقَصِّ شَارِبِي». (رواه الطبري في "تاريخه"، وحسنه الألباني).

يتعرض جلد الرجل خارج المنزل، إلى تأثير موجات أشعة الشمس المباشرة، وإلى تيارات الرياح الباردة والحارة، ولهذا تأثير سلبي في صحة ألياف الجلد والكولاجين^(١) في الوجه، إذ يقود تحللها إلى ظهور التجاعيد بصورة باكرة، ولشعر اللحية دوره الهام في التقليل من هجوم الأشعة الشمسية الضارة تلك، والتخفيف من

(١) الكولاجين: هو بروتين ذو خواص قوية، ويدخل في تكوين أنسجة الجسم.

تأثير حدة الرياح في جلد الوجه، مما يكفل سلامته، وخلوه مما قد يعتريه من أضرار لاحقة.

وقد أثبت الطب الحديث أيضاً، وجود علاقة مباشرة بين التعرض المستمر لأشعة الشمس من جهة، وظهور سرطان الجلد من جهة أخرى، ويسهم شعر اللحية هنا في وقاية الجلد من تأثيرات سلبية كتلك، عبر صدّه للكثير من موجات أشعة الشمس الضارة.

ومن مضار حلق اللحية، ما يحدث أثناء استخدام آلة الحلاقة الحادة، من تهيج الجلد وتخرب أنسجته السطحية، وظهور الجروح الصغيرة، مما يؤدي إلى تآكل طبقة الجلد الخارجية، وما يتبعه من فتح منافذ العدوى أمام غزو الأحياء المجهرية الدقيقة، وتصبح طبقات الجلد العميقة مكشوفة، وأكثر عرضة للإصابة بما تسببه تلك الجراثيم والفيروسات والفطريات من أمراض جلدية مختلفة.

ومما ثبت من فوائد طبية أخرى في توفير شعر اللحية، ما نراه من عملها في تدفئة جلد الوجه في فصل الشتاء، وهو عامل وقائي يسهم في حماية العصب الوجهي، من التعرض المباشر لتيارات الهواء الباردة، وبالتالي وقايته من حدوث بعض حالات الشلل.

السواك:

ساك الشيء سَوَكًا أي دلكه، ومنه ساك فمه بالعود يسوكه، واسم العود: المسواك. يُصنع عود السواك من جذور شجرة الأراك أو من أغصانها، وقد يؤخذ من أشجار أخرى كالشام والسرّح والزيتون، والأراك شجرة تنمو في السبخات المالحة، ويمكن ربيها بآء البحر، وتكثر في صحارى المملكة العربية السعودية وسيناء والسودان وباكستان.

ولقد أثبتت الأبحاث وجود ما لا يقل عن ١٨٢ نبتة أو شجرة مختلفة الفصائل والتي تستخدم أعوادها لتحضير المسواك، من هذه الأشجار يوجد ما لا يقل عن ١٥٨ نبتة في قارة أفريقيا وحدها.

قال عليه السلام: «السَّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ» (رواه البخاري). أي: سبب لطهارة الفم، وسبب لرضاء الرب.

فالسواك مطهرة للفم حقًا، فقد ثبت تكون لويحة جراثومية تلتصق بالأسنان في غلالة رقيقة من اللعاب التي تسبح فيه، وهذه اللويحة أو الطبقة تتكون سريعًا حتى بعد تلميع الأسنان في أقل من ساعة، ويزداد سُمُكُها ويحدث فيها ترسبات رخوة، كلما تركت من غير إزالة، وقد ثبت أن هذه اللويحة الجرثومية التي تتكون على الأسنان هي المسؤولة عن أمراض اللثة ونخر الأسنان، لما تحويه من عدد هائل من الجراثيم؛ إذ يصل عددها داخل هذه اللويحة إلى حوالي مائة بليون جرثومة في الجرام الواحد.

وهذا يوضح لنا حكمة حث النبي عليه السلام أمته على دوام استعمال السواك، في قوله عليه السلام: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ» (رواه البخاري). وفي رواية لمسلم: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ». كما ثبت في الصحيحين أَنَّ النَّبِيَّ عليه السلام كَانَ إِذَا قَامَ لِلتَّهَجُّدِ مِنَ اللَّيْلِ يَشُوصُ فَاهُ بِالسَّوَاكِ (يشوص: يُمر السواك على أسنانه ويدلكها به).

إن ركود اللعاب أثناء النوم، أحد العوامل التي تشجع تكاثر الجراثيم وازدياد ترسباتها في هذه اللويحة كما أن هذه اللويحة ليس لها علاقة بالأكل وفضلات الطعام، فهي دائمة التكوين، لذا نفهم الحكمة من ترغيب النبي عليه السلام وحضه على السواك وملازمته له حتى أثناء الصيام.

وقد أثبتت نتائج عشرات الدراسات الحديثة، ما للسواك من فوائد صحيّة عظيمة، ومن ذلك دوره المؤكّد في تطهير الأسنان واللثة، وقدرته على أداء مهام فرشاة الأسنان والمعجون معًا، كما أنّ أليافه دقيقة تناسب عمليّة تنظيف الأسنان، وفيه الكثير من المواد التي وضحت فوائدها حديثًا، فدخلت في تركيب معاجين الأسنان.

وفي استعمال السواك المتكرّر، ولا سيّما عند كلّ صلاة، وقاية حاسمة من تسوّس الأسنان، وتنظيف مستمرّ، وإبادة باكرة للمستعمرات الجرثوميّة، التي تنمو بسرعة مذهلة ضمن اللثة، وبين ثنايا الأسنان، ويقضي السواك على الكثير من تلك

الأحياء المسببة للعديد من الأمراض الالتهابية، ويرجع ذلك إلى وجود مضادات حيوية تشبه البنسلين، ضمن مكونات نسيج هذا العود.

ويعدّ القلح^(١) أحد أهمّ مظاهر إهمال نظافة الأسنان، وهو تصبّع ينتج عن تراكم ترسّبات بعض المواد العضوية والمعادن وبقايا الطعام والبكتريا في سطح الأسنان، مكونة طبقة صلبة ذات لون أصفر داكن، وقد اكتشف العلماء، أنّ السواك غنيّ بمادتي السيليكا والكلوريد المزيلتين للقلح، ممّا يساعد في تلميع الأسنان وتبييضها، وحلّ ما يظهر بها من تصبّغات وشوائب.

وفي دراسة مقارنة قامت بها جامعة مينوسوتا الأمريكية، أظهر المسلمون الذين يواظبون على استخدام السواك، سلامة الأسنان واللثة لديهم، مقارنةً مع غيرهم ممّن يكتفون باستخدام فرشاة الأسنان العادية، وعُزي ذلك إلى احتواء السواك على مواد فعّالة ذات خواص مطهرة، مثل السنجرين وحمض التانيك Tannic acid وثلاثي ميثيل الأمين، وهي أيضًا من المواد القابضة، التي توقف نزف جروح اللثة.

وفي السواك أيضًا مواد أخرى، تغطّي طبقة ميناء السنّ وتدعمها، فتحميها من التشقّقات والتصدّعات، ممّا يقلّل من نسبة حدوث النخر وتسوّس الأسنان، وتطيب تلك المواد أيضًا من رائحة الفم، ومنها: القلوّيات والمواد العطرية والصمغية ومادة الثيوسيانات.

ويدخل في تركيب نسيج السواك، معادن هامة تبني خلايا الجسم وتمدّها بالطاقة، ويتمّ امتصاص هذه المعادن عبر أنسجة الفم، أثناء عملية التسوّك، لتصل منها إلى مجرى الدم، الذي ينشرها إلى أنسجة الجسم المختلفة، ومن ذلك: معدن الحديد والكالسيوم.

(١) القلح (بفتح القاف واللام): صُفرة تعلقو الأسنان، ووسخ يركبها.

ويحرّض استعمالُ السواك المنتظم أيضاً، عملية إفراز اللعاب من قِبل الغدد اللعابية في الفم، وينشط أداؤها، وهذا عامل هامّ يسهم في صيانة صحّة تجويف الفم، والتخفيف من حدّة ما يظهر فيه من الأمراض المختلفة.

وتُظهر دراساتٌ أخرى نجاحَ السواك في علاج التهابات الحنجرة والوقاية منها، وما له من تأثير مهدئ للأعصاب والتوتر والقلق، ودور وقائي من ظهور داء السرطان في جوف الفم.

والسواك يحتوي على مادة مضادة للجراثيم شبيهة البنسلين؛ ذات التأثير الشديد في القضاء على الجراثيم، وثبت بالبحث أنه يقضي على خمسة أنواع على الأقل من الجراثيم الممرضة، والموجودة بالفم أهمها البكتريا السبحية والتي تسبب بعض أنواع الحمى الروماتزمية.

كما وُجد في السواك مادة السيليس التي تحجف الفضلات، وتزيح القلح وتساعد على تلميع الأسنان، كما يتوافر فيه بكثرة حمض العفص؛ وهو قاتل الجراثيم ومطهر قوي ويشفي جروح اللثة والتهاباتها. وقد وجد به أيضاً مادة من مركب أميني تنخفض من الأس الأيدروجيني للفم (وهو أحد العوامل المهمة لنمو الجراثيم). وبالسواك تقل فرصة نمو هذه الجراثيم الموجودة بأعداد هائلة.

وقد أجريت دراسة سريرية على مستعملي السواك، ثبت خلالها أن السواك يزيل اللويحة الجرثومية قبل عتوها وتأثيرها على الأنسجة، وتكرار السواك يومياً إلى قبل الصلاة يؤدي إلى درجة عالية من نظافة الفم، وأن التهابات اللثة التي كانت موجودة قبل البحث قد تحسنت، وأوصى الباحثون باستخدام السواك الدائم للوقاية من أمراض الفم والأسنان.

نظافة الأنف من الجراثيم الممرضة:

أما استنشاق واستنثار الماء من الأنف؛ فله فوائد طيبة كثيرة؛ أهمها: أنه يزيل المفرزات المتراكمة في جوف الأنف، والغبار اللاصق على غشائه المخاطي؛ كغبار المنزل والطلع وبعض بذور الفطريات والعفنيات المتناثره في الهواء، ويرطب جوف الأنف

للمحافظة على حيوية الأغشية المخاطية داخله، كما أنه يزيل الكائنات الدقيقة التي تعلق في جوف الأنف وتستقر به.

ولقد أثبتت الدراسات والبحوث التي أجريت لغرض معرفة تأثير الضوء على صحة الأنف - أن أنوف من لا يصلون تعيش بها مستعمرات جرثومية عديدة وبكميات كبيرة من الجراثيم العنقودية والمكورات الرئوية والمزدوجة (والدفترويد والبروتوس والكلبسيلا)، وأن أنوف المتوضئين ليس بها أي مستعمرات من الجراثيم، وفي عدد قليل منهم وجد قدر ضئيل من الجراثيم ما لبثت أن اختفت بعد تعليمهم الاستنشاق الصحيح.

وقد وجد الباحثون أن نسبة التخلص من الجراثيم الموجودة بالأنف تزداد بعدد مرات الاستنشاق وأنه بعد المرة الثالثة يصبح الأنف خاليا تماما منها.

لذا فقد وصى النبي ﷺ بالمبالغة في الاستنشاق وتكراره ثلاثاً، ل يتم بهذا القضاء على مخزن من مخازن الكائنات الدقيقة، في هذا المكان المهم والحيوي، إذ هو المدخل للجهاز التنفسي.

المضمضة:

يقال: مَضَمَضَ الماءَ في فمه، إذا حَرَّكَه بالإدارة فيه.

إن مضمضة الفم بالماء ثلاث مرات، تخلصه من عدد هائل من الكائنات الدقيقة، حيث تستقر فيه أعداد وأنواع كثيرة منها، تزيد على ثلاثمائة مستعمرة، ويتراوح عدد الجراثيم في اللعاب حوالي مائة مليون جرثومة/مم، كما توجد بعض الفطريات والطفيليات الأولية بأعداد هائلة، وهي تتغذى على بقايا الطعام بين الأسنان، وينتج من نموها وتكاثرها أحماض وإفرازات كثيرة، تؤثر على الفم ورائحته وعلى لون الأسنان وأدائها، والمضمضة بالماء ثلاث مرات، في أوقات من اليوم قد تصل إلى خمسة أو أكثر، تخلص الفم من عدد هائل من هذه الكائنات وسمومها.

يعدّ تجويف الفم، بيئة مثالية لنمو الكائنات الحية الدقيقة، فهو وسط تتوافر فيه عوامل الرطوبة الدائمة، ودرجة الحرارة المناسبة، بالإضافة إلى وجود بقايا الطعام

والشراب بين الأسنان، وفي ثنايا اللثة، ممّا يؤمّن الغذاء اللازم، لتبني الأحياء الدقيقة مستعمراتها، بأعداد كبيرة، إذ تنمو عشرات الأنواع من البكتريا المختلفة والطفيليات والفطريات والفيروسات في سائل اللعاب، وتجول الملايين منها في تجويف الفم.

تضمن عملية المواظبة على المضمضة إنقاصاً واضحاً، لما يتجمّع من الأعداد الكبيرة من الكائنات المجهرية التي تسكن تجويف الفم، وتسهم في الوقاية مما ينتج عنها من أمراض التهابية عديدة، وبخاصّة إنّ تكرّر هذا الفعل ثلاث مرّات، مع كلّ وضوء في أوقات الصلوات الخمس، ويزداد ذلك الأثر المرجوّ باستخدام عود السواك لتنظيف الأسنان، لإتمام عمليّتي التنظيف والتطهير المطلوبتين.

وتظهر لدى الكثيرين ممن جانبوا الصواب وأهمّلوا نظافة أفواههم، أمراض التهابية يسببها غزو الأحياء المجهرية وتكاثرها المخيف داخل تجويف الفم، ومن ذلك: الإلتهابات الفطرية المتكررة، ونخر الأسنان، وخراجات اللثة، والتهابات اللسان، وكثيراً ما يصبح المريض مصدر عدوى لمن جاوره، فينقل إليهم المرض بسهولة، أثناء اقترابه منهم.

كما تظهر في تلك الحالات أيضاً، الكثير من قرح الفم، ومنها ما يُعرف بالقلاع، وهي قرحة مؤلمة ذات سطح أبيض وقاعدة حمراء، وتبدو حول اللسان واللثة، وتكثر في حالات إهمال نظافة الفم والأسنان.

ومن أضرار إهمال المضمضة، ما يلاحظ من ظهور رائحة الفم الكريهة التي تُعرف بالبَخَر، وتنتج عن تراكم البكتريا ضمن بؤر مركّزة، تعمل في تخمير أنسجة الفم الداخلية، ممّا يؤدّي إلى حدوث عملية التعفّن، وما يصحبها من إنتاج الأحماض المسببة لتلك الروائح، وهذا لا شكّ مصدر لنفور الناس وإزعاجهم، ممّا يسبّب الضرر لهم، وهو ممّا يرفضه الإسلام ولا يرضى عنه.

استنشاق الماء:

الاستنشاق هو جذب الماء إلى المنخرين بالنفَس، ويعني وصول الماء إلى داخل تجويف الأنف بشهيق خفيف، وضده الاستنثار، وهو دفع الماء من الأنف ليُخرج ما فيه.

ومما ذكر من أحاديث في هذا الباب، قوله ﷺ: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي أَنْفِهِ مَاءً ثُمَّ لِيَنْتَثِرْ». (رواه مسلم). ولأهمية هذه السنة، نرى الرسول الكريم ﷺ يأمر بالمبالغة في أدائها، فعَنْ لَقِيطِ بْنِ صَبْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنْ الْوُضُوءِ»، قَالَ: «أَسْبِغِ الْوُضُوءَ وَخَلِّ بَيْنَ الْأَصَابِعِ وَبَالِغِ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا». (رواه أبو داود وغيره، وصححه الألباني).

يمكن لنا تشبيه الأنف بمصفاة دقيقة، تعمل في تنقية الهواء الذي يدخل إلى الصدر عبر عملية الشهيق، إذ تعلق الشوائب وذرات الغبار التي يحملها الهواء، بما ينبت في الأنف من الشعر، وتتكوّن بطانة الأنف الداخلية من نسيج مخاطي رطب ولزج، وهو فنج قويّ تلتصق به الأحياء المجهرية التي تؤذي الجسم إن هي دخلت فيه، كالطفيليات والجراثيم وغيرها.

ويعدّ المخاط وما شابهه من مفرّزات وسوائل تتراكم في نسيج الأنف الداخلي، وسطاً نموذجياً لنموّ البكتريا والأحياء المجهرية الأخرى، ولعمليتي الاستنشاق والاستنثار، دور هام في تخفيف تراكم تلك السوائل، إذ تقومان بإزالة ما تجمع منها في تجويف الأنف أولاً بأول، وفي ذلك إخلاء للكائنات المجهرية المسببة للكثير من الأمراض، كالتهاب الجيوب الأنفية، والتهاب البلعوم والحنجرة وذات الرئة والسلّ والأنفلونزا الموسمية، والمرض الجديد الذي عُرف باسم أنفلونزا الخنازير. ولاستنشاق الماء واستنثاره أيضاً، دور هام في إزالة ما علق بالأنف الداخلي من ذرات الغبار، وبذور الفطريات والعفن، وجزيئات الريش والأبخرة الكيماوية، ولهذا دور فاعل في التقليل من تفاعلات الحساسية ونوبات الربو والتهابات الجهاز التنفسي.

وتكفل عملية الاستنشاق أيضًا ترطيب جوف الأنف الداخلي، وهذا يعني المحافظة على صحة الأغشية المبطنّة لتجفيف الأنف، إذ إنّ الجفاف سبب رئيس في تشقق تلك الأغشية، وهذا يؤدي بدوره إلى حدوث الألم وظهور التخريش.

لقد وجد باحثو العديد من الدراسات، أنّه بعد الفراغ من الاستنشاق للمرّة الثالثة، يصبح جوف الأنف خاليًا من الكائنات المجهرية، وستراكم تلك الأحياء في الأنف بعد الاستنشاق بساعات، إلا أنّ الموضوع التالي سيزيحها ثانيةً عن أمكنتها، طالما التزمنا بتعليمات الرسول الكريم، حين نادى بتكرار ذلك خمس مرات على الأقل في اليوم والليلة.

وفي دراسة جامعية مقارنة، ظهر باطن الأنف لدى من لا يتوصّأ، شاحب اللون، ودهنيّ الملمس، وفي مدخله تترسّب الأتربة والقشور، وتبدو فتحة الأنف لزجة وداكنة اللون، ويتساقط هنا الشعر المتلاصق والمغبر بسهولة، خلافًا لباطن أنوف المتوصّئين، فقد بدا لامعًا وخاليًا من ذرات الأتربة، وظهر شعر الأنف هنا نظيفًا سليمًا واضح المعالم.

ولوحظ في نفس الدراسة، نموّ مستعمرات جرثومية في أنف من لم يعتدّ الوضوء، وظهرت بها أنواع مختلفة من البكتيريا، مثل: البكتيريا العنقودية، والبكتيريا العقدية، والكلبسيلا، والبكتيريا الرئوية، أما أنوف المتوصّئين، فقد بدت هنا خالية من الجراثيم، ورغم أنّ بعضها أظهر وجود جراثيم قليلة، إلا أنها اختفت تباعًا، بتعليم أصحابها طريقة الاستنشاق والاستنثار الصحيحتين.

مساعدة المبالغة في الاستنشاق في علاج التهابات الجيوب الأنفية:

عَنْ لَقِيطِ بْنِ صَبْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنْ الْوُضُوءِ»، قَالَ: «أَسْبِغِ الْوُضُوءَ وَخَلِّلْ بَيْنَ الْأَصَابِعِ وَبَالَغْ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا». (رواه أبو داود وغيره، وصححه الألباني).

قال الأستاذ الدكتور هشام بدر الدين المشد^(١)، دكتورة أنف وأذن وحنجرة، إن التهابات الجيوب الأنفية منتشرة ويعانى منها كثير من الناس رجالا ونساء؛ كبارا وصغارا، وأكثر أعراضها انتشارا هو الصداع الذي قد يحيل حياة المريض إلى جحيم لا يطاق، ليس هذا فحسب إنما تكمن خطورتها الحقيقية فيما قد تسببه من مضاعفات قد تذهب بالبصر إذا لم يُحسن علاجها في الوقت المناسب.

وقال إن العلاج الطبى:

• **علاج دوائى:** مضاد حيوى (يستحسن أن يكون حسب مزرعة

للحساسية)، مضاد للهستامين، قابض للأوعية الدموية وغسول للأنف.

• **علاج جراحى:** باستخدام الميكروسكوب أو المنظار الجراحى،

وغسول للأنف قبل وبعد العملية فهو يستخدم كعلاج من المرض وكذلك كوقاية لعودته مرة أخرى، حيث يعمل على إزالة الإفرازات أولا بأول وكذلك يرطب الأهداب ويحميها من الجفاف الذى يعتبر من أهم أسباب الالتهابات.

وتكمن أهمية الغسول في نقطتين أساسيتين:

١- التنظيف والإزالة:

• للغبار والجراثيم التي يتعرض لها الأنف من الخارج، وهذا ما أثبتته

دراسات علمية كثيرة منها على سبيل المثال رسالة الماجستير التي أجريت في طب الإسكندرية وخلصت إلى أن نمو الجراثيم الممرضة في المزارع التي أخذت من أنوف المتوضئين كان أقل كثيرا من مثيلاتها التي أخذت من غير المتوضئين.

(١) في بحث له بعنوان: الطب النبوي والتهاب الجيوب الأنفية.

• للإفرازات التي يتم إفرازها من الغشاء المخاطي للأنف.

٢- **ترطيب الأهداب:** والمحافظة على ليونتها وبذلك تعمل في بيئة مثالية حيث إن الجفاف من أشد أعداء هذه الأهداب.

وحتى يؤدي الغسول دوره كما ينبغي يجب ان تتوفر له صفتان أساسيتان:

١- **الاستمرارية:** وذلك لأن الأنف يتعرض بصفة مستمرة للأتربة والميكروبات وكذلك الإفرازات التي تفرز من الأنف، فكما أن هذه الأشياء لا تتوقف، فيجب كذلك أن يكون الغسول باستمرار.

٢- **الغسول العميق:** حتى يصل إلى ثنايا التجويف الأنفي العميقة وبذلك يتمكن الغسول من تنظيف هذه المناطق الداخلية.

وأقصى ما طمحوا له في ذلك أن يستعمل المريض الغسول بصفة مستمرة كفرشة الأسنان، أى مرة أو مرتين يومياً على الأكثر.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع فقد أنشأوا له عدة مواقع على الشبكة العنكبوتية العالمية (انترنت) تتحدث كلها عن أهمية الغسول وكيفيته. وهناك مصادر أجنبية كلها تتحدث عن أهمية الغسول في العلاج الدوائي أو الجراحي، وتبعا لنوع الالتهاب فإنهم يضيفون بعض الإضافات إلى الغسول مثل كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) أو كربونات الصوديوم أو مضادات الفطريات وذلك تبعا لنوع الميكروب المسبب للمرض ولكن تبقى العلة من استخدام الغسول ثابتة باستمرار وهى التنظيف والترطيب وبالشرطين المذكورين وهما الاستمرارية وأن يصل الغسول إلى عمق الأنف.

ولكن لأنهم لا يعرفون الهدى النبوي فقد تحيروا في ابتكار أجهزة عديدة تقوم بعملية الغسول وإيصاله إلى عمق تجويف الأنف وكذلك للجيوب الأنفية، وبالرغم من أن بعضها يقوم بهذه العملية بكفاءة فإن العيب الرئيسي يبقى وهو صعوبة استخدامها على المدى الطويل وتكرار ذلك حيث إن تكرار الغسيل واستمراريته هو الضمان

الوحيد لعدم التهاب الجيوب من الأصل وكذلك لعدم تكرار الالتهاب بعد العلاج والعيب الثاني لهذه الأجهزة هو ارتفاع ثمنها.

وتكمن عبقرية الحل النبوي في كفاءته وفاعليته في العلاج وكذلك الوقاية، ثم أيضا بسبب سهولة استخدامه وسهولة تكراره، وأهم من ذلك أنه ربما يكون بدون تكلفة على الإطلاق بل يثاب من يفعله بنية: (وَبَالِغٌ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا).

ووجه الإعجاز في الحديث هو اختيار الرسول ﷺ المبالغة في الاستنشاق بالذات، فرغم أمره ﷺ بالإسباغ في أعضاء الوضوء كلها إلا أنه اختص الأنف بمزيد عناية واهتمام، ولأنه ﷺ أوتي مجامع الكلم، فقد اختار كلمة واحدة شملت كل الصفات اللازمة في الغسل، فالمبالغة تعني الكثرة الكمية والنوعية. فالمبالغة الكمية تعني كثرة عدد الغسلات، أي الاستمرارية التي أشرنا لها في صفات الغسل الفعال، بالإضافة إلى ترغيبه ﷺ في أحاديث كثيرة في أن يظل المسلم على طهارة باستمرار. وأما المبالغة النوعية فتعني المبالغة في إيصال الماء إلى داخل عمق تجويف الأنف حتى تصل إلى البلعوم في غير نهار الصيام.

ثم إن هذه الكلمة بالذات «المبالغة» تسترعي الانتباه، فما بال رسول الوسطية والاعتدال يدعو إلى المبالغة، فأمر الدين كله مبنى على التوسط والقصد، في الأكل وفي الإنفاق بل حتى في العبادات، فما الذي دعا المعصوم والذي لا ينطق عن الهوى ﷺ أن يعدل عن هذا المنهج الثابت المطرد إلى المبالغة؟ فلا بد أن ذلك لسبب مهم وحكمة بالغة.

فقد رأينا أن الشق العلمي في الموضوع، وهو أهمية غسول الأنف في علاج التهابات الجيوب الأنفية والوقاية منها، حقيقة علمية مؤكدة بالمراجع العلمية، فكثرة غسول الأنف لابد أن يؤدي إلى تنظيفها وإزالة الإفرازات والجراثيم منها ومن ثم حمايتها من الالتهابات.

أما الشق الشرعي، فهو دلالة الألفاظ الواضحة في هذا الحديث العظيم فليس أدق ولا أبلغ من كلمة المصطفى ﷺ (وَبَالِغٌ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا) لتحقيق ما يصبوا إليه العلماء في الوقاية والعلاج من الالتهابات المزمنة للجيوب الأنفية. فوصيتي لكم أيها المتوضئون، أن بالغوا في الاستنشاق وقايةً، وبالغوا في الاستنشاق شفاءً، وأهم من كل ذلك، بالغوا في الاستنشاق سنةً واقتداءً.

قص الأظافر:

قلم أظافره: أي قص ما طال منها، وقلمها: بالتشديد مبالغة في (قلم). يزداد تكاثر الجراثيم وغيرها من الأحياء الدقيقة، على ما يطول من الأظافر، وهو تناسب طردي، فكلما زاد طول الظفر، ازدهر نمو تلك الكائنات، وزاد تراكمها ضمن نسيجه وخلاياه.

وتحمل الأظافر الطويلة الجراثيم والفطريات، باتجاه الفم أثناء عملية الأكل، وهذا يعني دخولها إلى تجويف الفم، ووصولها منه إلى الجهاز الهضمي، مما يحمل بين طياته خطر ظهور العديد من الأمراض الالتهابية.

وكثيراً ما تظهر الجيوب الظفرية في نهايات الأنامل، تحت نسيج الظفر الطويل، وهي أمكنة تتراكم بها الأوساخ والجراثيم ومسببات العدوى، مثل بيض الطفيليات، ومفرزات الغدد العرقية والدهنية، وتصبح هذه الشئيات مرتعاً خصباً لنمو المستعمرات الجرثومية، ويغدو الظفر بذلك مصدراً للأذى والعدوى في الكثير من الأمراض، كالإصابة بالديدان المعوية والزحار، والتهاب الأمعاء.

وتوضح الدراسات الطبية المقارنة، كثرة ما يصيب الأظافر الطويلة من أمراض، مقارنة مع ما قلم منها، ومن ذلك: داء زيادة سماكة الظفر، الذي يظهر الظفر فيه مشوهًا وشديد السماكة، مما يعرضه لسهولة الكسر، نتيجة أي رص يصاب به.

ومن الأمراض الأخرى في هذا المجال: التهاب الأظافر، وداء تساقط الأظافر، وفيه يفصل الظفر من سريرته، أو ينكسر جزء منه فيتساقط لاحقاً، ويكثر حدوث ذلك في الالتهابات الفطرية، التي تنتج عن تكاثر الفطريات تحت نسيج الظفر الطويل.

كما تنقل الأظافر الطويلة الكثير من الأمراض أثناء مصافحة صاحبها للآخرين، ويلحق الظفر الطويل أيضًا، الأذى بالأنسجة الأخرى، بسبب نهايته الحادة والمدببة، ويحدث ذلك أثناء حكّ الجلد أو العين مثلاً، ممّا قد ينتج عنه جرح تلك الأعضاء وخدشها.

وتؤكد الأبحاث الطبية أن الأظافر الطويلة لا يمكن أن نعقم ما تحتها ولا بد أن تعلق بها الجراثيم مهما تكرر غسلها لذا توصي كتب الجراحة أن يعتني الجراحون والمرضى بقص أظافرهم دومًا لكي لا تنتقل الجراثيم إلى جروح العمليات التي يجرونها وتلوثها.

إن عدم قص الأظافر وتركها تطول لتصبح (مخالب) بشرية، سواء كان ذلك إهمالًا، أو جهلاً، أو كان متعمدًا على أنه تقليد (أو موضّة) هو خصلة ذميمة مخالفة لسنن الفطرة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية.

فالأظافر الطويلة فيها تشبّه وتقليد لأهل الكفر والضلال، وتطبيع للمسلمين بطابع الحضارة الغربية، وفيها أيضًا نزوع إلى الطبيعة الحيوانية وتشبه بالوحوش ذوات المخالب، كما أنه عمل لا يقبله الذوق الإسلامي الذي تحكمه شريعة الله ونظرتها التكرامية للإنسان.

غسل البراجم:

البراجم هي العقَد في ظهر الكفّ والأصابع، والواحدة منها: بُرْجَمَة، وتعدّ نظافة اليدين عمومًا، إحدى السنن التي أولاها الإسلام من عظيم العناية والرعاية الشيء الكثير، فقد حثّ على غسّلهما عدّة مرات في اليوم، وأثناء الوضوء، وقبل الطعام وبعده، وحين الاستيقاظ من النوم، وعند الفراغ من الخلاء.

وقد شدّد الإسلام على ذكر براجم اليد، لأنّ غسلها المستمرّ - كما يحدث مع المداومة على الوضوء - يقود إلى إزالة المستعمرات الجرثومية والفطرية، التي تتخذ من ثنايا الجلد في هذه الأماكن كهوفًا لها، تنمو خلالها وتتكاثر، بأعداد تصل إلى عدة ملايين في السنتيمتر الواحد من هذا الجلد.

ومما أثبتته العلم الحديث أيضًا، ما ليد الإنسان الملوثة من دور واضح، في نقل ما تحمله من الكائنات الحية المجهرية، نحو الفم والجهاز الهضمي، وإسهامها في ظهور الأوبئة وانتشارها بين الناس، عبر المصافحة والملامسة المباشرة، التي تنقل العدوى بين مريض وآخر، ولا شك أن سنة عظيمة كغسل البراجم، تكفل في الحد من تلك الظواهر المرضية الخطيرة.

ومن الأحاديث الأخرى التي حثت على تعهد نظافة اليد، قوله ﷺ: «إِذَا نَامَ أَحَدُكُمْ وَفِي يَدِهِ رِيحٌ غَمَرٍ فَلَمْ يَغْسِلْ يَدَهُ فَأَصَابَهُ شَيْءٌ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني). (الغمَر): دَسَمٌ وَوَسَخٌ وَزُهْمَةٌ اللَّحْمُ.

وفي هذا الحديث نهي صريح عن إهمال نظافة اليد بعد الفراغ من الطعام، إذ إن بقاء رائحة الأكل في يد النائم يجذب الحشرات، مما قد يعرضه إلى لسعاتها المؤذية، كما أن بقايا الطعام في براجم اليد يوفر بيئة مناسبة لنمو الجراثيم وتكاثرها، مما يسبب الالتهاب الذي يعرض في يد المريض لاحقًا، بظهور البثور والدمامل والخراجات المختلفة.

نتف الإبط:

يترافق نمو شعر الإبط، مع زيادة نشاط الغدد العرقية، التي تنتج مواد ذات رائحة مميزة ومنفّرة، تمتزج مع سائل العرق المفرز، وبخاصة إذا تراكمت في المنطقة ذرات الأوساخ والغبار.

ووفقًا لما أثبتته الدراسات الطبية الحديثة، فإن المواظبة على نتف شعر الإبط يُضعف إفراز الغدد العرقية والدهنية، ويُضعف أيضًا نمو الشعر مع مرور الوقت، كما تخفّف عملية النتف كثيرًا مما يصدر عن الإبط من رائحة كريهة، ويحدّ كذلك من إصابته بالأمراض الجلدية، كالسَّعفة الفطرية والتهاب الغدد العرقية والتهاب الجربيات الشعرية.

وفي إزالة شعر الإبط أيضًا وقاية من نمو القمل وغيره من الحشرات المتطفلة، ومنع لتكاثرها فيه، إذ تفضّل تلك الأحياء الاستقرار في بيئة غنية بالشعر الكثيف.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة، أنّ كلّ سنتيمتر مربع من الجلد الطبيعيّ المكشوف، تنمو فيه أكثر من مليون جرثومة، وترتفع هذه النسبة وتتضاعف مرات عديدة في جلد الإبط، حيث تتكاثر الأحياء المجهرية في ثنايا الجلد هناك وتحت جذور الشعر، ولذلك فإنّ الحرص على نظافة الإبط، وإزالة ما ينمو فيه من شعر، يعدّ الخطوة الرئيسة لمكافحة نموّ الجراثيم والكائنات المجهرية الأخرى.

وتزيل عمليّة التنفّ شعَرَ الإبط من جذوره، وهي أفضل بكثير من حلاقه، إذ إنّ الحلاقة لا تضمن وحدها إزالة كلّ الكائنات المجهرية، كما هو الحال مع عمليّة التنفّ، ومن الملاحظ أنّ الشعر النامي لاحقاً بعد عمليّة التنفّ يكون رقيقاً وناعماً، على خلاف عمليّة الحلق التي تجعل الشعر قاسياً وخشناً، ومن المعروف أيضاً أنّ الحلاقة تسبّب تحريش جلد الإبط، وقد تجرّحه مسببةً له بعض الالتهابات الجلديّة.

حلق العانة:

العانة: ما ينبت من الشعر أسفل البطن، حول ذكر الرجل وقُبَل المرأة. ومن المعلوم تشريحياً، أنّ العانة منطقة قريبة ممّا يخرج من السيلين، ولذلك يسهل تلوّث ما ينبت فيها من الشعر، ببول الإنسان وغائطه، وهي منطقة غزيرة التعرّق، وغنيّة بالمفرزات الدهنيّة.

وتعيش في السنتيمتر المربع الواحد من منطقة العانة ملايين الجراثيم، ويقود إهمال إزالة شعرها، إلى تزايد أعداد تلك الكائنات الحيّة، وتجمّعها في مستعمرات ضخمة، تتراكم مع مفرزات العرق والدهون بصورة مستمرة وتدرجيّة، وليس ثمة حل ناجع كحلق العانة لإزالة تلك الأدران.

ويقي حلق شعر العانة كذلك، من الإصابة بالأمراض الطفيليّة مثل قمل العانة، الذي تسببه حشرة القمل التي تعيش في مناطق الشعر الغزير، كشعر فروة الرأس وشعر الإبط ومنطقة العانة، وتتغذى بامتصاص الدم، وتتكاثر بسرعة ملحوظة، ويمكن أن تنتقل من العانة نحو أماكن أخرى من شعر الجسم، وتظهر في الجلد المصاب بقع جلدية زرقاء، تنشأ عن عضّة الحشرة وما تفرزه من لعاب ومفرزات مخرّشة، وينتج

عن ذلك التهابات جلدية، تمتاز بحكة شديدة، وقد تنقل الحشرة أيضًا بعض الأمراض، مثل مرض الحمى الراجعة، ومرض التيفوس.

كما يقي حلق شعر العانة أيضًا، من الإصابة بداء الفطور الجلدية، ويتنشر ذلك بكثرة عند غير المسلمين، الذين يهملون حلاقة شعر عانتهم، مما يؤدي إلى ظهور التقرحات المزمنة والالتهابات الجلدية بأشكالها المختلفة.

وتوضح الدراسات التي أجريت على مرضى الجهاز البولي، أن تجمع الأنواع المختلفة من البكتيريا في منطقة العانة وما حولها، يضمن سهولة وصولها إلى مخرج البول، ومنه إلى الإحليل، مؤديًا إلى التهابه، وقد يكون الالتهاب قويًا بمكان، فيسلك طريقه نحو أجزاء الجهاز البولي الأخرى، ليصل إلى المثانة والحالب والكلية.

وتشير دراسة حديثة، إلى أن ثلث نساء الغرب يعانين من التهابات المثانة البولية المستعصية على العلاج، وذلك بسبب إهمالهنّ لنظافة منطقة العانة، وقذارة السبيلين الواضحة لديهنّ.

الاستنتاج:

إن الجرام الواحد من البراز، يحمل مئات الملايين من الجراثيم، ولنا بذلك أن نتخيل ما قد ينتج عن إهمال النظافة الشخصية في تلك المنطقة، من ضرر وأذى بالغين.

وقد أفادت الدراسات العلمية الحديثة، أن الحرص على نظافة السبيلين عامل هام في وقاية الجسم من حدوث سرطان الأعضاء التناسلية، ولهذا تقل أعداد المصابين بهذا الداء بين صفوف المسلمين، لحرصهم على تقصي النظافة بغسل القُبُل الدبر.

ويؤدي أيضًا عدم إزالة آثار البول وبقائه في الأنسجة المجاورة، إلى حدوث مشكلات بولية عديدة، فهو وسط ملائم لنمو الجراثيم وتكاثر الأحياء الدقيقة الأخرى، المسببة لأمراض الجهاز البولي والتناسلي، كالتهاب المثانة وغدة البروستات والقنوات المنوية والبربخ والخصية، وقد ينتج عن ذلك ظهور العقم عند الرجال.

الختان:

ختن الصبي خِتَانًا: أي قطع قلفته، وهي الجلد التي تغطي الحشفة (رأس الذكر)، ويقطعها الختان من ذكر الصبي، والختان من محاسن الشرائع والفطرة التي سنّها الله تعالى لعباده، وكَمَّلَ بها محاسنهم الظاهرة والباطنة.

وقد دعا الإسلام إلى الختان دعوة صريحة وجعله على رأس خصال الفطرة البشرية، والأصل في مشروعية الختان قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ، وَالْإِسْتِحْدَادُ، وَتَنْفُ الْإِبْطِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ» (رواهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وقال ﷺ: «إِذَا تَقَى الْخِتَانَانِ وَجَبَ الْغُسْلُ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وابن ماجه وصححه الألباني).

وقد أثبت الطب الحديث ما للختان من فوائد جليلة، إذ يؤدي العزوف عنه إلى بقاء جلد القلفة فوق رأس القضيب، وهو مكان قدر يزدهر فيه نمو البكتريا والفطور، ويزيد في ذلك مرور سائل البول، وتظهر حينها ترسبات تظهر في صورة مادة بيضاء، تخرج خلالها الكائنات الحية الدقيقة، مع المفرزات الدهنية والعرقية، وما يتساقط من خلايا وأنسجة بصورة دائمة.

وكثيراً ما يحدث أن تدخل تلك المواد المؤذية عبر فتحة الإحليل، وتنتشر نحو المثانة والكلية مسببة الالتهابات البولية، وقد تصل إلى غدة البروستات والخصية والبربخ، وربما سبب ذلك الالتهابات الجنسية، التي تنتهي بالإصابة بالعقم وغيره من المضاعفات.

ويعدّ الختان أيضاً، عامل الوقاية الأكبر من حدوث سرطان القضيب، الذي ينتشر في الدول التي لا تختن مواليدها الذكور، كما هو الحال في الصين مثلاً، وفي ذلك يقول الدكتور "Dillner" وهو أحد المهتمين بأبحاث الختان في معهد الأورام في ستوكهولم، معلّقاً على هذه المسألة: «تقلّل عملية الختان التي تجرى على المواليد، من نسبة إصابة القضيب بسرطان الخلايا الحرشفية».

وأيدت ذلك دراسة الدكتور "روبسون Robison"، فقال: «أكثر من ستين ألف حالة أصيبت بسرطان القضيب في أمريكا، ومن المدهش حقاً أن عشرة أشخاص فقط من هؤلاء كانوا مختونين».

وجاءت نتائج دراسات أخرى، فأوضحت قلة حالات سرطان غدة البروستات، وسرطان الخصية والبربخ، لدى ذكور المسلمين، نتيجة التزامهم بعملية الختان، ولبعدهم عن ارتكاب المحرمات كالشذوذ الجنسي والزنى.

ومن الملاحظ أيضاً كثرة الإصابة بالتهابات المجاري البولية، لدى غير المختونين، وتنصّ أبحاث أجريت على نصف مليون طفل أمريكي، على أن نسبة الالتهابات هذه، وصلت إلى ثلاثة وتسعين ضعفاً عند غير المختونين، وتنصّ دراسة أخرى على أن الختان في أمريكا، يمنع حدوث عشرين ألف حالة من داء التهاب الكلية عند الأطفال سنوياً.

وتنتشر الأمراض الجنسية بصورة أوضح، بين صفوف غير المختونين، مثل داء الهربس والزهري والالتهابات الفطرية والسيلان والثؤلول الجنسي وداء نقص المناعة المعروف بالإيدز، وقد جاءت نتائج أكثر من ستين دراسة علمية لتثبت صحة ذلك.

وقد شجعت نتائج هذه الدراسات والأبحاث العلمية، الغرب على إعادة حساباته، ومراجعة مواقفه السابقة المعادية لسنة الختان، فظهر الاهتمام بها جلياً، وأخذ بعضهم يقترب بذلك خطوة من الفطرة، ويجري عملية الختان لنفسه رغم كبر سنّه.

وفي ذلك يقول أحد علماء الغرب: «لقد تراجعْتُ عن عدائي الطويل للختان، ووصفتُ مرحباً بقرار جمعية الأطباء في كاليفورنيا، بالإجماع على أن ختان الوليد وسيلة صحية فعّالة، وتشير الحقائق إلى أن ١٥٪ من الأطفال الذكور غير المختونين سوف يحتاجون إلى إجراء الختان في سنّ متقدّمة من العمر، بسبب حدوث تضيق في القلفة أو التهاب الحشفة المتكرّر».

وأصدرت الأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال، إرشادات وتوجيهات، أعلنت فيها بصريح العبارة، ضرورة إجراء الختان على نحو منتظم على جميع المواليد من

الذكور، فوصل العدد إلى أكثر من مليون طفل يتمّ ختانهم سنوياً في الولايات المتحدة الأمريكية.

ومّا يضاف إلى القائمة الطويلة التي تنتج عن إهمال الختان، ما ثبت من معلومات حول نقل الرجل الغير مختون، ما يصيبه من الالتهابات المختلفة إلى جسم زوجته، ومّا يكثر حدوثه هنا في جسم المرأة: التهابات المهبل، والغدد التناسلية، وعنق الرحم، والمبيض، وقد يقود ذلك إلى الإصابة بالعقم الدائم، كما ثبت حديثاً أنّ إهمال الختان عامل هامّ في إصابة المرأة بسرطان عنق الرحم، وهو أقلّ حدوثاً لدى زوجات الذكور المختونين.

ختان الإناث رؤية طبية:

ختان الإناث الشرعي هو قطع أدنى جزء من جلدة في أعلى الفرج. وقد كان موجوداً في عهد الرسول ﷺ وقبله. عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ الْأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَتْ امْرَأَةٌ تَخْتَنُ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا خَفَضْتَ فَأَشْمِي وَلَا تُنْهَكِي؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْطَى لِلْمَرْأَةِ وَأَحَبُّ إِلَى الْبُعْلِ» (رواه أبو داود، وحسنه الألباني). وفي رواية: «فَإِنَّهُ أَنْضَرُ لِلْوَجْهِ وَأَحْطَى عِنْدَ الزَّوْجِ» (رواه الحاكم، وصححه الألباني).

هذا الحديث يبين كيفية الختان الشرعي عملياً. وَيُسَمَّى خِتَانُ الرَّجُلِ إِعْذَارًا، وَخِتَانُ الْمَرْأَةِ خَفْضًا. (فَأَشْمِي وَلَا تُنْهَكِي): أَي: لَا تُبَالِغِي فِي الْقَطْعِ. (أَحْطَى لِلْمَرْأَةِ) أَي: أَنْفَعُ لَهَا وَالْأَذَى. (وَأَحَبُّ إِلَى الْبُعْلِ) أَي: أَحَبُّ إِلَى الزَّوْجِ.

واختلف أهل العلم في الختان بين الوجوب والسُّنَّة على ثلاثة أقوال:

- القول الأول: الختان واجب على الذكر والأنثى.
- القول الثاني: الختان سنة للذكر والأنثى.
- القول الثالث: الختان واجب على الذكر ومكرمة للأنثى.

وقد رجح الدكتور محمد مختار الشنقيطي في كتابه (أحكام الجراحة الطبية) المساواة بين الذكر والأنثى في الحكم الشرعي للختان لأن الأدلة على مشروعيته مشتركة.

جاء في كتاب (العادات التي تؤثر على صحة النساء والأطفال) الذي صدر عن منظمة الصحة العالمية في عام ١٩٧٩م ما يأتي: «إن انخفاض الأصلي للإناث هو استئصال لقلفة البظر وشبيهه بختان الذكور ويعرف بالسنة ... وهذا النوع لم تذكر له أي آثار ضارة علي الصحة».

كما أنه في بعض الأحيان يمارس في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأخرى لمعالجة عدم حدوث هزة الارتواء الجنسي عند المرأة في حالة زيادة حجم قلفة البظر أو ضيقها أو وجود التصاقات.

إن جراحة الختان من العمليات الجراحية القديمة والتي لا تزال تُجرى إلى الآن، وتعد من فروع العمليات الصغرى، وكانت تجرى في كل أنحاء العالم على درجات متفاوتة ولأسباب مختلفة في كل مراحل عمر الأنثى.

وهي بالنسبة لنا في عالمنا الإسلامي تعتبر قبل كل شيء امتثالاً للشرع لما فيها من إصابة الفطرة والاهتداء بالسنة التي حضت على فعلها دون فرق بين الرجال والنساء، وكلنا يعرف أبعاد شرعنا الحنيف وأن كل ما شرع لنا لا بد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته في جميع النواحي ومن بينها الناحية الصحية، وإن لم تظهر فائدته في الحال فسوف تُعرف في الأيام القادمة كما حدث بالنسبة لختان الذكور وعرف العالم بأجمعه فوائده وصار شائعاً في جميع الأمم بالرغم من معارضة بعض الطوائف له.

الأسباب الطبية لجراحة الختان:

أسباب عضوية:

- حجم القلفة وزيادة طولها.
- وجود التهابات بينها وبين البظر مما يؤدي إلى شدة حساسية البظر والألم عند لمسه.
- تراكم اللخن (التَّنُّ) مما يزيد من تكاثر البكتيريا والتهابات الجهاز البولي الصاعد.

● الالتصاقات التي تحدث نتيجة لهذه الالتهابات، والتي تؤدي إلى قفل المجرى البولي والتناسلي خاصة في الأطفال قبل سن البلوغ وفي مرحلة الكبر (نسبة لقلة هرمون الإستروجين).

أسباب جنسية:

● قلة الارتواء الجنسي نسبة لضيق القلفة أو كبر حجمها وبعد البظر إلى داخل الجسم.

● شدة الشبق الجنسي نتيجة للالتصاقات والحكة وكثرة الانشغال بالمنطقة وملاستها.

أسباب نفسية:

● البرود الجنسي، المستريا، التبول اللاإرادي، بعض حالات الاكتئاب النفسي، حالة اللنفومينيا (الهوس الجنسي).

موانع ختان الإناث ومضاعفاته:

إن ختان الإناث الذي شرعه الإسلام عملية جراحية بسيطة ومأمونة إذا أجريت من قبل طيبة وكانت الأدوات معقمة. ومضاعفاته نادرة جدًا ولا تتعدى مضاعفات العمليات البسيطة الأخرى كحدوث نزيف بسيط أو التهابات خفيفة. ولا بد من الكشف الطبي على الطفلة قبل القيام بإجراء الختان.

إن أهم موانع ختان الإناث تتطابق مع تلك التي تخص الذكور. وهي عدم وجود القلفة عند بعض الإناث والتشوهات الخلقية للجهاز التناسلي ووجود بعض أمراض نزف الدم، أو أن يكون الطفل مريضًا وغير مستقر صحيًا، ومن أهم موانع الختان عدم وجود الكادر المؤهل للقيام بهذه العملية، وفي هذه الحالة يُنصح بتأجيل الختان إلى وقت لاحق توجد فيه الكوادر المؤهلة.

فوائد ختان الإناث:

في ختان الإناث تُزال تلك الزائدة التي تمنع وصول المياه إلى الداخل فيصعب نقاء دماء الحيض والبول مما يؤدي إلى روائح كريهة.

إن ختان الأنثى أو خفضها الذي ورد في السنة له محاسن كثيرة منها:

- ذهاب الغلظة والشبق (وتعني شدة الشهوة والانشغال بها والإفراط فيها)، وذهابهما يعني تعديل الشهوة عند المختونين من الرجال والنساء.
- منع الروائح الكريهة الناتجة عن تراكم اللخن تحت القلفة.
- انخفاض معدل التهابات المجاري البولية.
- انخفاض معدل التهابات المجاري التناسلية.

فوائد الختان الشرعي هي:

- تثبيت شرع الله وسنة المصطفى ﷺ.
- الطهارة والنظافة التي تؤدي إلى انخفاض في معدل الالتهابات البولية والتناسلية.
- تحسين الخلق حتى يكون الخلق على الفطرة الحنيفية.
- تعديل الشهوة.
- مراعاة النواحي الاجتماعية والنفسية الناتجة عن التخلي المطلق عن الختان وذلك بتثبيت البديل الصحي الذي ينشط محاربة العادة غير الشرعية والضارة.
- إعلاء شعيرة العبادة لا العادة.

الإعجاز التشريعي في تحريم لحم الخنزير

جاء تحريم لحم الخنزير في أربعة مواضع في القرآن العظيم:

١ - قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

٢ - قَالَ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣).

٣ - قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٤٥).

٤ - قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: ١١٥).

إن لحم الخنزير ينفرد من بين جميع اللحوم المذكورة في آيات التحريم بأنه حرام لذاته، أي لعله مستقرة فيه، أو وصف لاصق به، أما اللحوم الأخرى فهي محرمة لعله عارضة عليها، فالشاة مثلاً إذا ذكيت فلهما حلال طيب ولا تحرم إلا إذا كانت ميتة أو ذبحت لغير الله.

والمؤمن يلتزم حين يأتيه الأمر أو النهي من الله، ويمكن أن نجتهد في تفهم علة الأمر والنهي، لكن تحريم لحم الخنزير بالذات تحريم معلل ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ فاجتهدنا

محصور إذن في محاولة فهمنا لحُبث ذلك المحرم ورجاسته حتى نزداد شكرًا لله على نعمائه.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة دالةً على تحريم بيع لحم الخنزير، ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخُمْرِ، وَالْمَيْتَةِ، وَالْخِنْزِيرِ، وَالْأَصْنَامِ» (رواه البخاري ومسلم).

وأجمع العلماء على تحريم لحم الخنزير، ولم يجعلوا التحريم مقصوراً على اللحم بل أفتوا بتحريم كل أجزائه، فالآيات القرآنية نصت على تحريم لحمه على جهة القطع، أما بقية أجزائه فلا عنهم عدوا الخنزير من النجاسات والخبائث، وقد نصَّ الله تعالى في كتابه الكريم على تحريم الخبائث، والخنزير من جملة الخبائث، ومن نقل الإجماع على تحريم كل أجزائه الإمام النووي حيث قال: «وقد أجمع المسلمون على تحريم شحمه ودمه وسائر أجزائه»^(١).

ولكن ماذا نعرف عن الخنزير؟

الخنزير حيوان لاحم عشبي تجتمع فيه الصفات السبعية والبهيمية، فهو آكل لكل شيء، فيأكل القمامات والفضلات والنجاسات بشراهة ونهم، وهو مفترس يأكل الجرد والفئران وغيرها كما يأكل الجيف حتى جيف أقرانه.

والخنزير من الحيوانات السريعة النمو إذ تضع الخنزيرة ما بين عشرة إلى عشرين خنوصاً، وينمو الخنزير من أقل من كيلوجرامين عند الولادة إلى أكثر من مائة كيلوجرام خلال مائتي يوم. وسبب هذا النمو السريع زيادة كبيرة في هرمونات النمو، والهرمونات المنمية للغدد التناسلية، وهذا الأمر له علاقة بارتباط لحم الخنزير وشحمه بأنواع السرطان التي تزداد لدى آكلي لحم الخنزير وشحمه، ويوجد الدهن متداخلاً مع خلايا

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي (١٣ / ٩٦).

لحم الخنزير بكميات كبيرة خلافاً لبقية أنواع اللحوم مثل البقر والغنم والماعز والدجاج والتي يوجد فيها الدهن بشكل نسيج دهني شبه مستقل.

الأمراض التي ينقلها الخنزير للإنسان:

يبلغ عدد الأمراض التي تصيب الخنزير (٤٥٠) مرضاً، منها (٥٧) مرضاً طفيلياً، تنتقل منه إلى الإنسان، بعضها خطير بل وقاتل، ويختص الخنزير بمفرده بنقل (٢٧) مرضاً وبائياً إلى الإنسان.

وتشاركه بعض الحيوانات الأخرى في نقل بقية الأمراض، لكنه يبقى المخزن والمصدر الرئيسي لهذه الأمراض، هذا عدا الأمراض الكثيرة التي يسببها أكل لحمه كتليف الكبد، وتصلب الشرايين، وضعف الذاكرة، والعقم، والتهاب المفاصل، والسرطانات المختلفة، وغيرها كثير. ونحن على يقين بأن عدد الأمراض سيزداد مع مرور الأيام، وأن السنوات القادمة ستكشف أمراضاً جديدة تنتقل من الخنزير إلى الإنسان.

وهذه الأوبئة يمكن أن تنتقل من الخنزير إلى الإنسان بطرق مختلفة:

الأول: عن طريق مخالطته أثناء تربيته أو التعامل مع منتجاته (وتعتبر أمراضاً مهنية)، وهي لا تقل عن ٣٢ وباءً تصيب في الأغلب عمال الزرائب والمجازر والبيطريين، ومنها: أنواع من الفطور العميقة، والزحار، والديدان، والزحار الزقي، والحمى اليابانية الدماغية، والتهاب الفم البشري الساري.

الثاني: عن طريق تلوث الطعام والشراب بفضلاته، وهي لا تقل عن ٢٨ مرضاً منها: الزحار، والأسكاريس، والانسمام الوشيقي، والديدان القنفذية والكبدية والمفلطحة وشوكية الرأس، والدودة المسلحة الخنزيرية والشعيرات الحلزونية وغيرها.

الثالث: عن طريق تناول لحمه ومنتجاته، وهي أكثر من ١٦ مرضاً منها داء المبيضات - داء الحويصلات الخنزيرية، الحمى المالطية - والدودة الكبدية، وداء وايل، والدودة الشعرية الحلزونية والشريطية والسل وغيرها.

ومما سبق يتضح أن الخطورة ليست قاصرة على تناول لحم الخنزير فقط، بل هي تشمل كل أنواع التعامل مع هذا الكائن الخبيث، وقد سبقت الإشارة في الحديث النبوي السابق إلى حظر التعامل مع لحم الخنزير أو دمه، وهذا يؤكد ما ذهب إليه العالم (كرول) من أن الحظر المفروض على المسلمين بعدم ملاسة الخنازير ليس بحاجة إلى تبرير^(١٢).

ومن هذه الأمراض التي تنتقل من الخنزير إلى الإنسان:

أولاً: البريونات:

١- مرض جنون البقر:

يسبب هذا المرضُ الفتاك أجساماً بروتينية صغيرة تسمى البريونات، وهذه الأجسام لها قدرة على إحداث أمراض خطيرة للحيوانات وللبشر أيضاً، ومصدر الخطورة يكمن في قدرة البريونات على تغيير شكل البروتينات الطبيعية الموجودة في خلايا مناطق حساسة - كالدمغ مثلاً - وتحويلها إلى بريونات، مسببة تلف الدماغ، فالجنون ثم الموت. ولقد أكدت التقارير العلمية أن الخنازير تصاب بهذا المرض، مما يجعل آكلي لحم الخنزير عرضة للإصابة بهذا المرض.

ثانياً: الفيروسات:

يصيب الخنزير مجموعة كبيرة من الفيروسات، منها ما تنقله الخنازير إلى الإنسان، فيسبب له أمراضاً فيروسية خطيرة، مثل:

٢- فيروس الأنفلونزا:

لقد تمّ عزل فيروس الأنفلونزا من عينات أخذت من الإنسان والخنزير والطيور الداجنة والبرية، وحتى من بعض الثدييات البحرية.

وكان أخطر وباء أصاب العالم من هذه الأنفلونزا: الوباء الذي حدث عام ١٩١٨م، وأطلق عليه آنذاك اسم "الأنفلونزا الأسبانية". فقد تفشى هذا الوباء في شتى أنحاء المعمورة، مخلفاً وراءه ملايين الجثث، وناشراً الذعر والهلع في كل مكان.

ويؤكد بعض الباحثين، بأنّ الفيروس المسبب لهذا الوباء المهلك تحوّر عن فيروس أنفلونزا الخنازير في الولايات المتحدة.

٣ - فيروس نيبا:

لم يعرف العالم هذا الفيروس المميت قبل شهر أكتوبر من عام ١٩٩٨م، فقد عالج الأطباء في ماليزيا ٣٠٠ إصابة بما يشبه أعراض الأنفلونزا، سرعان ما توفي ١١٧ مريضاً منهم بفيروس "نيبا" الغامض، وأصيب العشرات منهم بتلف دماغي. ويعتقد الأطباء الماليزيون أنّ الفيروس الخطير ربما انتقل من خفاش الفواكه إلى الخنازير، ومنها إلى الإنسان، حيث أظهرت المتابعات الطبية أنّ جميع المصابين بالمرض كانت تربطهم علاقة قوية بالخنازير، مما حدا بالدوائر الصحية في ماليزيا إلى قتل مليون خنزير.

٤ - فيروس الحمى القلاعية:

فيما يبدو ليس من سبيل إلى وضع حد لوباء الحمى القلاعية التي أهلكت الثروة الحيوانية البريطانية في بداية عام ٢٠٠١م، فبعد أيام قليلة من تشخيص الأطباء البيطريين ٢٧ إصابة بين خنازير أحد المسالخ الريفية، فرضت الحكومة حظراً على كافة عمليات نقل الحيوانات، لكن هذا الإجراء لم يحلّ دون انتشار المرض خارج بريطانيا، فسرعان ما انتشر الوباء في القارة الأوروبية، ولم يجد البريطانيون مناصاً من القيام بحملة واسعة النطاق للقضاء على الخنازير المصابة، ذهب ضحيتها ٣,٧٥ مليون من حيوانات المزارع.

يذكر أنّ مرض الحمى القلاعية انتشر عام ١٩٩٧م في جزيرة تايوان برمتها، في أقلّ من شهرين وطالت آثاره المدمرة ٦٠٠٠ مزرعة، وأسفر عن ذبح ٣,٨ مليون خنزير، ومن المعروف علمياً أنّ المرض ينتقل من الخنازير إلى الإنسان.

٥ - فيروس التهاب الدماغ الياباني: ينتشر هذا الفيروس بين مربّي الخنازير في

مناطق شرق آسيا، وهو يصيب الطيور، وينتقل منها بواسطة البعوض إلى الخنازير، التي بدورها تنقله إلى الإنسان. ويسبب هذا الفيروس التهاب الدماغ في الإنسان، الذي يكون مميتاً في بعض الأحيان.

٦- فيروس الخنزير التفرحي:

سُجِّل أول ظهور لهذا الفيروس عام ١٩٦٦م في إيطاليا، ليظهر بشكل وبائي في بريطانيا عام ١٩٧٢م، حيث أصاب خلال السنوات العشر التالية أكثر من ٣٢٢ ألف خنزير في بريطانيا وحدها. ينتقل هذا الفيروس من الخنازير إلى البشر عن طريق المخالطة، حيث يسبب حمى وآلامًا في المفاصل والعضلات، يذكر أن الخنزير هو العائل الطبيعي الوحيد لهذا الفيروس.

٧- فيروس التهاب الدماغ والقلب:

تعتبر الجرذان مستودع هذا الفيروس الخطير، كما تعتبر الخنازير أكثر حيوانات الحظيرة إصابة بالمرض، وعادة ما تنتقل العدوى من الجرذان إلى الخنازير. يسبب هذا الفيروس التهاب الدماغ والقلب، مما قد يؤدي بحياة الممرض.

ثالثًا: البكتيريا:

يصيب الخنزير مجموعة كبيرة من البكتيريا، حيث تنتقل منه إلى الإنسان، مسببة له أمراضًا خطيرة، بل وقاتلة. ومن أهم الأنواع الممرضة التي للخنزير علاقة بنقلها إلى الإنسان:

٨- بكتيريا الحمى المالطية:

تسبب مرض الحمى المالطية ثلاثة أنواع من البكتيريا، وهي تصيب الماشية والخنزير، حيث تنتقل منها إلى الإنسان. لكن أخطر الثلاثة هو النوع الذي يصيب الخنازير، إذ إنه يسبب للمصابين به من بني البشر التهاب السحايا، والتهاب عضلة القلب، والتهاب المفاصل، وتورم الطحال، وغير ذلك من الأمراض الخطيرة.

٩- بكتيريا السالمونيلا:

تسبب هذه البكتيريا للإنسان عدة أمراض، مثل:

التيفوئيد وبارا التيفوئيد والتسمم الغذائي.

١٠- بكتيريا لستيريا:

تسبب هذه البكتيريا مرض التهاب السحايا الدماغية، وموت الأجنة، وتسمم الدم، وهذه الجراثيم شديدة الفتك بالإنسان، إذ تسبب له

التهاب السحايا، كما تفرز سموماً في دم المصاب، كما تبلغ نسبة الوفاة بالمرض ٤٠٪ من الحالات الشديدة. والذين أصيبوا بهذا المرض ونجوا من الموت بعد علاج شاق، عانوا الصمم الدائم وفقدان التوازن.

١١- بكتيريا الحمرة الخبيثة:

تنتقل بكتيريا الحمرة الخنزيرية الخبيثة من الخنزير إلى اللحامين والدباغين، وتكون بشكل لوحة محمرة مؤلمة جداً، وحارقة على الأيدي مع ارتفاع الحرارة والقشعريرة، والتهاب العقد والأوعية اللمفاوية.

١٢- بكتيريا يرسينيا:

يصيب الإنسان نوعان من بكتيريا يرسينيا هما: النوع الأول يسبب في الأطفال الإسهالات المصحوبة بالدم والمخاط. أما النوع الثاني فيسبب أحياناً تسمم الدم والتهاب المفاصل، كما يسبب أيضاً ألماً معوياً يشبه إلى حد كبير التهاب الزائدة الدودية، الأمر الذي قد يلتبس على الأطباء فيخطئون التشخيص.

ويعتبر الخنزير أكثر الحيوانات نقلاً لنوعي يرسينيا للإنسان، حيث يصاب المتعاملون بلحوم الخنازير وأكلوها بنوعي بكتيريا يرسينيا.

رابعاً: الأوليات/ وحيدة الخلية:

ينقل الخنزير للإنسان مجموعة من الكائنات الأولية، بعضها يحدث اضطرابات خفيفة له، والبعض الآخر يسبب أمراضاً خطيرة ومميتة. ومن أبرز الأمراض التي تسببها هذه الأوليات، ودور الخنزير في نقلها إلى الإنسان:

١٣- الزحار البلتيدي/ الزقي:

الطفيلي المسبب لهذا المرض هو نوع من الأوليات الهدبية (لها أهداب)، وهو أكبر الأوليات التي تصيب الإنسان، وهو النوع الوحيد من الأوليات الهدبية التي تصيب الإنسان، كما أنه من طفيليات الأمعاء الغليظة (القولون) في الخنازير والقردة وبخاصة الشمبانزي، ولأن فرص اتصال الإنسان بالقردة ضئيلة، فتبقى الخنازير من الناحية العملية المصدر الوحيد لعدوى الإنسان. ويوجد هذا الميكروب في براز الخنزير

ويتنقل إلى طعام الإنسان بطرق عديدة، ليستقر في الأمعاء الغليظة، فيُحدث إسهالاً مصحوباً بالمخاط والدم، قد يؤدي للوفاة. وعادة لا ينتشر الزحار البلتيدي إلا بين مربي الخنازير أو المتعاملين معها (ذبحها ونقلها وتجارتها)، فتتلوث أيديهم بحوصلات الطفيلي المعدية.

١٤- داء النوم الإفريقي:

تنقل الطفيلي المسبب لهذا الداء الفتاك ذبابة التسي - تسي بطريق الحقن، وذلك عندما تلدغ الإنسان. ويسبب الطفيلي اضطراباً دماغياً، لا يلبث أن يتطور إلى مرض النوم، وفي حال إهمال معالجة المريض فإنه يدخل في غيبوبة ويموت، وللخنزير دور كبير في نقل هذا المرض.

١٥- مرض شاغاس:

هذا المرض أشد خطورة من النوع الأفريقي، والطفيلي المسبب له أشد فتكاً. ينتشر هذا المرض في أمريكا الجنوبية والوسطى، وأعراضه مشابهة لأعراض داء النوم الإفريقي، لكنه أكثر شراسة منه.

خامساً: الديدان المفلطحة:

ينقل الخنزير للإنسان عدداً من الديدان المفلطحة، غالبيتها يسبب له اضطرابات خطيرة. وأهم الديدان التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان هي:

١٦- البلهارسيا اليابانية:

تصيب البلهارسيا أكثر من ٢٠٠ مليون نسمة، ويموت بسببها قرابة المليون شخص سنوياً. وتعيش هذه الدودة في الأوعية الدموية المعوية، حيث تضع بيوضاً تحترق هذه الأوعية الدموية، لتخرج إلى البيئة الخارجية، وتعيش هذه الديدان في جسم الإنسان مدة تصل إلى ٣٠ سنة، وتُحدث دماراً شديداً يؤدي أحياناً إلى الموت. ويصاب الخنزير بديدان البلهارسيا اليابانية والتي تنزل بويضاتها مع برازه، ومنه تنتقل للإنسان في كثير من بلدان العالم.

١٧- الدودة المتوارقة البسكية:

وهي من الديدان المعوية-الكبدية، والخنزير هو العائل الرئيس لنشر العدوى، وتعيش الديدان البالغة في الأمعاء مُحْدَثَةً التهابات موضعية ونزيفاً وتقرحات في جذر المعى الدقيق، وتتسبب في حدوث إسهال مزمن وفقر دم وقد تحدث استسقاء البطن مؤدية إلى الوفاة.

١٨- الدودة الكبدية الصينية:

تنتشر الدودة الكبدية الصينية في بلدان الشرق الأقصى كاليابان والصين، والخنزير العائل الرئيسي لها، تعيش هذه الديدان في القنوات الصفراوية الكبدية، حيث تتكاثر بأعداد كبيرة، وإذا ما كثرت أعدادها عند المصاب، أحدثت تضخماً في الكبد وإسهالاً مزمناً ويرقاناً شديداً ينتهي بالوفاة.

سادساً: الديدان الشريطية:

ينقل الخنزير للإنسان أنواعاً متعددة من الديدان الشريطية، بعضها بالغ الخطورة على حياته، والبعض الآخر يسبب له اضطرابات تتراوح ما بين الخفيفة والشديدة. وأهم الديدان الشريطية التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان هي:

١٩- الدودة الشريطية المسلحة/ تينيا سولي:

والمشهورة أيضاً بالدودة الوحيدة. يعيش طورها البالغ في أمعاء الإنسان، ويبلغ طولها من ٢-٣ أمتار، لها رأس أصغر من الدبوس مزود بأربع ممصات ويطوق قمته طوق من الأشواك، يلي الرأس عنق قصير ينمو منه باستمرار قطع أو أسلات صغيرة تنمو كلما بعدت عن الرأس مكونة شريطاً يحتوي أكثر من ١٠٠٠ قطعة، وتنفصل الأسلات الناضجة الممتلئة بآلاف البيوض، لتخرج مع براز المصاب، حيث تعيش في التربة الرطبة زمناً طويلاً إلى أن يأتي خنزير فيلتهمها وما فيها من بيوض.

وتعمل عصارات أمعاء الخنزير الهاضمة على حل هذه البيوض لتتطلق منها الأجنة، فتخترق جدار الأمعاء، لتسبح مع الدورة الدموية إلى كل أنحاء الجسم. وتستقر الأجنة في عضلات الخنزير مكونة حويصلات بطول ٦-١٨ ملم، في كل منها يرقانة لها

رأس صالح لكي يكوّن دودة جديدة. فإذا ما تناول الإنسان من اللحم المصاب دون أن ينضجه تمامًا لقتل ما فيه من اليرقات، فإنها تنطلق من الحويصلات في أمعائه لتخرق جدارها، وتدخل إلى دورته الدموية، لتستقر بعد ذلك في العضلات أو الرئتين أو الكبد أو القلب أو العيون أو الدماغ.

إنّ نمو هذه الحويصلات في المخ يؤدي إلى الإصابة بحالات من الصرع، وإلى شلل عضوي جزئي، مع دوار واضطرابات عصبية حسية. كما ينطلق منها إلى الدم ذيفانات سامة، قد تؤدي إلى الموت، ولا يعرف لهذا المرض علاج ناجع حتى يومنا هذا، ويعتبر الخنزير المصدر الوحيد لعدوى البشر.

٢٠- الدودة الشريطية العوساء العريضة:

يصاب الإنسان بالطور البالغ لهذه الدودة، التي تعتبر واحدة من الديدان المعوية، ويبلغ طول الدودة البالغة ١٠ أمتار، وتستطيع أن تضع عددا هائلاً من البيوض، يصل إلى مليون بويضة كل يوم.

٢١- الدودة شوكية الرأس:

هذا النوع من الديدان شائع في الخنزير، ولكنه أيضا يصيب الإنسان، فقد اكتشف بين فلاحي وادي الفولجا في جنوبي روسيا.

سابعاً: الديدان الخيطية أو الاسطوانية:

الديدان الخيطية أو الاسطوانية التي ينقلها الخنزير للإنسان متعددة الأنواع، ومتفاوتة الخطورة، لكنها جميعاً لا تخلو من إشكالات صحية تسببها للعائل. أما أهم هذه الديدان التي يرتبط نقلها إلى الإنسان بأكل لحوم الخنازير أو التعايش معها فهي على النحو التالي:

٢٢ - الدودة الشعرية الحلزونية/ ترايكنيلا:

تعيش الديدان البالغة في أمعاء الإنسان والخنزير، وهي ديدان قصيرة يتراوح طولها بين ٢-٤ ملم. تتغلغل الإناث المثقلة بالبيوض بين الزغابات المعوية لتضع اليرقات هناك، فهي لا تضع بيضاً. تحترق اليرقات جدر الأمعاء إلى الدم وتطوف معه

لتنسحق في عضلات العائل، حيث تنمو إلى ١ ملم، ثم تلتف على نفسها وتتحصل. تظل اليرقات المكيسة داخل العضلات حية لمدة تصل إلى ٢٥ سنة في الإنسان، و ١١ سنة في الخنزير. وعندما يأكل إنسان لحم الخنزير المصاب، فإن الحويصلات تنحل في أمعائه، لتنطلق منها أجنة سرعان ما تتطور في أمعائه إلى الديدان البالغة.

والدودة الشعرية البالغة ليست مصدر الخطر الحقيقي على صحة الإنسان، بل اليرقات هي الخطر الداهم. فبعد التزاوج تموت الذكور، وتبقى الإناث الملقحة في جدران الأمعاء لتضع يرقاتها بعد أسبوع واحد. ولا تلبث هذه اليرقات وقتاً طويلاً قبل أن تحترق جدر الأمعاء، لتسير مع الدم إلى جميع أجزاء بدن الإنسان، حيث تستقر في عضلات الحجاب الحاجز والحنجرة واللسان والعين والقلب، محدثة الجنون أو الشلل أو العمى أو الاختناق أو الذبحة القلبية.

٢٢- ثعبان البطن الخنزيري:

تعيش الديدان البالغة في أمعاء الخنزير، حيث تضع بيوضها، التي تخرج مع البراز إلى البيئة الخارجية. وإذا ما دخلت هذه البيوض جسم شخص ما (بطريق مخالطة الخنازير)، فإنها تفقس وتخرج منها يرقات تحترق جدار الأمعاء، ثم تسير محمولة مع الدم حتى تصل الرئتين، فتثقب الأوعية الدموية وتموت داخل الرئتين، مسببة الالتهاب الرئوي الإسكاريسي الذي يعتبر من الأمراض القاتلة.

ثامناً: أمراض جسمية غير طفيلية:

يحتوي لحم الخنزير على أنواع عديدة من المركبات الكيميائية الضارة، التي لا تتناسب ولا تنسجم مع مركبات جسم الإنسان، وبالتالي فهي تسبب له أمراضاً وعللاً متنوعة، تزداد وطأتها كلما تزايد استهلاك الشخص للحوم ومنتجات الخنزير. ومن هذه الأمراض:

٢٣- السرطانات:

يحتوي جسم الخنزير على كميات كبيرة من هرمون النمو والهرمونات المنمية للغدد التناسلية، لذا تزداد الإصابة بالسرطان لدى آكلي لحم الخنزير. فقد بينت

الدراسات وجود علاقة قوية بين استهلاك لحم الخنزير وسرطان الأمعاء الغليظة والمستقيم، وسرطان البروستاتا، وسرطان الثدي، وسرطان البنكرياس، وسرطان عنق الرحم وبطانة الرحم، وسرطان المرارة، وسرطان الكبد.

٢٤- السمنة وأمراض الشرايين والقلب:

يوجد الدهن متداخلاً مع خلايا لحم الخنزير بكميات كبيرة، خلافاً للحوم البقر والغنم والدجاج، والتي يكون فيها الدهن على شكل نسيج دهني شبه مفصول عن النسيج العضلي. وبالإضافة إلى ذلك فإن دهون الخنزير ترتبط بالمواد المخاطية النشوية، مما يجعل إزالتها من الجسم أمراً عسير، ذلك لأن الدهون الجليسيريديّة الثلاثية للحيوانات آكلة العشب، تحتوي على حمض دهني غير مشبع على ذرة الجلسرول الثانية، وإنزيمات الإنسان الدهنية قادرة على هضمها بسهولة.

أما الدهون الجليسيريديّة الثلاثية في الخنزير وفي آكلة اللحوم، فتحتوي على حمض دهني مشبع على ذرة الجلسرول الثانية، فلا تقدر إنزيمات الإنسان الدهنية على هضمها، ويسبب دهن الخنزير مجموعة من الأمراض نحو تصلب الشرايين، الذبحة الصدرية، جلطات القلب، ضغط الدم، سكري البول، وحصوات المرارة، وما يتبع ذلك من تعقيدات مرضية خطيرة، وبذلك ترسب في جسم آكلها من البشر، محدثةً أضراراً بليغة.

٢٥- التهاب المفاصل:

يحتوي لحم الخنزير على كميات كبيرة من حامض البولييك، ذلك لأن جسمه لا يتخلص إلا من قدر يسير من حامض البولييك، لا يتعدى ٣٪، بينما يتخلص الإنسان من ٩٠٪ من نفس الحامض، ونظراً لهذه النسبة العالية من حامض البولييك؛ فإن آكلي لحم الخنزير يشكون عادة من آلام روماتيزمية، والتهابات المفاصل، ومشاكل في الكلى.

٢٦- الأمراض التحسسية:

يحتوي لحم الخنزير على كميات عالية من مركبات الهستامين والإميدازول، تحدث عند آكلها أمراضاً تحسسية جلدية، مثل الأكزيما والشرى والتهاب الجلد

العصبي والحكة وغيرها. وإذا امتنع آكلوا لحم الخنزير عن أكله بشكل مطلق، فإن هذه الأمراض التحسسية تتلاشى.

٢٧- أمراض أوتار العضلات والغضاريف:

يحتوي لحم الخنزير على مواد مخاطية نشوية فيها مادة الكبريت، التي ترسب في أوتار العضلات والنسيج الغضروفي، مسببة رخاوة تلك الأنسجة ومحدثة تغيرات باثولوجية في المفاصل والعمود الفقري.

وبعد هذا كله فإننا نقف أمام معجزة من معجزات التشريع الإسلامي. فتبارك الذي أحل لنا الطيبات، وحرم علينا الخبائث، وها هو العلم الحديث يكشف لنا كل هذه الأمراض التي يسببها وينقلها الخنزير إلى الإنسان، وكل هذا يثبت التطابق بين ديننا وبين الحقائق العلمية الحديثة، وأن هذا الدين نزل بعلم الله تعالى.

الإعجاز التشريعي في التذكية (الذبح)

تعد قضية ذبح الحيوان التي شرعها الإسلام قبل الإفادة من لحم الحيوان - الذي أحله الله ﷻ - من جملة القضايا الساخنة التي يثيرها أعداء الإسلام بحقد للتشكيك في شرائعه وأحكامه؛ جهلاً منهم بطبيعة الأوامر الربانية التي لا يأتيها الباطل ولا يعتريها النقص والخلل.

وكثيراً ما دارت معارك كلامية وحوارات مفتعلة مع الأقليات المسلمة، في كل من بريطانيا، وأمريكا، وفرنسا، وغيرها حول هذه القضية. وتعد جمعية الرفق بالحيوان في هذه البلدان وغيرها من أبرز الجمعيات التي تثير هذه القضية، وتستنكرها، وتُظهر مناظر الأغنام بعد قيام المسلمين بذبحها وهي ترفس بأطرافها وتتلوى من الألم؛ متهمة القائمين بذلك بالوحشية والهمجية، وهذا - بالإضافة إلى كونه من مظاهر الحقد والتشويه - يعد جهلاً مركباً بما توصل إليه العلم الحديث في هذا المجال من الحقائق الدامغة.

ولا يضر دين الله الحق المنزل على رسول الله ﷺ كل هذه الافتراءات، فهو أسمى من أن تنال من حكمته السامية هذه الافتراءات الحاقدة وغيرها، فضلاً عن أن تضع أحكام الإسلام وشرائعه الربانية موضع الشك والاتهام، خاصة وأن التقدم العلمي يقدم الأدلة الواضحة على صحة تلك الشرائع الربانية، وحكمتها السامية، ومن ذلك ما نسمعه من كلام أهل الاختصاص في قضية ذبح الحيوان المقررة شرعاً.

أولاً: الدم من الناحية الشرعية والعلمية ووجه الإعجاز فيه:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَحَدٌ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ (الأنعام: ١٤٥)، يتضح من الآية أن الدم المسفوح حرام، والمسفوح هو الكثير المصبوب، والسَّفْحُ للدم كالصَّب.

وقد اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يُؤكل ولا يُنتفع به، ما لم تعم به البلوى ومعفو عما تعم به البلوى والذي تعم به البلوى هو الدم في اللحم وعروقه، لأن الله تعالى قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ (المائدة: ٣). وحمل العلماء المطلق على المقيد إجماعاً فالدم هنا يراد به المسفوح لأن ما خالط اللحم فغير محرم بإجماع وكذلك الكبد والطحال مجمع عليه.

التفسير العلمي لتحريم الدم:

الدم هو هذا السائل الأحمر القاني الذي يتكون من أخلاط عديدة منها الخلايا الحمراء الممتلئة بمادة الهيموجلوبين التي تقوم بنقل الأكسجين إلى مختلف خلايا الجسم، والخلايا البيضاء التي تدافع عن الجسم ضد غزو حاملات الأمراض من الجراثيم والطفيليات، والصفائح التي تتحطم حول نزيف الدم من أجل تجلطه.

ويحمل الدم سمومًا وفضلاتٍ كثيرة ومركبات ضارة، وذلك لأن إحدى وظائفه الهامة هي نقل نواتج استقلاب الغذاء ^(١) في الخلايا من فضلات وسموم ليطره خارج الجسم عبر منافذها التي هيأها الله ﷻ لهذا الغرض، وأهم هذه المواد هي: البولة وحمض البول والكرياتنين وغاز الفحم كما يحمل الدم بعض السموم التي ينقلها من الأمعاء إلى الكبد ليصار إلى تعديلها.

وكذلك فإن الجراثيم الممرضة ربما انتقلت إليه عبر السكين التي ذبح بها الجزار، أو عبر الهواء المحيط، أو قد تنتقل من مصدر مجاور؛ فإذا انتقل عدد من الجراثيم إلى الدم فإن الجرثومة الواحدة تتضاعف هندسيًا كل نصف ساعة، فتتوالد الجرثومة الواحدة إلى اثنتين.

ولو اعتبرنا أن ١٠٠٠ جرثومة انتقلت إلى هذا الجرام من الدم فإنها تصبح بعد نصف ساعة ٢٠٠٠، وبعد ساعة واحدة يرتفع العدد إلى ٤٠٠٠، وبعد ساعة ونصف

(١) استقلاب: أيض: تحوّل الغذاء إلى طاقة.

تصبح ٨٠٠٠ جرثومة، ثم يرتفع عدد الجراثيم إلى ١٦٠٠٠ جرثومة بعد ساعتين، وبعد ثلاث ساعات يكون العدد وصل إلى ٦٤٠٠٠ جرثومة تغزو هذا الجرام الواحد من الدم.

ومعلوم أن الدم أصلاً توجد فيه كميات هائلة من الجراثيم، بل إنه بعد وفاة الحيوان يصبح ملوثاً ضاراً جداً بصحة الإنسان، إذا تم شربه، أو حفظه في مكان ثم شربه بعد ذلك.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو إذا كان فعل الجراثيم بالدم هو ما ذكر آنفاً فبالأكيد سيكون فعلها باللحم كذلك فلماذا يؤكل اللحم ولا نصاب بما يصاب به أكل الدم؟ والجواب على ذلك هو أن الجراثيم تبدأ بغزو السطح الخارجي عبر التهام الطبقة الصلبة التي يصعب على الجراثيم اختراقها، عندها تبدأ بالتهام ما يوجد في الطبقة الصلبة؛ فيتناقص عنها الغذاء ويموت عدد كبير منها لعدم قدرتها على التكاثف بسرعة. فإذا أراد الطباخ أن يطبخ هذه القطعة من اللحم فإنه يقوم بغسلها من الخارج؛ وعندها تكون كمية الجراثيم قد أزيلت بهذه العملية، ثم بالطبخ يتم القضاء على كمية أخرى من الجراثيم.

وعند تناول كمية كبيرة من الدم فإن هذه المركبات تمتص ويرتفع مقدارها في الجسم، إضافة إلى المركبات التي يمكن أن تنتج عن هضم الدم نفسه مما يؤدي إلى ارتفاع نسبة البولة في الدم والتي يمكن أن تؤدي إلى اعتلال دماغي ينتهي بالسُّبات.

وهذه الحالة تشبه مرضياً ما يحدث في حالة النزف الهضمي العلوي ويلجأ عادة هنا إلى امتصاص الدم المتراكم في المعدة والأمعاء لتخليص البدن منه ووقايته من حدوث الإصابة الدماغية. وهكذا فإن علماء الصحة لم يعتبروا الدم بشكل من الأشكال في تعداد الأغذية الصالحة للبشر.

ومن أهم الأضرار التي توصل اليها العلماء إلى تحديدتها حتى الآن حين يتناول الإنسان "الدم"، شرباً أو أكلاً:

● يدعى الذين يستعملون دم الحيوان أنه غذاء جيد للإنسان، وهم مخطئون في هذا، فالدم يحتوي قدرًا ضئيلاً من البروتينات القابلة للهضم (كالألبومين والجلوبيولين والفيبرينوجين)، وكذلك الدهون، بينما يحتوي نسبة عالية من خضاب الدم (هيموجلوبين)، وهو بروتين معقد عسير الهضم، لا تحتمله المعدة. كما أن الدم إذا تخثر (تجلط) فإن هضمه يصبح أشد عسراً، لعدة أسباب، منها أن الفيبرينوجين من أسوأ البروتينات وأعسرها هضمًا. كما يحتوي الدم غاز ثاني أكسيد الكربون، وهو من الغازات السامة، بل والقاتلة. وبالتالي فإن الإقدام على تناول الدم يؤدي إلى وقوع أضرار صحية جسيمة للإنسان.

● يدعى الذين يستعملون دم الحيوان، شرباً أو أكلاً، أنه مفيد في معالجة عوز الدم (فقر الدم أو الأنيميا)، وهم مخطئون، لأن الحديد هنا حديد عضوي، أي أنه أقل وأبطأ امتصاصاً في الأمعاء من الحديد اللاعضوي. فلا ضرورة إذن لاستعمال الدم كمصدر للحديد في حالات عوز الدم عند الإنسان، خصوصاً وأن الحديد اللاعضوي ليس عسيراً على أن يحصل عليه، بل توجد مواد صيدلانية توفر له ما يريد. هذا، إضافة إلى أن بروتينات المصل توجد بنسبة ضئيلة إذ تبلغ نسبة الألبومين والجلوبيولين والفيبرينوجين (وهو مولد الفيبرين أي اللفين)، ٧ جرام/١٠٠ مللي لتر من الدم في المتوسط. ثم إن خضاب الدم، أي هيموجلوبينه أو يحموره، يعد بروتينا عسر الهضم.

● إذا تناول الإنسان كمية متوسطة من الدم، فإنها قد تؤدي إلى حدوث اختلال ومرض دماغي يحدث على إثره سبات أو إغماء يعقبه الموت. تجري هذه الأحداث نتيجة ارتفاع نسبة البولة الدموية، وذلك بعد ما يتم حدوثه أيضاً للبروتينات الموجودة في الدم. وتتفاعل الجراثيم والميكروبات الموجودة في معدة الإنسان مع الدم المشروب (أو المأكول) وتنتج عن ذلك أحماض أمينية ضارة ومركبات نشادرية سامة.

تدخل هذه الأحماض والمواد إلى الدورة الدموية، ثم عن طريق الوريد البائي تدخل إلى الكبد، فتؤدي إلى انخفاض أدائه الوظيفي. كما تدخل هذه الأحماض إلى الدماغ (المخ) فتؤثر في خلاياه تأثيرات ضارة، تتدرج من الخمول وفقدان الوعي، إلى الذهول، والغيوبة، ثم الموت.

● إذا تناول الإنسان دم حيوان، فإن يحموره (هيموجلوبينه) يخضع لعملية هضم، فيتحلل إلى جلوبين وهيماتين، ويتحد هذا الأخير مع مركب، أو يتحول إلى مركب جديد، وهو المركب الذي يتحد مع بروتينات دم الإنسان فيوقف عملها، فلا تؤدي وظائفها الحيوية الضرورية للجسم!! وقد يدخل جزء من يحمور الدم المشروب كما هو على هيئته الأصلية إلى الدورة الدموية للإنسان، ويصل إلى الكلى ويتحول فيها إلى مركب يؤدي إلى حدوث هبوط في وظائف الكلى!!

● الدم وسط لنمو أنواع كثيرة من الجراثيم والميكروبات، لدرجة أنه يستخدم في المعامل (المختبرات) لصنع المزارع الدموية والحصول على "مستعمرات"، أي جماعات جرثومية. ونضيف هنا أن العديد من السموم وثنائي أكسيد الكربون والكرياتينين واليوريا، وحمض اليوريا، والمواد الضارة الناتجة عن الأيض (الاستقلاب) وغيرها، يتناولها الإنسان في الدم الذي يشربه أو يأكله، فتمتص هذه المواد، وترتفع مستوياتها في الجسم.

فتصور كم من الأمراض يمكن أن تصيب الإنسان!! ومن المصادر العديدة للجراثيم التي تنمو في الدم كوسط غذائي ملائم لها: السكين (أو أداة الذبح)، والإنسان نفسه (الجزر أو القصاب)، والآنية التي يوضع فيها الدم، والحشرات المترمة أو الماصة للدم، والهواء، وقد يكون الحيوان ذاته مصابا بمرض جرثومي.

● يحتوي دم الحيوان على مضادات، يتفاعل معها الجسم ليولد الأجسام المضادة (أو الأجسام الضدية)، وقد يؤدي شرب الدم، وخصوصاً إذا تكرر، إلى تفاعل هذه المضادات مع الأجسام الضدية، فيؤدي هذا إلى حدوث حساسية شديدة.

• هناك عامل نفسي، إضافة إلى كل ما أسلفناه، يجب أن يدركه الإنسان العاقل جيدا في تحريم الإسلام لتناول دم الحيوان، ذلك هو التشبه بالوحوش في شرب الدماء، فكيف بالإنسان يتصور نفسه وهو يشرب كوبا من الدم على المقهى مثلا. إن هذا يتنافى مع الفطرة السليمة والنفس السوية.

لماذا لا يذبحون؟

والدول غير الإسلامية لا تبغي من وراء ذلك - غالبا - سوى تحقيق أكبر عائد وأرباح تجارية، إذ يزن دم كل ذبيحة عدة كيلوجرامات، إذ تمثل كمية الدم ١٣/١ من وزن الحيوان، تقريبا، فلو كان وزن الحيوان ٤٠٠ كيلوجراما مثلا، فإن الجهة المصدرة ستربح (٤٠٠ × ١٣/١) = ٣٠ كيلوجراما، تقريبا، إذا صُدِّرت الذبيحة بدمها، وإذا ذبح الحيوان بالطريقة الإسلامية فإنه يفقد ٣/٢ دمه، تقريبا، ويتبقى الثلث الأخير، وهو في الغالب غير ضار.

والذبح غير الإسلامي يؤدي إلى استنزاف ٨ كيلوجرامات على الأكثر من كل ذبيحة، فالذبح الإسلامي إذن سيؤدي إلى خسارة تجارية قدرها ١٢ كيلوجرامات للمتعهّد، فإذا احتوى الطن الواحد ثمانى حيوانات بعظامها، فإن المتعهّد سيخسر (٨ × ١٢) = ٩٦ كيلوجراما، وإذا صُدِّر صفقة قوامها ٥٠٠ طنا مثلا، فإنه سيخسر (٥٠٠ × ٩٦) = ٤٨٠٠٠ كيلوجراما.

ولك بعد ذلك أن تتصور حجم الخسارة بالدولار، حسب سعر اللحوم العالمي، إذا طبق النظام الإسلامي في المذابح والمسالخ في الدول المصدرة للحوم، وكثير منها دول غير إسلامية، لا يهم المصدرون فيها سوى تحقيق الأرباح التجارية، ولذلك فإنهم يتعمدون حبس الدم في الذبائح، وذلك دون اعتبار لأية أضرار ستلحق بالناس، المهم هو المكاسب المالية، وليمرض المستهلكون، أو يموتوا، لا يهم.

وجه الإعجاز:

من هذا الاستعراض الموجز يتضح لنا بجلاء حكمة تحريم أكل الدم، ولو لم يرد في القرآن الكريم غير هذه الحقيقة العلمية لكانت كافية للشهادة على أن القرآن

المجيد هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه بعهدده في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأن النبي والرسول الخاتم ﷺ الذي تلقى القرآن المبين كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السموات والأرض.

ثانياً: الميتة من الناحية الشرعية والعلمية ووجه الإعجاز فيها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بِبَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

وقال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّبَتْ وَمَا ذُبَحَ عَلَى النُّصْبِ وَأَنْ تَسْنَقِسُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَمْ فَمَنْ يَسْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣).

من هاتين الآيتين فهم ويفهم المسلمون أن الميتة - وهي اسم لما فارق الحياة من غير ذكاة شرعية - يحرم أكلها بأمر من الخالق الذي خلق الخلق وأمرهم بما يصلحهم في الدنيا والآخرة القائل: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ (النجم: ٣٢).

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ هي التي تموت بالخنق: وهو حبس النفس سواء كان ذلك بفعلها كأن تدخل رأسها في حبل أو بين عودين أو بفعل آدمي أو بغيره وقد كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة فإذا ماتت أكلوها. ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ هي التي تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تذكية. ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي التي تتردى من علو إلى أسفل فتموت من غير فرق بين أن تتردى من جبل أو بئر أو مدفن أو غيرها والتردي مأخوذ من الردى وهو الهلاك وسواء تردت بنفسها أو تردت بفعل غيرها.

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ هي التي تنطحها أخرى فتموت من دون تذكية.

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ أي ما افترسه ذو ناب كالأسد والنمر والذئب والضبع ونحوها، والمراد هنا: ما أكل منه السبع لأن ما أكله السبع كله قد فني. ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي حرمت عليكم هذه الأشياء لكن ما ذكيتم فهو الذي يحل ولا يحرم. فما مات بأي طريقة من هذه الطرق التي ذكرها القرآن ولم يُدَكَّ الذكاة الشرعية فقد حرم القرآن أكله، هذا هو الذي عليه العمل عند أهل الإسلام وهو الذي يدينون به لربهم ﷻ.

التفسير العلمي لتحريم أكل الميتة:

القاسم المشترك الذي يجمع بين تحريم القرآن الكريم للدابة المنخقة التي خنقت فماتت وبقي دمها في جسمها، والموقوذة التي ضربت بآلة فماتت من غير تذكية، والمتردة التي وقعت من عال فماتت بصدمة عضلية، والنطيحة التي نُطحت، هذه الأربعة أنواع من الدواب التي حرم الله أكلها يجمعها قاسم مشترك واحد، هو أن الدم بقي في جسمها.

والميتة مستودع للجراثيم، ومستودع للأمراض الفتاكة، وقد اكتشف العلماء مؤخراً أن هناك علاقة بين الأمراض التي يحملها الحيوان الذي يموت مختنقاً وبين صحة الإنسان. حيث يعمل جدار الأمعاء الغليظة للحيوان كحاجز يمنع انتقال الجراثيم من الأمعاء الغليظة - حيث توجد الفضلات - إلى جسم الحيوان وإلى دمه طالما كان الحيوان على قيد الحياة.

ومعلوم أن الأمعاء الغليظة مستودع كبير للجراثيم الضارة بالإنسان، والجدار الداخلي لهذه الأمعاء يحول دون انتقال هذه الجراثيم إلى جسم الحيوان، كما أن في دم الحيوان جداراً آخر يحول دون انتقال الجراثيم من دم الحيوان، فإذا حدث للحيوان خنق فإنه يموت موتاً بطيئاً.

وتكمن الخطورة في هذا الموت البطيء عندما تفقد مقاومة الجدار المغلف للأمعاء الغليظة تدريجياً مما يجعل الجراثيم الضارة تخترق جدار الأمعاء إلى الدماء وإلى اللحم المجاور.

ومن الدماء تنتقل هذه الجراثيم مع الدورة الدموية إلى جميع أجزاء الجسم لأن الحيوان لم يموت بعد، كما تخرج من جدار الدماء إلى اللحم بسبب نقص المقاومة في جدار هذه الأوعية الدموية فيصبح الحيوان مستودعاً ضخماً لهذه الجراثيم الضارة.

ثم تفتك هذه الجراثيم المتكاثرة بصحة الحيوان حتى الموت، وموته في هذه الحالة يعني وجود خطر كبير في جسد هذا الكائن الذي يموت مختنقاً.

أما الحيوان الذي يموت ضرباً فيصاب هذا الحيوان كذلك بالموت البطيء كالمختنق تماماً فيقع له ما وقع للمختنق؛ وزيادة على ذلك فإن الضرب يتسبب في تمزيق الأوعية الدموية في مكان الضرب، كما يمزق الخلايا فيه، فيختلط تركيب الدماء مع تركيب الخلايا مما يتسبب في حدوث تفاعلات للمواد السامة الضارة.

ولذلك تلحظ وجود تورم يقع في مكان الضرب إن هذا التورم الحادث سببه وجود التفاعلات الكيميائية الضارة التي أصبحت مولدات لمواد سامة إلى جانب التسليخ الذي يحدثه الضرب بجسم الحيوان. وبهذا يصبح الحيوان الذي مات من الضرب مستودعاً للجراثيم الضارة وخطراً على صحة الإنسان.

أما عن الحيوان الذي يسقط من مكان عالٍ وهو الذي يسمى: (المرتدية) فتكون حالته مثل حالة الذي مات بالضرب، ففي مكان السقوط يحدث التمزق ويبدأ بالموت موتاً بطيئاً. وحتى لو مات مباشرة بعد السقوط فإن الجراثيم تغزو الجسم بسرعة، ولذلك نجد أن العفونات سرعان ما تتصاعد من جسم هذا الكائن دليل على ما يوجد فيه من جراثيم وميكروبات خطيرة.

أما عن الحيوان الذي يموت بسبب التناطح فالموت بهذه الطريقة يشابه الذي يموت ضرباً ولكنه أخطر، ففي الغالب أن الحيوان عندما ينطح بقرنه تتم عملية النطح في منطقة البطن، وبالأخص في الأمعاء، فيدخل القرن ملوثاً بالجراثيم إلى الدماء في أمعاء الحيوان الآخر، وتجري الدماء في جسمه، ثم يموت تبعاً لذلك. ويشكل تناول لحم الحيوان في هذه الحالة خطراً محققاً على صحة الإنسان.

أما عن الحيوان الذي يموت بسبب اقتراس حيوانٍ آخر له فمعلوم أن مخالف السبع مملوءة بالجراثيم، فإذا غرسها في جسم هذا الحيوان سارت تلك الجراثيم في دمه؛ عندها يموت الحيوان ببطء ويصبح مستودعاً للجراثيم الضارة أما عندما يذبح الحيوان بالطريقة المعهودة عند المسلمين؛ نكون قد استخلصنا المصدر الأساسي لنقل هذه الجراثيم وهو الدم، ولا يمكن بعدها السماح بانتقالها إلى الأعضاء.

وإذا ذبح الحيوان قبل موته تخلص الجسم من هذه المادة التي تسبب انتقال هذه الجراثيم إليه؛ لأن الدم هو السائل الحيوي المهم في جسم الكائن الحي والذي يستطيع مقاومة ملايين الطفيليات بما يحويه من كرات بيضاء وأجسام مضادة مادام الكائن حياً وفي درجة حرارته الطبيعية، فإذا مات الحيوان وتوقف الدم عن الجريان أصبحت الميكروبات بدون مقاومة، وفي هذه الحالة يكون أسلم الطرق هو الإراقة الكاملة لهذا الدم، وإخراجه من الجسم في أسرع وقت ممكن.

وجه الإعجاز:

مما تقدم يتضح بجللاء وبدون أدنى لبس التوافق العجيب والدقيق بين ما توصل إليه العلم الحديث وبين أوامر الشرع الإسلامي الحنيف، العلم الحديث يثبت أنه لا وسيلة للتخلص من الأسباب المؤدية إلى كثير من الأمراض إلا بالتذكية الإسلامية الشرعية، هذه الحقيقة يثبتها العلماء اليوم والإسلام يأمرنا بها قبل ألف وأربعمائة عام.

فمن أين لمحمد ﷺ هذا العلم؟ إنها شهادة الحق بأنه من عند الله ﷻ.

الحكمة التشريعية في تحريم النمص والوشم والتفالج

قال عليه السلام: «لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَمِصَّاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيَّرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

النَّامِصَةُ: الَّتِي تَنْقُشُ الْحَاجِبَ حَتَّى تُرْفَهُ. وَالْمُتَمِصَّةُ الَّتِي تَطْلُبُ فِعْلَ ذَلِكَ بِهَا، وَهَذَا الْفِعْلُ حَرَامٌ إِلَّا إِذَا نَبَتَ لِلْمَرْأَةِ لَحْيَةٌ أَوْ شَوَارِبٌ فَلَا تَحْرُمُ إِزَالَتَهَا.

الْوَاشِمَةُ: فَاعِلَةُ الْوَشْمِ وَهِيَ أَنْ تُغْرِزَ إِبْرَةً أَوْ مِسْلَةً أَوْ نَحْوَهُمَا فِي ظَهْرِ الْكَفِّ أَوْ الْمَعْصَمِ أَوْ الشِّفَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بَدَنِ الْمَرْأَةِ حَتَّى يَسِيلَ الدَّمُ ثُمَّ تَحْشُو ذَلِكَ الْمَوْضِعَ بِالْكُحْلِ فَيُخَضَّرُ وَقَدْ يُفْعَلُ ذَلِكَ بِدَارَاتٍ وَنُقُوشٍ، وَقَدْ تُكَثِّرُهُ وَقَدْ تُقَلِّلُهُ وَفَاعِلَةُ هَذَا وَاشِمَةٌ وَالْمَفْعُولُ بِهَا مَوْشُومَةٌ فَإِنْ طَلَبَتْ فِعْلَ ذَلِكَ بِهَا فَهِيَ مُسْتَوْشِمَةٌ وَهُوَ حَرَامٌ عَلَى الْفَاعِلَةِ وَالْمَفْعُولِ بِهَا بِاخْتِيَارِهَا وَالطَّالِبَةِ لَهُ، وَقَدْ يُفْعَلُ بِالْبَنَتِ وَهِيَ طِفْلةٌ فَتَأْتُمُ الْفَاعِلَةَ وَلَا تَأْتُمُ الْبَنَتُ لِعَدَمِ تَكْلِيفِهَا حِينَئِذٍ.

وَأَمَّا الْمُتَفَلِّجَاتُ فَالْمُرَادُ مُفَلِّجَاتُ الْأَسْنَانِ بِأَنْ تَبْرُدَ مَا بَيْنَ أَسْنَانِهَا الثَّنَائِيَا وَالرُّبَاعِيَّاتِ وَهُوَ مِنَ الْفَلَجِ وَهِيَ فُرْجَةٌ بَيْنَ الثَّنَائِيَا وَالرُّبَاعِيَّاتِ وَتَفْعَلُ ذَلِكَ الْعَجُوزُ وَمَنْ قَارَبَتْهَا فِي السِّنِّ إِظْهَارًا لِلصَّغَرِ وَحُسْنِ الْأَسْنَانِ لِأَنَّ هَذِهِ الْفُرْجَةَ اللَّطِيفَةَ بَيْنَ الْأَسْنَانِ تَكُونُ لِلْبَنَاتِ الصَّغَارِ فَإِذَا عَجَزَتِ الْمَرْأَةُ كَبُرَتْ سِنُّهَا وَتَوَحَّشَتْ فَتَبْرُدُهَا بِالْمِبْرَدِ لِتَصِيرَ لَطِيفَةً حَسَنَةً الْمُنْظَرِ وَتُوْهِمُ كَوْنَهَا صَغِيرَةً وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا الْوَشْرُ.

وَهَذَا الْفِعْلُ حَرَامٌ عَلَى الْفَاعِلَةِ وَالْمَفْعُولِ بِهَا لِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَلِأَنَّهُ تَغْيِيرٌ لِحَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَلِأَنَّهُ تَزْوِيرٌ وَلِأَنَّهُ تَدْلِيسٌ وَأَمَّا قَوْلُهُ الْمُتَفَلِّجَاتُ لِلْحُسْنِ فَمَعْنَاهُ يَفْعَلُنَ ذَلِكَ طَلَبًا لِلْحُسْنِ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْحَرَامَ هُوَ الْمَفْعُولُ لَطَلَبِ الْحُسْنِ أَمَا لَوْ احتاجتْ إِلَيْهِ لِعِلَاجٍ أَوْ عَيْبٍ فِي السِّنِّ وَنَحْوِهِ فَلَا بَأْسَ.

الأضرار الطبية للنمّص:

١- ارتخاء عضلات الجفن العلوي نتيجة التهيج المستمر للعضلات فأثبتت الدراسات العلمية أن كثرة النمّص يؤدي إلى كثرة تهيج الجلد والعضلات المحركة للحاجب مما يؤدي إلى ارتخاء الجفن أعلى العين ويكون الارتخاء للجفن في الجزء الوحشي لقلة الدهن المساند تحت الجفن وعدم قوة التصاق العضلة الرافعة للحاجب مع الطرف الوحشي ولإصلاحه لابد من إجراء جراحات تجميلية وإن لم يعالج ارتخاء الجفن يؤدي إلى ضعف الإبصار والصداع وزغللة العين.

٢- صداع متكرر والتهاب الجيوب الأنفية، وقد أشارت الأبحاث في الولايات المتحدة إلى أن النمّص يسبب صداع والتهاب الجيوب الأنفية. ويؤكد ارتباط الأنف بالحاجب ما يسمى انعكاس العطاس حيث يلاحظ العطس مع النمّص ويفسر ذلك علمياً بتهيج مراكز العطس نتيجة تهيج أعصاب الأنف التي تتغذى عصبياً من العصب الخامس وهو نفس المصدر المغذي للحاجب.

٣- يقل شعر الحاجب وذلك لموت حوصلات الشعر والتأثير على المظهر الجمالي للمرأة مما دعى الغرب لاستعمال الوشم وزرع ولصق شعر الحاجب.

٤- حدوث أمراض جلدية مثل البهاق والثآليل عند من يعانون من ضعف المناعة.

٥- حدوث تغيرات جلدية مثل التهاب الوجه الاحمراري عند النساء والذي لم يستطع العلماء تحديد سببه إلى الآن.

٦- تسهيل حدوث سرطان خلايا الجلد القاعدي فقد تم اكتشاف علاقة بين سرطان الجلد وبين فيروس (human papillomavirus) والذي يوجد متعايشاً على الجلد وخاصة جلد الجبهة في الإنسان حيث الحاجبان.

٧- أدى النمّص للحواجب باستخدام الخيط القطني إلى انتشار البهاق والبرص في حالة سجلت في الهند ونشر ذلك في ورقة عمل في المجلة البريطانية المتخصصة في تجميل الجلد.

الأضرار الطبية للوشم:

١ - ثبت علمياً أن الوشم يسبب تسمماً في الدم وأنه الاحتمال الأكبر للإصابة بالالتهاب الكبدي الوبائي وأنه مسبب للحساسية الجلدية وقد يصل التسمم من الوشم في بعض الحالات لدرجة الموت.

٢ - إمكانية الإصابة بسرطان الجلد والصدفية والحساسية التي تحصل في الجلد في بعض الحالات والالتهاب الحاد بسبب التسمم وخاصة عند استخدام صباغ صنع لأغراض أخرى كطلاء السيارات أو حبر الكتابة، وسوء التعقيم الذي يؤدي إلى انتقال العدوى بأمراض الالتهاب الكبدي وفيروس الإيدز والزهري، وقد تصل إلى التأثير في الحالة النفسية للموشوم فتؤدي إلى تغيرات سلوكية في شخصيته .

أما طبيعة المواد المستخدمة فهي ملونات ذات أصل حيواني ومساحيق من الكحل والفحم وعصارة النباتات أو أكسيد المعادن كالحديد والكوبالت، وهنا تكون الطامة الكبرى لأن الموشوم لا يدرك بأن البقع والألوان المستخدمة في الوشم هي مواد حاملة لذلك فهي تصبح جزءاً دائماً من مكونات خلايا البشرة.

٣ - إن إزالة هذا الوشم توجب إزالة هذه الخلايا في حال قرر مستقبلاً ذلك، وهذه العملية تتم إما باستئصال الجلد في منطقة الوشم أو بصنفرة البشرة وخاصة السطحي منها، وهذه الطريقة يؤخذ عليها احتمال ابيضاض المنطقة المعالجة بها، والإزالة باستخدام الليزر أو بعمل رسم فوق الوشم الأصلي غير المرغوب به إما بالجراحة أو بوشم احترافي، وأخيراً بطريقة كيميائية باستخدام الغبار الكالدوني أو سائل الآزوت. وإزالة الوشم بالجراحة يترك آثاراً مشوهة للجلد وهذا تغيير دائم لخلق الله كما ذكر الحديث النبوي.

٤ - عندما يستخدم الليزر لإزالة الوشم يترك آثاراً سامة مسرطنة نتيجة حرارة الليزر التي تحول بعض المكونات لمواد مسرطنة ثم يمتصها الجلد.

الأضرار الطبية للتفلج:

ثبت علمياً أن الفم مليء بالجراثيم والكائنات الدقيقة الطبيعية التي تتحول إلى جراثيم ممرضة في حالة ضعف مناعة الإنسان، أو في حالة تحريك الأسنان وتعرض الأسنان للتفلج وللشد خاصة في الفك الأعلى حيث يمكن أن تهاجم الميكروبات الفم وتنتشر بطريقة متراجعة مباشرة لتصل إلى الجيوب الأنفية كما يمكن أن ينتشر الالتهاب إلى الجيب الكهفي داخل الدماغ.

وجه الإعجاز في الحديث النبوي: تغيير خلق الله، ولأزم من لوازمه وهو الأضرار الصحية الناشئة عن حدوث هذا التغيير في الخلق.

الرفق بالحيوان بين الهدي النبوي الصادق ودعاوى الغرب الكاذبة

فى ظل الهجمة على الإسلام والمسلمين التى تصاعدت بعد أحداث ١١ سبتمبر بدأت بعض الأبواق فى الغرب وذيوهم فى الشرق تتهم الإسلام والمسلمين بالقسوة والوحشية التى تطول من وجهة نظرهم الكاذبة الحيوانات.

وفى ظل الغزو الثقافى الذى هو هدف العولمة (الأمركة) يحاول الآخرون سلخ المسلمين عن ثقافتهم الإسلامية وتصدير ثقافتهم المزعومة بما تحمله من خلل واضح فى التعامل مع الحيوانات بالتطرف بين من يعيبون ذبح الحيوانات لأكل لحومها وخروجاً على سنة الله فى الكون، وبين من يعتنون عناية غير مطلوبة ببعض الحيوانات مثل الكلاب التى يعاملونها أفضل مما يعاملون أبناءهم.

وفى تطرف آخر نحو القسوة نجدهم يتهافتون لقتل الحيوانات لاستخدام جلودها وفرائها ملابس لهم، فضلاً عن أسلوبهم فى تربية الحيوانات التى حولتها من عملية تربية بما تحملها من معانى الرعاية والعناية، إلى عملية «صناعة الحيوان» بما تحمله من ممارسات تعمل على العبث بنمو الحيوانات بشكل أكبر من الطبيعى من أجل زيادة الإنتاج وتحقيق أعلى قدر من الأرباح.

التأصيل الإسلامى لرعاية الحيوانات والعناية بها:

لقد تعددت الآيات فى القرآن الكريم التى تتناول الحيوانات وتنوع أساليبها بشكل يظهر أن موقف القرآن الكريم من الحيوانات يتطلب العناية بها ورعايتها. وأشار القرآن الكريم إلى استخدام بعض الحيوانات آيات من آيات الله ومعجزاته التى أيد بها رسله وأوليائه، مثل بقرة بنى إسرائيل، وكلب أهل الكهف، وناقة صالح عليه السلام، وعصا موسى عليه السلام، التى انقلبت حية تسعى.

وفي مجال رعاية الحيوانات والعناية بها نجد السنة النبوية الشريفة زاخرة بأحاديث عدة كلها تدور حول الرفق بالحيوانات وعدم إيذاؤها، بدنياً ونفسياً، ومن ذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة من النهى عن ضرب الحيوانات خاصة في الأماكن الحساسة مثل الوجه، والنهى عن خزن اللبن في ضروع الحيوانات لما يسببه ذلك من ضرر واعتبار ذلك نوعاً من الغش وهو ما يعرف بالتصرية، والنهى عن لعن الدواب.

وقد حث الإسلام على الرفق والرحمة في استخدام الحيوانات فيما خلقت له بدون قسوة وعدم استخدامها في غير ذلك، وفي ذلك أحاديث صحيحة تنهى عن استخدام الحيوانات غرضاً في اللعب والمسابقة برميها حتى تموت وهو ما يسمى بالمثلة، أو الصبرة وهي أن تمسك وتجعل هدفاً فترمي حتى تموت.

وورد كذلك الأمر بالإحسان إلى البهائم واتباع الطرق السليمة عند الانتفاع بها حتى ولو عند الذبح للانتفاع بلحومها؛ فقد قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلِيُحَدِّدَ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلِيُزِيحَ ذَبِيحَتَهُ» (رواهُ مُسلم).

إن الصيد مباح في الإسلام، ويلزم أن يتم الصيد بأدواته المعروفة التي لا تؤذي الحيوان أو تعذبه، وقد جعل الإسلام حبس الحيوانات ومنع الغذاء والماء عنها موجب للعذاب فقد قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (خَشَاشِ الْأَرْضِ): هوام الأرض وحشراتهما.

وفي المقابل فإن من رحم الحيوانات وساعدها على الحياة فإن الله يغفر له ذنوبه أياً كانت، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهْتُ يَأْكُلُ التُّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: «لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي». فَمَلَأَ حُقَّةً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ

رَقِي فَسَقَى الْكَلْبَ؛ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ؛ فَغَفَرَ لَهُ». قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟». قَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ». (رواه البخاري)

(بَيْنَا): بَيْنَمَا. (يَلْهَث): هَثَّ الْكَلْبُ: أَخْرَجَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ.

(الْتَرَى): الْأَرْضَ النَّدِيَّةَ. (خَفَّه): الْخَفَّ: مَا يُلْبَسُ فِي الرَّجُلِ مِنْ جِلْدٍ رَقِيقٍ.

(ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ): أَيَّ أَمْسَكَ أَحَدَ حُقَيْهِ الَّذِي فِيهِ الْمَاءُ بِفَمِهِ، وَإِنَّمَا احتَاجَ إِلَى

ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يُعَالِجُ بِيَدَيْهِ لِيَصْعَدَ مِنَ الْبُشْرِ، وَهُوَ يَدِلُّ عَلَى أَنَّ الصُّعُودَ مِنْهَا كَانَ عَسِرًا.

(رَقِي): صَعِدَ. (وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا): أَيَّ فِي سَقَى الْبَهَائِمِ أَوْ الْإِحْسَانَ إِلَى

الْبَهَائِمِ. (فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ): أَيَّ كُلِّ كَبِدٍ حَيَّةٌ، وَالْمُرَادُ رُطُوبَةُ الْحَيَاةِ، أَوْ لِأَنَّ الرُّطُوبَةَ لَا زِمَةَ لِلْحَيَاةِ فَهُوَ كِنَايَةٌ، أَيَّ الْأَجْرُ ثَابِتٌ فِي إِرْوَاءِ كُلِّ كَبِدٍ حَيَّةٍ.

وروى البخاري في (الأدب المفرد) أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ رَحِمَ وَلَوْ

ذَبِيحَةً عُصْفُورٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (سنده حسن).

يراعى الإسلام أن الحيوان له روح، وأن التعامل معه لا ينبغي أن يكون كما

تتعامل مع آلة صماء، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه نهى عن صَبْرِ الْبَهَائِمِ، وهو: أن تحبس البهيمة، ثُمَّ تُضْرَبَ بِالنَّبْلِ ونحوه حَتَّى تَمُوتَ.

ففي «الصحيحين» عن أنسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ تُصَبَّرَ الْبَهَائِمُ. وفيهما

أَيْضًا عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «مَنْ فَعَلَ هَذَا؟

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنْ فَعَلَ هَذَا». وروى مسلم أن النبي ﷺ نَهَى أَنْ يُتَّخَذَ شَيْءٌ

فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا، والغرض: هو الذي يرمى فيه بالسهم.

وأمر النبي ﷺ أَنْ تُحَدَّ الشَّفْرَةُ، وَأَنْ تُوَارَى عَنِ الْبَهَائِمِ. (رواه أحمد، وإسناده

صحيح)، فالذبح بالآلة الحادة يُرِيحُ الذبيحة بتعجيل زهوق نفسها. وقال عمر رضي الله عنه:

«لَا تَعْجَلُوا الْأَنْفُسَ قَبْلَ أَنْ تُزْهَقَ». (رواه البيهقي وقال الألباني: إسناده يحتمل

التحسين).

وروى الخلال والطبراني من حديث عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَجُلٍ وَاضِعٍ رِجْلَهُ عَلَى صَفْحَةِ شَاةٍ، وَهُوَ يَحْدُ شَفْرَتَهُ، وَهِيَ تَلْحَظُ إِلَيْهِ بَبْصَرِهَا، فَقَالَ: «أَفَلَا قَبْلَ هَذَا؟ تُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَتَيْنِ؟» (صحيح).

وروى عبد الرزاق عن ابن سيرين أَنَّ عُمَرَ رَأَى رَجُلًا يَسْحَبُ شَاةً بِرِجْلِهَا لِيَذْبَحَهَا، فَقَالَ لَهُ: «وَيْلَكَ قَدْ هَا إِلَى الْمَوْتِ قَوْدًا جَمِيلًا».

وروى محمد بن زياد أَنَّ ابن عمر رَأَى قَصَّابًا يُجْرُ شَاةً، فَقَالَ: «سُقْهَا إِلَى الْمَوْتِ سَوَقًا جَمِيلًا، فَأَخْرَجَ الْقَصَّابُ شَفْرَةَ، فَقَالَ: «مَا أَسْوَقُهَا سَوَقًا جَمِيلًا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَذْبَحَهَا السَّاعَةَ»، فَقَالَ: «سُقْهَا سَوَقًا جَمِيلًا».

وعن معاوية بن قرة، عن أبيه أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَذْبَحُ الشَّاةَ وَأَنَا أَرْحَمُهَا»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللَّهُ». (رواه أحمد بإسناد صحيح). وقال مطرف بن عبد الله: «إِنَّ اللَّهَ لِيَرْحَمَ بِرَحْمَةِ الْعَصْفُورِ».

وقد روي من غير وجه عن النبي ﷺ أَنَّهُ نَهَى أَنْ تُؤْلَى وَالِدَةُ عَنْ وَلَدِهَا، (أي يفرق بينهما) وهو عام في بني آدم وغيرهم. فروى البخاري في (الأدب المفرد) وأبو داود والحاكم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَأَنْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَأَرَانَا حُمْرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمْرَةُ فَجَعَلَتْ تُفَرِّشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا، رُدُّوْا وَلَدَهَا إِلَيْهَا». وَرَأَى قَرِيَةً نَمَلٌ قَدْ حَرَّقَنَاهَا فَقَالَ: «مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟»، قُلْنَا: «نَحْنُ»، قَالَ: «إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ» (سنده صحيح). (الحُمْرَةُ): طائر صغير كالعصفور أحمر اللون. (تُفَرِّشُ): أي ترفرف بجناحيها وتقرب من الأرض.

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟» فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَفَلَا تَتَّبِعِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؛ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتَذْبِيهُ» (صحيح رواه أبو داود). (حَائِطًا): أي بُسْتَانًا.

(فَإِذَا): لِلْمُفَاجَأَةِ. فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ: أَي لَمَّا رَأَى الْجَمَلَ النَّبِيُّ ﷺ.

(حَنَ): أَي رَجَعَ صَوْتَهُ وَبَكَى. (وَذَرَفَتْ): أَي جَرَتْ. (عَيْنَاهُ): أَي عَيْنَا الْجَمَلِ.
(ذِفْرَاهُ): الذَّفْرَى مِنَ الْبَعِيرِ مُؤَخَّرُ رَأْسِهِ وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُعْرِفُ مِنْ قَفَاهُ.
وقيل: ذِفْرَى الْبَعِيرِ أَصْلُ أُذُنِهِ. (وَتُدْبِيهِ): أَي تُكْرِهُهُ وَتُتْعِبُهُ.

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ الْحَنْظَلِيِّ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فَقَالَ:
«اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً». (رواه أبو
داود، وصححه الألباني). (قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ): أَي مِنَ الْجُوعِ. (الْمُعْجَمَةُ): أَي الَّتِي
لَا تَقْدِرُ عَلَى النُّطْقِ. وَالْمَعْنَى: خَافُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَتَكَلَّمُ فَتَسْأَلُ مَا بِهَا مِنْ
الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالتَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ. وَأَصْلُ الْأَعْجَمِ: الَّذِي لَا يَفْصَحُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَلَا يُجِيبُ
التَّكَلَّمَ بِهَا عَجْمِيًّا كَانَ أَوْ عَرَبِيًّا سَمِيَ بِهِ لِعَجْمَةِ لِسَانِهِ، وَالتَّبَاسُ كَلَامُهُ.
(وَكُلُوهَا صَالِحَةً): أَي حَالُ كَوْنِهَا صَالِحَةً لِلْأَكْلِ أَي سَمِينَةً.

قال الألباني: «قوله (كلوها) قِيدُوهَا بضم الكاف من الأكل وعليه جرى المناوي
في شرح هذه الكلمة، فإذا صحت الرواية بذلك فلا كلام، وإلا فالأقرب عندي أنها
(كلوها) بكسر الكاف من وكل يكل كل أي اتركوها، هذا هو المتبادر من سياق
الحديث.

ومن الآثار في الرفق بالحيوان (ذكرها الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة):

أ - عن المسيب بن دارم قال: رأيت عمر بن الخطاب ضرب جملاً، وقال: «لم
تحمل على بعيرك ما لا يطيق؟!» (رواه ابن سعد في "الطبقات"، وسنده صحيح).

ب - عن عاصم بن عبيد الله بن عاصم بن عمر بن الخطاب رحمته الله أن رجلاً حَدَّ
شفرة وأخذ شاة ليذبحها، فضربه عمر رحمته الله بالدَّرَّةِ وقال: «أتعذب الروح؟! ألا
فعلت هذا قبل أن تأخذها؟!» (رواه البيهقي). (الدَّرَّةُ: السوط).

ج - عن محمد بن سيرين أن عمر رحمته الله رأى رجلاً يجر شاة ليذبحها فضربه
بالدَّرَّةِ وقال: «سُقْهَا - لَا أَمَّ لَكَ - إِلَى الْمَوْتِ سَوْقًا جَمِيلًا». (رواه البيهقي).

د - عن وهب بن كيسان أن ابن عمر رأى راعي غنم في مكان قبيح، وقد رأى
ابن عمر مكاناً أمثل منه، فقال ابن عمر: «ويحك يا راعي حوَّلهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ
ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رِعْيَتِهِ». (رواه أحمد، وسنده حسن).

هـ - عن معاوية بن قرّة قال: كان لأبي الدرداء جمل يقال له: (دمون)، فكان إذا استعاروه منه قال: لا تحملوا عليه إلا كذا وكذا، فإنه لا يطيق أكثر من ذلك، فلما حضرته الوفاة قال: «يا دمون لا تخصمني غداً عند ربي، فإني لم أكن أحمل عليك إلا ما تطيق». (رواه أبو الحسن الأخيمي في "حديثه").

قال الشيخ الألباني: «تلك هي بعض الآثار، وهي تدل على مبلغ تأثر المسلمين الأولين بتوجيهات النبي ﷺ في الرفق بالحيوان، وهي في الحقيقة نقطة من بحر، وفي ذلك بيان واضح أن الإسلام هو الذى وضع للناس مبدأ (الرفق بالحيوان)، خلافا لما يظنه بعض الجهال بالإسلام أنه من وضع الكفار الأوربيين».

الجوانب العملية في الإسلام لرعاية الحيوانات والعناية بها:

لقد وضع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أساسا لرعاية الحيوانات لترشيد سلوك المسلمين في معاملتهم مع الحيوانات وبما يساند التطبيق، وحيث إن الإسلام دين وحياة فإن هذه النصوص أخذت طريقها للتطبيق في الحضارة الإسلامية حيث تمثل رعاية الحيوانات إحدى موضوعات الفقه الإسلامى الذى يقوم على تقنين الشريعة الإسلامية، كما أن الرقابة على الرفق بالحيوان كانت أحد مهام المحتسب هذا فضلا عن ما يحفل به التاريخ الإسلامى من مظاهر عملية للرفق بالحيوانات:

أولاً: تمثل الحيوانات موضوعاً أساسياً في كتب الفقه وفى أبواب عدة منها أحكام زكاة الماشية، وأحكام الصيد والذبائح، وأحكام النفقة على البهائم، فقد أوجب الفقهاء على مَنْ ملك بهيمة القيام بعلفها، وأن لا يحمل عليها ما يضرها ولا يجلب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها لأنه خلق غذاء للولد فلا يجوز منعه منه، وإن امتنع عن الإنفاق عليها أجبر على ذلك كما يجبر على نفقة زوجته.

ثانياً: إن الوقف في الإسلام نظام لتوفير سبل الحياة الكريمة للمحتاجين والإسهام في الخدمات العامة التى ينتفع بها أفراد المجتمع، وهو من الصدقات الجارية التى ينتفع الواقف بثوابها مادام نفعها ممتد، والوقف هو حبس المال والتصدق بمنفعته على وجوه البر والخير، ومن هذه الوجوه التى أجازها الفقهاء الإنفاق على رعاية

الحيوانات، وهو أمر وجد صداه في التطبيق العملي نذكر شاهدا واحدا منها فلقد جاء: «أنه في العصر المملوكي وجدت كثير من المنشآت الوقفية التي خصصت لرعاية الحيوانات، فهناك منشآت وقفية كاملة خصصت للدواب مثل حوض الدواب الذي أوقفه السلطان قايتباي في صحراء المهاليك لتشرب الدواب أثناء سيرها من هذه الأماكن وتستريح من السير في أماكن ظليلة بعيدة عن الشمس، وتعالج إن كانت مصابة أو مريضة في العيادة الملحقة بالحوض، وتوجد اسطبلات لتنام فيها الحيوانات، وكانت الوقفية تنص على أن «يحصل أرباب الوظائف من البيطريين والمدرسين والمسؤولين عن إطعام الحيوانات ورعايتها على رواتب من ريع أراضي زراعية موقوفة على ذلك».

ثالثا: نظام الحسبة في الإسلام يقوم على وجود جهاز يختص بالرقابة على سلوك الناس في جميع المجالات لضبط هذا السلوك وفق أحكام وتوجيهات الشريعة حيث يختص المحتسب وأعوانه برقابة هذا السلوك وتصحيح المخالفات فورا وإرشاد الناس إلى السلوك السليم، وبالإطلاع على كتب الحسبة وعلى الأخص كتاب "معالم القربة لأحكام الحسبة" لابن القرشي نجد فيها أبوابا عدة تتناول الرقابة على معاملة الناس للحيوانات، وهذه إشارات موجزة لما ورد بهذا الكتاب حول الاحتساب على الحيوانات:

- الرقابة على قيام أصحاب البهائم بعلفها وسقيها والإنفاق عليها.
- يمنع المحتسب البئاعين من أن يضعوا الأحمال على ظهور الدواب - وهي واقفة - لأنها إذا وقفت والأحمال عليها أضرت لها وكان ذلك تعذيباً لها.
- ينبغي لأصحاب الدواب أن يتقوا الله سبحانه وتعالى في استعمالها وأن يريحوها كل يوم وليلة لحاجتها إلى الراحة والسكون.
- في الرقابة على الجزارين، أن لا يذبخوا بسكين كالة لأن في ذلك تعذيب للحيوان.

● في الرقابة على البيطرة جاء: «علاج الحيوان أصعب علاجاً من أمراض الآدميين لأن الدواب ليس لها نطق تعبر به عما تجد من المرض والألم، وإنما يستدل عليها بالحس والنظر، فيحتاج البيطار إلى حسن بصيرة بعلل الدواب وعلاجها فلا يتعاطى البيطرة إلا من له معرفة وخبرة.

● ويمنع المحتسب من خصي البهائم.

● ويمنع المحتسب من نطاح الكباش ونقار الديوك (التحريش بين البهائم).

رابعاً: لقد كانت الحضارة الإسلامية سبّاقة إلى إنشاء جمعيات الرفق بالحيوان ومنذ زمن بعيد، فيروى أن الخليفة المعتصم بالله رأى ذات يوم، وهو على جواده كلباً مكسور الساقين يلهث من شدة العطش فدفعه الرفق بالحيوان إلى النزول عن جواده وصار يغترف من الماء بيديه من النهر ثم يتجه إلى الكلب فيسقيه، وقد فعل ذلك عدة مرات حتى ارتوى الكلب وحرك ذنبه شاكراً للإنسان برّه، ثم إنه عاد جمع الأمراء والأغنياء وألف تحت رعايته جمعية الرفق بالحيوان.

الثقافة والممارسات الغربية في ضوء موقف الإسلام:

مما يؤسف له أنه في إطار الهجمة الشرسة على الإسلام والمسلمين من قبل الغرب نجدهم يطلقون الاتهامات المغرضة والخاطئة على الإسلام والمسلمين بالقسوة في معاملة الحيوانات، والمقارنة الموضوعية بين موقف الإسلام وبين ثقافتهم وممارستهم من هذه القضية تظهر كذب ادعاءاتهم وتناقض مواقفهم، وهذا ما يمكن الاستدلال عليه من الآتي:

بالنظرة السريعة إلى بعض القوانين الغربية لرعاية الحيوانات نجد أن الإسلام كان سباقاً ومتفوقاً عليها في هذا المجال وهذا ما يظهر في سرد موجز لأهم محتويات هذه القوانين والتي تتمثل في الآتي:

١- الواجبات:

● وجوب إطعام الحيوانات.

● توفير المأوى المناسب.

- عدم الحد من الحركة.

- علاجها.

٢- الممنوعات:

- عدم التحميل فوق الطاقة.

- عدم الضرب.

- عدم تقديم طعام للحيوانات تسبب لها آلاما.

- تنظيم عملية قتل الحيوانات.

- تنظيم عملية ذبحها.

- منع البتر الكلى أو الجزئى لأحد أعضائها.

- منع التعذيب.

وبالنظر في هذه البنود نجد أن الإسلام سبق بها وفي تفوق واضح.

إن التناقض الواضح في الممارسات الغربية يظهر في التشدد والتطرف نحو الدعاوى بعدم انتفاع الإنسان بالحيوان فيما خلق له من العمل أو أكل اللحوم، وكذا في معاملة بعض الحيوانات وعلى الأخص الكلاب والقطط بعناية فائقة تزيد على عنايتهم بأبنائهم، وفي الوقت الذى تزيد لديهم ثقافة التدليل وفرط العناية للقطط والكلاب لا يتورعون عن ممارسات قتل الآخرين من غير جنسياتهم في الحروب وفي تصدير النفايات السامة والملوثة إليهم.

ومن ذلك التناقض ما نراه من النظرة النفعية غير الأخلاقية سواء في صناعة الحيوانات، أو في الصيد الجائر، للحيوانات البرية في الدول الأخرى للحصول على الجلود والعاج والفراء، وفي التحريش بين البهائم مثلا في رياضة مصارعة الثيران.

إن الإسلام بأصوله وفروعه وتطبيقاته يسبق ويتفوق على جميع الحضارات في توفير الرعاية للحيوانات والرفق بها مما يجب معه على المسلمين الالتزام بدينهم وضبط سلوكهم وفق أحكامه وتوجيهاته حفاظاً على الهوية الثقافية لهم، كما أن في ذلك ما يرد

على الدعاوى الظالمة للإسلام، وما أحوج العالم اليوم إلى هذه التعاليم الإسلامية للاستفادة بها في قيام حياة آمنة ورغدة يتحقق فيها التوازن بين الموجودات من إنسان وحيوان ونبات.

الخمرداء وليس بدواء

لقد كان الأطباء يزعمون في الأزمنة الغابرة وعلى زمن الرسول ﷺ وبعده، وحتى عهد قريب أن الخمر دواء وأن شرها باعتدال معين على الصحة. والأطباء يصرون في زمنه والأزمنة التي قبله والتي بعده أنها دواء! حتى جاء الطب في العصر الحديث وأبان زيف ما كان الأطباء يقولونه من أن في الخمر منافع شتى وعديدة للبدن وإنها تهضم الطعام وتشحذ الأذهان وتصفي الكبد وإنها معين عظيم على الصحة!!

عَنْ وَائِلِ الْحَضْرَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ طَارِقَ بْنَ سُؤَيْدٍ الْجُعْفِيَّ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْخَمْرِ فَهِيَ أَوْ كَرَهُ أَنْ يَصْنَعَهَا فَقَالَ: «إِنَّمَا أَصْنَعُهَا لِلدَّوَاءِ»، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ». (رواه مسلم).

قال الإمام النووي رحمته الله في شرحه لهذا الحديث: «هَذَا دَلِيلٌ لِتَحْرِيمِ اتِّخَاذِ الْخَمْرِ وَتَحْلِيلِهَا وَفِيهِ التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِدَوَاءٍ فَيَحْرُمُ التَّدَاوِي بِهَا لِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِدَوَاءٍ فَكَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُهَا بِلَا سَبَبٍ»^(١).

لقد أشار النبي ﷺ إلى حقيقة هامة قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة، تُكتشف في القرن الحادي والعشرين وهي أن الخمر ليست بدواء ولكنها داء وهذا ما أثبتته العلم الحديث. فقد اقترحت دراسات طبية كثيرة أن تناول كميات متوسطة من المشروبات الكحولية هو أمرٌ مفيدٌ للقلب ويقي من نشوء أمراض الشرايين التاجية ويخفف من تداعياتها.

ومنها نشأ اعتقاد لدى الكثيرين من الأطباء وغيرهم من الناس أن هذا الأمر صحيح طبيًا وعلميًا ولا مجال لمناقشته أو مراجعة صحته من عدم ذلك. بل إن بعضًا من الدراسات قال تحديدًا إن الممتنعين عن تناول المشروبات الكحولية أكثر عرضة

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي (١٣ / ١٥٣).

للوفاة، وفي وقت مبكر من العمر، بأمراض القلب مقارنة بمن يتناولونه بكميات متوسطة!

لكن الحدث الأبرز علميًا وطبيًا في شهر أبريل ٢٠٠٦، هو أن الباحثين من الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وضمن فريق عمل بحثي دولي، قالوا إن المراجعة العلمية الدقيقة لمجمل الدراسات الطبية في هذا الشأن لا تدل على صحة هذه المقولات البتة، وأنه بمراجعة فاحصة ودقيقة لأكثر من ٥٤ دراسة علمية في هذا المجال لا يمكن الاستنتاج منها مطلقًا أن تناول كميات متوسطة من الكحول يقي من أمراض القلب وخصوصًا أمراض الشرايين التاجية.

وتقول رابطة القلب الأميركية في نشراتها الحديثة أن تناول الكحول بكثرة يؤدي إلى ارتفاع الدهون الثلاثية في الدم، ويرفع من مقدار ضغط الدم، ويزيد من عرضة الإصابة بفشل القلب، كما يزيد من احتمالات الإصابة بجلطات الدماغ، واضطرابات إيقاع نبض القلب، والموت المفاجئ.

تناول الكحول يترك أثرا طويلا الأمد على الدماغ:

كشفت دراسة علمية حديثة عن أن الخمر تضعف أداء المخ أكثر مما كان يعتقد من قبل. وقام العلماء بفحص تأثير الكحول على بعض الوظائف المعقدة التي يضطلع بها المخ مثل التفكير المجرد والتخطيط والقدرة على مراقبة ردود الأفعال استجابة لتأثير خارجي. ووجد الباحثون أن الأداء في هذه المناطق تأثر حتى بعد انخفاض نسبة تركيز الكحول في الدم إلى درجة لا يشعر بوجودها الشخص المعني. وقد بدا التأثير على وظائف المخ المعقدة أكثر وضوحًا عندما بدأ تركيز الكحول في الدم في الانخفاض.

أكثر من مليون حادث في بريطانيا بسبب الكحول:

أكدت إحصائيات نشرت مؤخرا أن تناول الكحول هو السبب المباشر لأكثر من ما يعادل ٢, ١ مليون حادث وعملية عنف جرت في عام ٢٠٠٩ في بريطانيا، كما تظهر الإحصائية أن ٣٠ ألف شخص دخلوا المستشفيات خلال سنة واحدة في إنجلترا بعد إصابتهم بأعمال عنف نتيجة التناول المفرط للكحول.

وتوضح الإحصائية أرقامًا مذهلة فيما يتعلق بالموت المبكر، إذ أثبتت أن ٢٢ ألف شخص ماتوا مبكرًا بسبب الإفراط في تناول الخمر بكل أنواعها، وأن ١٧ مليون يوم عمل ضاعت بسبب الكحول أيضًا، وتؤكد الإحصائية الرسمية أن الإفراط في تناول المشروبات الكحولية يسبب خسائر تصل إلى نحو ٢٠ مليار جنيه إسترليني سنويًا في دولة مثل بريطانيا.

الوفيات الناتجة عن الخمر:

تعتبر الخمر أهم ثاني سبب للوفيات في الولايات المتحدة، وفي كل عام يتوفي ١٢٥٠٠٠ شخص بسبب تعاطي الخمر، وما تؤدي إليه من حوادث السيارات والطرق، وجرائم القتل، والوفيات الناتجة عن أمراض وبيلة وقعت بسبب شرب الخمر.

وهم كاذب:

ولا تزال الخمر تشرب حتى اليوم بناء على وهم أنها تدفئ الإنسان من البرد. وهي توسع الأوعية الدموية تحت الجلد فيشعر بالدفء ويفقد حرارة جسمه، كما أنها تمنع المناطق المخية المسؤولة عن تنظيم حرارة الجسم فيما يسمى (تحت المهاد) فيؤدي ذلك إلى فقدان حرارة الجسم.

ومن المأسى التي تحدث كل عام في أعياد الميلاد ورأس السنة أن يتوفي المئات في روسيا والولايات المتحدة وأوروبا من فقدان حرارة أجسامهم بعد شرب الخمر والانغماس فيها، والبقاء في الحداثق والأماكن المفتوحة فيموتون من البرد وهو يتمتعون بالدفء الكاذب.

وقد نشرت المجلة الطبية لأمريكا الشمالية عدد يناير ١٩٨٤م أن شرب الخمر هو أهم سبب لحدوث الوفيات الناتجة عن انخفاض درجة حرارة جسم الإنسان.

مؤلف معاصر يتحدث عن المنافع الموهومة للخمر!!!

ذكر سعيد جرجس كوبلي في كتابه (أسرار الطب العربي القديم والحديث) في معالجته لبعض الأمراض استخدام السبرتو والويسكي لمعالجة البول السكري. فقد

جاء في الصفحة ٦٥ من الكتاب المذكور أن الويسكي مع دبس الرمان، تؤخذ بعد العشاء لمدة ١٥ يوما كقيلة بالقضاء على البول السكري. وفي الصفحة التالية (٦٦) ذكر أن ملعقة السبرتو الأبيض على الريق مع ملعقة من دبس الرمان لمدة ١٥ يوما تكفي لمعالجة الشخص من البول السكري وشفائه التام منه.

والحقيقة العلمية أن السبرتو من السموم الناقعة المحتوية على الكحول الإيثيلي والميثيلي والمسبب للوفيات المفاجئة بسبب تسمم عضلة القلب، والعمى بسبب إصابة عصب الإبصار.

وكوبلي هذا ليس طبيباً بل هو خوري في كنيسة في إحدى قرى لبنان وجد طريقه إلى الثروة والشهرة بسبب وصفاته الطبية الرهيبة القاتلة. وكتابه لا يزال يطبع ويوزع على نطاق واسع في العالم العربي، رغم أنه كله مبني على الخرافات، حيث تجد فيه أن لحم الهر يشفي من السل، والسبرتو تقضي على البول السكري، وقطعة من دهن الخنزير علاج للربو، والبصاق على قطعة من الفخار علاج لكل أوجاع الرأس... إلخ.

المنظمات الصحية العالمية والأبحاث العلمية تحذر من مخاطر شرب الخمر:

يقول تقرير منظمة الصحة العالمية رقم ٦٥٠ لعام ١٩٨٠م عن الكحول ومشكلاتها: «إن شرب الخمر يؤثر على الصحة، ويؤدي إلى مشكلات تفوق المشكلات الناتجة عن الأفيون ومشتقاته (الهروين والمورفين)، والحشيش، والكوكايين والأمفيتامين، والباربيتورات، وجميع ما يسمى مخدرات مجتمعة. إن الأضرار الصحية والاجتماعية لتعاطي الكحول تفوق الحصر».

ويقول تقرير الكلية الملكية للأطباء النفسيين بالمملكة المتحدة (١٩٨٦م) عن مشكلة تعاطي الخمر: «إن الكحول مادة تسبب تحطيم الصحة بما لا يقاس معها الخطر على الصحة الذي تسببه المخدرات مجتمعة. وإن معظم المخاطر على الصحة العامة من العدد الكبير الذي يتناول كميات معتدلة من الكحول».

ويؤكد هذا المعنى تقرير الكلية الملكية للأطباء بالمملكة المتحدة والصادر عام ١٩٨٧م وعنوانه: "العواقب والمخاطر الصحية لتعاطي الكحول وباء خطير وشر

مستطير"، حيث يقول: «إن المخاطر الصحية المتعلقة بتعاطي الكحول ليست ناتجة بالدرجة الأولى من العدد القليل الذي يتناول كميات كبيرة من الكحول، ولكن الخطر الأعظم على الصحة العامة هو من العدد القليل الذي يتناول كميات كبيرة من الكحول باعتدال وانتظام. إن تعاطي ٦٠ جرامًا من الكحول يوميًا يؤدي إلى زيادة كبيرة في حدوث ضغط الدم والسكتات الدماغية، وأمراض الكبد، والعقم، وضعف الباءة، وأمراض الجهاز العصبي أما بالنسبة للمرأة فإن نصف هذه الكمية كفيلة بإحداث هذه الأمراض الوييلة».

ويذكر تقرير منظمة الصحة العالمية في الاجتماع الثالث والستين لعام ١٩٧٩م (الدورة ٣٢) أن تعاطي الخمر هي إحدى المشكلات الصحية الكبرى في العالم، وأن الاستمرار في تعاطيها يعيق التقدم الصحي والاجتماعي والاقتصادي في معظم المجتمعات بل وتشكل عائقًا كبيرًا في المجال الصحي، وتعتبر أحد العوامل الهامة جدًا التي تؤدي إلى تحطيم الصحة العامة والتي لا يوجد حل لها.

وفيما يلي استعراض مختصر للأمراض الناتجة عن شرب الخمر على عكس ما كان يظنه الأطباء القدماء:

القلب:

ارتفاع ضغط الدم (التوتر الشرياني)، السكتات الدماغية، هبوط القلب واضطرابات نبض القلب، زيادة ثلاثي الجلسرايد.

إن كل قطرة من الكحول يحترقها الشارب تمر عن طريق القلب، ومع هذا الاجتياز يزداد تأثر القلب، فيزداد نبضه ليعمل فوق طاقته، مما يؤدي في النهاية إلى إرهاقه وتعبه.

ولقد كان الاعتقاد السائد إلى عهد قريب أن الخمر تنفع في علاج بعض أمراض القلب مثل الذبحة الصدرية (خناق الصدر) وارتفاع الضغط وغيرها. ولكن بفضل الله بدأ يتكشف زيف تلك الأوهام مع تطور الأبحاث الطبية الحديثة، ففي القرن

الماضي بدأت تتكشف العلاقة الوطيدة بين الإدمان على الكحول والإصابة بأمراض القلب المختلفة.

لقد أثبتت التجارب العلمية بأن تعاطي الكحول ولو لمرة واحدة يؤدي إلى زيادة فورية في محتوى خلايا القلب من الجليسرين، والتي تمر بعدة مراحل: حيث يبدأ القلب أولاً باستقطاب الدهون ثلاثية الجليسرين من الدم، ثم تحفز خلايا القلب لتكوين هذا النوع من الدهون بنفسها فيكثر بذلك مخزون القلب من الدهون.

كما وجد أن الكحول يساعد على امتصاص الدهون من الأمعاء فترتفع بذلك نسبتها في الدم وخصوصاً الكوليسترول، وكل تلك العوامل تساعد على تصلب الشرايين، حيث تتجمع الدهون وبخاصة الكوليسترول على جدران الأوعية الدموية، مما يؤدي إلى تصلبها ومن ثم تضيقها وتكون جلطة دموية، والتي تؤدي إلى فقدان العضو لكمية الدم التي يحتاجها فيصاب بالاحتشاء ثم الموت.

إن تعاطي الكحول ولو لمرة واحدة يؤدي إلى انسحاب عنصري البوتاسيوم والفوسفات من خلايا عضلة القلب، كما يزداد تركيز الصوديوم داخل هذه الخلايا مما يؤدي لاختلال في وظيفة القلب، وكل تلك الاضطرابات تعود غالباً لحالها الطبيعي بمجرد الإقلاع عن شرب الخمر. كما وجد أن الإدمان على الكحول يتسبب في نقص عنصر الزنك مما يؤدي إلى اختلال في وظيفة القلب كذلك.

وقد ظهر من خلال العديد من الدراسات أن الكحول يحدث خللاً في قدرة القلب على الانقباض ومن ثم انخفاض معدل ضخه للدم حتى في حالة عدم وجود أي أعراض مرضية في القلب. ويؤدي إلى اعتلال العضلة القلبية الكحولي: وهو مرض خطير يكثر عند الرجال المدمنين على شرب الكحول لفترات طويلة تمتد من (١٠) إلى (١٥) سنة، ويمثل الإفراط على تعاطي الكحول نحو (٢٠٪) من الأسباب المؤدية للإصابة باعتلال عضلة القلب.

الجهاز الهضمي:

التهاب الفم، البلعوم، المريء، نزيف المريء وسرطان المريء، التهاب المعدة الضموري، قرحة المعدة والاثني عشر، سرطان المعدة، التهاب الأمعاء، التهاب البنكرياس الحاد والمزمن، التهاب الكبد، دهنية الكبد، تليف الكبد، سرطان الكبد.

تقول مجلة Medicine International العدد ٦٢ لعام ١٩٨٩ م: «تؤدي الخمر إلى زيادة حدوث سرطان المريء، كما تسبب نزفًا في المريء ودوالي في أسفله، والتهابا مزمنًا فيه وتكثر الإسهالات والبواسير عند شارب الخمر، كما قد يحدث التهاب حاد في البنكرياس الذي قد يكون مميتًا».

الخمر والجنس:

٥٠٪ من جميع جرائم الاغتصاب تحت تأثير الخمر (منظمة الصحة العالمية).
معظم حالات الاعتداء على المحارم كانت بسبب تأثير الخمر (دائرة المعارف البريطانية).

وهي تؤثر تأثيرًا سميًا على الغدة التناسلية (الخصية) وعلى الجهاز العصبي غير الإرادي المنوط بعملية الانتصاب، كما أن الكبد المريضة بسبب تعاطي الخمر تفقد قدرتها على إزالة هرمون الأنوثة الذي تفرزه الغدة الكظرية. وبالتالي يصاب بالعنة وتضخم الأثداء.

المرأة والخمر:

جسم المرأة لا يتحمل نصف الكمية التي يتعاطاها الرجل من الكحول.
اضطراب الدورة، كثرة الإجهاض وولادة أجنة ناقصة.
متلازمة الكحول الأجنة "Alcohol Fetal syndrome" صغر الدماغ والفكين والتخلف العقلي والبدني، وصغر حجم العينين مع عيوب خلقية في القلب.

الخمَر والجهاز البولي:

الخمَر تدر البول، ولكنها تؤدي إلى تنكروموات حليبات الكلية وهو مرض خطير يؤدي إلى الفشل الكلوي المزمن. وتسبب احتقان البروستاتا والمعاناة الشديدة للذين يعانون من تضخم البروستاتا.

الجهاز الدموي:

نقص جهاز المناعة ونقص الخلايا الليمفاوية المناعية، عدم تحرك خلايا الدم البيضاء لمواجهة الميكروبات، نقل المقاومة للأمراض مع نقص شديد في الفيتامينات، أنواع من فقر الدم أهمها بسبب نقص حامض الفوليك، انحلال خلايا الدم الحمراء، زيادة نشاط الطحال، تكرار النزف.

الجهاز التنفسي:

التهابات الجهاز التنفسي المتكررة والخطيرة، الالتهاب الرئوي وخراج الرئة والديبيلة، السل الرئوي، زيادة في سرطان الحنجرة.

الغدد الصماء والاستقلاب^(١):

فرط نشاط الغدة الدرقية أول الأمر ثم ينتهي بنقصان نشاطها وحدوث الميكسوديميا.

فرط نشاط الغدة الكظرية (فوق الكلية).

هذا غيض من فيض من الأمراض التي يسببها تعاطي الخمر ومن أراد المزيد فليرجع إلى المراجع الطبية الحديثة أو إلى كتاب: (الخمَر بين الطب والفقه) وكتاب: The problem of Alcohol and Solution in Islam (المشكلة في الكحول

(١) استقلاب: أيض: تحوُّل الغذاء إلى طاقة.

والحل في الإسلام) للدكتور محمد علي البار، وكتاب الدكتور حسان شمسي باشا (أطباء الغرب يحذرون من شرب الخمر) أو المراجع الطبية العديدة.

وجه الإعجاز في أحاديث النبي ﷺ في هذا الموضوع:

نهت أحاديث المصطفى ﷺ عن التداوي بالخمير، والتدفئة بها، وصرحت بأنها داء وليست بدواء أو شفاء في زمن كان العرب يعتبرونها فيه دواء وغذاء وباعثة على الكرم والشجاعة والسخاء، واستمر الأطباء عبر القرون المختلفة في اعتقاد ذلك الوهم وأنها مُعين على الصحة مَخَصَّبة للبدن، شاحذة للفكر، مقوية للجسم، مهضمة للطعام، وأن شربها باعتدال من أهم أسباب الصحة والعافية، بل إن السُّكْر والعريضة منها مرة أو مرتين في الشهر مفيد للصحة أيضا.

ثم جاء الطب الحديث فأوضح زيف جميع ما قالوه، وأنه الباطل، والبهتان، والأوهام. وبهذا يتضح أن ما قاله الحبيب المصطفى ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه وأن الخمر داء وليست بدواء كما زعم بعض الأطباء، وأنها لا تدفئ الجسم بل تؤدي إلى فقدان الحرارة وموت الإنسان من البرد بينما يشعر بالدفء الكاذب، وبذلك تكون أحاديث النبي ﷺ في هذا الموضوع معجزة علمية لم تظهر أبعادها إلا في القرن العشرين.

النهى عن الجلوس على مائدة يشرب الخمر عليها:

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَفْعِدَنَّ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ» (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ، وصححه الألباني).

لقد حرم الإسلام على المسلم الجلوس مع شارب الخمر وإن لم يشربه مع أهل المائدة لما فيه من التقاء على المنكر. والعلماء في العصر الحديث يحذرون من الجلوس على مائدة يُشرب عليها الخمر لأن الرائحة المنبعثة والتي يستنشقها الإنسان تؤدي إلى أضرار جسيمة أهمها:

- تؤثر المادة المتبخرة من كأس الخمر على الجملة العصبية للإنسان وتُحدث اضطرابات في نظام عمل الدماغ.
 - يؤثر هذا البخار على معدل دقات القلب وضغط الدم ويؤدي إلى صداع واكتئاب وقد يدخل في غيبوبة، وذلك حسب الكمية المستنشقة.
 - إن شرب الخمر "السليبي" له آثار مدمرة، فالأضرار الناتجة عن تعاطي الخمر لا تمسّ الشارب فقط، بل الجالس معه أيضًا يناله نصيب من الضرر.
- وقد كان الاعتقاد في الماضي أن الجلوس على موائد الخمر أمر طبيعي ولا ضرر منه، ولكن الدراسات العلمية أثبتت هذه الأضرار تمامًا مثل التدخين السلبي الذي يؤثر على غير المدخنين والجالسين مع المدخنين.

حكمة التشريع الإسلامي في تحريم الوطء في الحيض

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعَزِّلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعَزِّلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا التَّكَاحَ». (رواه مسلم).

أذى المحيض:

- يقذف الغشاء المبطن للرحم أثناء الحيض وبفحص دم الحيض تحت المجهر نجد بالإضافة إلى كرات الدم الحمراء والبيضاء قطعاً من الغشاء المبطن للرحم. ويكون الرحم متقرحاً نتيجة لذلك. فهو معرض للعدوى البكتيرية. ومن المعلوم طبيياً أن الدم هو خير بيئة لتكاثر الميكروبات ونموها وتقل مقاومة الرحم للميكروبات الغازية نتيجة لذلك ويصبح دخول الميكروبات الموجودة على سطح القضيبي يشكل خطراً داهماً على الرحم.
- ومما يزيد الطين بلةً أن مقاومة المهبل لغزو البكتيريا تكون في أدنى مستواها أثناء الحيض؛ إذ يقل إفراز المهبل الحامض الذي يقتل الميكروبات ويصبح الإفراز أقل حموضة إن لم يكن قلوي التفاعل.
- كما تقل المواد المطهرة الموجودة بالمهبل أثناء الحيض إلى أدنى مستوى لها، ليس ذلك فحسب ولكن جدار المهبل الذي يتألف من عدة طبقات يقل أثناء الحيض إلى أدنى مستوى لها.

- يمتد الالتهاب إلى قناة الحيض إلى أدنى مستوى لها.
- يمتد الالتهاب إلى قناة مجرى البول فالكُلَى.
- يصاحب الحيض آلام شديدة.
- تصاب كثير من النساء أثناء الحيض بحالة كآبة وضيق كما أن حالتها العقلية والفكرية تكون في أدنى درجاتها أثناء الحيض لذلك نهى رسول الله ﷺ عن تطليق النساء أثناء الحيض.
- تصاب بعض النساء بصداغ نصفي قرب بداية الحيض وآلام مبرحة.
- تقل الرغبة الجنسية لدى المرأة أثناء الحيض.
- يسبب الحيض فقر دم للمرأة.
- تنخفض درجة حرارة المرأة أثناء الحيض درجة مئوية واحدة.
- تزيد شراسة الميكروبات أثناء الحيض وخاصة ميكروبات السيلان.
- تصاب الغدد بالتغير فتقل إفرازاتها.
- يُعطى النبض وينخفض ضغط الدم فيسبب الشعور بالدوخة والفتور والكسل
- لا يتم الحمل أثناء الحيض.
- لا يقتصر الأذى على الحائض بل ينتقل الأذى إلى الرجل الذي وطئها أيضًا.
- ظهر بحث حديث قدمه البروفسور (عبد الله باسلامة) إلى المؤتمر الطبي السعودي جاء فيه: أن الجماع أثناء الحيض قد يكون أحد أسباب سرطان عنق الرحم ويحتاج الأمر إلى مزيد من الدراسة.
- وتنتقل الميكروبات من قناة الرحم إلى مجرى البول البروستات والمثانة.
- والتهاب البروستات سرعان ما يزمن لكثرة قنواتها الضيقة الملتفة والتي نادرًا ما يتمكن الدواء بكمية كافية من قتل الميكروبات المخفية

في تلافيفها. فإذا ما أزمّن التهاب البروستاتا فإن الميكروبات سرعان ما تغزو بقية الجهاز البولي التناسلي فتنتقل إلى الحالبين ثم إلى الكلى، وهو العذاب المستمر حتى نهاية الأجل.

- وقد ينتقل الميكروب من البروستاتا إلى الحويصلات المنوية فالجبل المنوي فالبربخ فالخصيتين، وقد يسبب ذلك عقمًا بسبب انسداد قناة المنى.

كيف عالج الإسلام مرض السمنة والوزن الزائد؟

تصدر في كل يوم النشرات والمقالات العلمية حول مخاطر السمنة والوزن الزائد، والأضرار التي يسببها تعاطي الطعام بكميات كبيرة. ونجد العلماء اليوم ينصحون بالاعتدال الغذائي وأن يقتصر الإنسان على كميات قليلة من الطعام حسب حاجة جسمه.

إن أي وزن زائد على المعدل الطبيعي هو بمثابة ثقل يرهق الجسم باستمرار وخصوصاً القلب. ولا يخفى علينا كيف يؤثر الشحم الزائد على القلب وانسداد الشرايين وتصلبها. وتظهر كل يوم مئات الوصفات الطبية والأدوية والأساليب لتخفيف الوزن.

ولكن العلاج النبوي يبقى الأمثل. فقد حدثنا الرسول الكريم ﷺ فقال: «مَا مَلَأَ آدَمِيَّ وَعَاءٌ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتٍ يُقْمَنَ صَلْبُهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَتُلُتْ لِبَطْنِهِ وَتُلُتْ لَشِرَائِهِ وَتُلُتْ لِنَفْسِهِ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

وفي رواية لابن ماجه، صححها الألباني: «مَا مَلَأَ آدَمِيَّ وَعَاءٌ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقِيَمَاتٌ يُقْمَنَ صَلْبُهُ فَإِنْ غَلَبَتِ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَتُلُتْ لِلْبَطْنِ وَتُلُتْ لِلشَّرَابِ وَتُلُتْ لِلنَّفْسِ».

إن جميع الأبحاث حول إنقاص الوزن أو الوقاية من البدانة تؤكد على أن الحل الأمثل والعلاج الأكثر فعالية هو اعتماد نظام غذائي متوازن. أليس هذا هو ما أمر به الرسول الكريم ﷺ قبل العلم الحديث بقرون طويلة؟

ويقول الباحثون اليوم: إن أفضل طريقة لعلاج الوزن الزائد هو اعتماد نظام غذائي متوازن. وإن الذي يضر الشخص السمين ليس هو كثرة الطعام، بل الذي يضره هو جهله بالنظام الغذائي وتأثير المادة التي يأكلها على جسده.

فإذا أردت أن تخفف وزنك فعليك أولاً وقبل كل شيء أن تمتلك ثقافة غذائية، وهذا ما نجده في كلام حبيبنا محمد ﷺ عندما حذر من امتلاء البطن في قوله: «مَا مَلَأَ أَدَمِيَّ وَعَاءٌ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ».

وقد أشار النبي ﷺ في هذا الحديث إلى عدة حقائق، فقد شبه النبي ﷺ المعدة (المشار إليها في الحديث بالبطن) بالوعاء. وأخبر النبي ﷺ أن ملء هذا الوعاء بكثرة الأكل شر على الإنسان. ونصح بالاكْتفاء من الطعام على قدر الاحتياج، وقسم النبي ﷺ حجم المعدة إلى ثلاثة أقسام وأخبر أن أكبر كمية من الطعام والشراب يمكن أن يتناولها المرء عند الحاجة الملحة هي مقدار ما يملأ ثلثي حجم المعدة. وأخبر النبي ﷺ أن ترك ثلث حجم المعدة خالياً من الطعام والشراب ضروري لنفس الإنسان.

وقد أثبت العلم الحديث هذه الحقائق وأيدها، وتقسيم حجم المعدة إلى ثلاثة أثلاث: ثلثين للطعام والشراب، وثلث للنفس، لم يُذكر سُدى في هذا الحديث بل لحكمة بالغة تجلت ووضحت في هذا الزمان، فلماذا هذا التقسيم وتحديد بالثلث؟ ثم كم مقدار هذا الثلث؟ وما الذي يحدث إذا تجاوز المرء ولم يلتزم بهذا التوجيه النبوي؟ لقد أمكن الإجابة على ضوء المعارف الطبية الحديثة.

فالمعدة هي جزء متسع من القناة الهضمية وتقع بين المريء والأمعاء الدقيقة ويقع معظمها تحت الغشاء المبطن للضلوع، وتتمثل على ظاهر البطن في المنطقة الشراسيفية، ومنطقة السرة ومنطقة الربع الأيسر الأعلى من البطن.

وتحيط بها من الداخل الأعضاء التالية:

من الأمام: الفص الأيسر من الكبد وجدار البطن الأمامي.

ومن الخلف: الجزء الباطني من الشريان الأورطي والبنكرياس والطحال والكلية اليسرى والغدة الكظرية.

ومن أعلى: الحجاب الحاجز والمريء والفص الأيسر من الكبد

ومن الأسفل: القولون المستعرض والأمعاء الدقيقة.

ومن الأسفل ليسار: الحجاب الحاجز والطحال.

ومن الأسفل لليمين: الكبد والاثناعشر.

وتتصل المعدة بالمرىء عند الصمام الفؤادي وهذا يمنع رجوع الطعام إلى المرىء كما تتصل بالأمعاء الدقيقة عند صمام البواب والذي يقفل عندما تحتوي المعدة على الطعام، ويقسم علماء الطب المعدة إلى ثلاث مناطق:

قاع المعدة، وجسم المعدة، ومنطقة الغار البوابي، وتتصل للمعدة الأعصاب الودية من الشبكة البطنية وهي المسؤولة عندما تثار وقت الشدة في تثبيط حركة الأمعاء وتثبيط إفراز العصارة المعدية، بينما تصل إليها الأعصاب نظيرة الودية من العصب المبهم، وهي المسؤولة عن تنشيط حركة الأمعاء وتنشيط إفراز العصارة المعدية، ويتجمع الطعام في المعدة في هيئة طبقات يبقى الجزء الأخير منه في قاع المعدة لبعض الوقت ثم يُخَلَطُ بالعصارة المعدية بالتدريج كما يبقى لبعض الوقت أيضاً لإضافة العصارة الحمضية على الطعام لوقف عمل أنزيمات اللعاب.

ويتركب جدار المعدة من ثلاث طبقات من العضلات: طبقة خارجية من ألياف عضلية طولية، وطبقة متوسطة من ألياف عضلية مستديرة، وطبقة داخلية من ألياف عضلية مائلة، وهذا التنظيم يسمح بالحركة الطاحنة المميزة لنشاط المعدة بالإضافة إلى حركتها الدودية، وتتقوى العضلات المستديرة في منطقة الغار البوابي والصمام البوابي؛ وذلك لإحكام إغلاق هذين الصمامين وقت الحاجة، أما الغشاء المبطن للمعدة فيكون في ثنيات طولية أو تجاعيد عندما تكون المعدة فارغة، وعند امتلائها تزول هذه التجاعيد وتصبح بطانة المعدة ذات ملمس مخملي، وتحت هذا الغشاء توجد غدد عديدة لإفراز العصارة المعدية، وتفرز المعدة حوالي لترين من هذه العصارات في اليوم.

ويعتمد إفراغ المعدة على نوعية الطعام بداخلها؛ فوجبة الكربوهيدرات تترك المعدة بعد ٢ - ٣ ساعات، بينما تتأخر وجبة البروتينات إلى فترة أطول، وأما وجبة الدهون فتتمكث فترة أطول منهما.

الحجم الأقصى للمعدة:

يختلف حجم المعدة بحسب كمية الطعام التي تحتويها. فحينما يدخل الطعام إلى المعدة نجد أنها تنتفخ تدريجيًا للخارج مستوعبة كميات أكبر وأكثر من الطعام، حيث تتمتع الألياف العضلية الملساء في المعدة بخاصية المرونة، حتى تصل إلى أقصى حد لها وهو حوالي لتر ونصف اللتر.

ويظل الضغط داخل المعدة منخفضًا حتى تقترب من هذا الحجم بناء على قانون لابلاس القائل بأنه كلما ازداد قطر الجسم كلما ازداد التقعر في جداره، فلا تسبب زيادة قطر المعدة ارتفاعًا في الضغط داخلها إلا بدرجات ضئيلة جدًا، وبما أن حجم المعدة حوالي ١,٥ لتر يمكن تقسيم حجم المعدة إلى ثلاثة أقسام متساوية سعة كل قسم نصف لتر (٥٠٠ مل).

ثالث حجم المعدة الفارغ ضروري لنفس الإنسان:

هناك علاقة حيوية بين المعدة والتنفس حيث تكمن المعدة في الجزء العلوي من التجويف البطني تحت الحجاب الحاجز مباشرة وتستقبل الطعام بعد مضغه وبلعه ومروره بالمريء. وللمعدة قدرة كبيرة على تغيير حجمها، فهي تبدو صغيرة عندما تكون فارغة، وتمتد كثيرًا بعد تناول وجبة كبيرة، وعندئذ يشعر الإنسان بعدم الراحة وصعوبة في التنفس، ويعني ذلك أن المعدة قد امتلأت أكثر من اللازم حتى أصبحت تشغل حيزًا يزيد عن المعتاد فضغطت على الحجاب الحاجز. فأوجد هذا صعوبة في تقلصه وإعاقته عن الحركة إلى أسفل بالقدر اللازم لحدوث تنفس عميق.

دورة التنفس وعلاقتها بالمعدة:

تتكون دورة التنفس من الشهيق والزفير وفترة راحة بينهما، ويتسع القفص الصدري أثناء الشهيق نتيجة لنشاط عضلي - بعضه إرادي وبعضه غير إرادي - والعضلات الرئيسية التي تتحكم في التنفس الطبيعي الهادئ هي العضلات بين الأضلاع وعضلة الحجاب الحاجز، أما في التنفس الصعب أو العميق وهو تنفس طارئ فتدخل فيه عضلات الرقبة والصدر والبطن.

ويشكل الحجاب الحاجز فاصلاً بين التجويف الصدري والبطني؛ فهو يمثل أرضية للتجويف الصدري وسقفاً للتجويف البطني، ويقع في مقابل الفقرة الصدرية الثامنة في حال ارتخائه، وعندما تنقبض عضلته يتسع التجويف الصدري في الطول وذلك لاتصالها بالضلوع الأول الثابت في الصدر، وعندئذ يقع الحجاب الحاجز مقابل الفقرة الصدرية التاسعة، كما يتسع التجويف الصدري من الجانبين والأمام والخلف بسبب انقباض العضلات بين الضلوع، وهذا الاتساع يؤدي إلى انخفاض الضغط داخل التجويف الصدري وارتفاعه داخل التجويف البطني، وعندما تزداد سعة القفص الصدري بواسطة هذه الانقباضات العضلية تتحرك الجنبه الجدارية مع أسطح الصدر والحجاب الحاجز، وهذا يؤدي إلى خفض الضغط داخل التجويف البللوري فتتمدد الرئتان.

ويؤدي تمددهما إلى انخفاض الضغط داخل الحويصلات والممرات الهوائية فيندفع الهواء إليهما لكي يتعادل ضغط هواء الحويصلات الهوائية مع الضغط الجوي. وقد وجد أن انخفاض هذا الضغط انخفاضاً طفيفاً يكفي لتحريك حوالي نصف لتر من الهواء إلى الرئتين في خلال ثانيتين وهي المدة اللازمة للشهيق، كما أن انخفاض هذا الضغط داخل التجويف الصدري يساعد في رجوع الدم الوريدي غير المؤكسد إلى القلب ويعرف بمضخة التنفس.

حجم هواء التنفس:

تذكر المراجع الطبية الحديثة أنه مع كل شهيق وزفير في التنفس الطبيعي تدخل إلى الرئتين وتخرج منها حوالي ٥٠٠ ملليمتر من الهواء مع كل تنفس وبما أن هذه الكمية تدخل وتخرج بانتظام كمد البحر فإنها لذلك تسمى الحجم المدي، وهو يقدر بجهاز خاص لقياس كمية الهواء المتبادل في عملية التنفس يسمى مقياس النفس.

الطعام وكيف يستفيد منه الجسم؟

يتكون الطعام الذي نأكله من البروتينات، والكربوهيدرات، والدهون، والفيتامينات مخلوطة بأثر بسيط من معادن الأرض، ولقد هيأها الله سبحانه في صور شتى، وألوان مختلفة، وطعوم جذابة، ليتناولها الإنسان بشغف.

ويستفيد الجسم من الطعام بتحويله إلى مكوناته الأولية وتحرر الطاقة الكامنة فيه بين جزئيات مواده وذراتها عبر عملية تسمى بالتمثيل الغذائي؛ والتي يمكن تلخيصها بعملية البناء والهدم. ففي عملية البناء تستخدم مكونات الغذاء المختلفة بعد تحليلها بالعصارات الهضمية وامتصاصها في بناء الخلايا الجديدة، والمركبات الحيوية المختلفة، وفي عملية الهدم يقوم الجسم بحرق مكونات الطعام بخطوات دقيقة ومتدرجة حيث تؤكسد فيها: الكربوهيدرات، والبروتينات والدهون، منتجة ثاني أكسيد الكربون، والماء، والطاقة.

ويستفيد الجسم من الطاقة التي حصل عليها في تشغيل أجهزته المختلفة، وفي الحركة، وفي إنتاج الحرارة اللازمة لحفظ درجة ثابتة لا تتغير، وما يزيد عن حاجته منها يخزن في مخازن خاصة تستجلب عند الحاجة إليها.

مصير الطاقة الفائضة:

تفيض الطاقة عن حاجة الجسم الفعلية وتخزن في داخله، إما على هيئة مواد غذائية مكثفة تنطلق منها الطاقة الكامنة فيها عند أكسدها، كالدهون المخزنة تحت سطح الجلد وداخل الجسم، والبروتينات المخزنة في العضلات وخلايا الأنسجة الأخرى، والجليكوجين المخزن في الكبد والعضلات.

ويتم اختزان الطاقة على هذه الهيئة أثناء المرحلة المتوسطة من التمثيل الغذائي، حيث تكون المركبات الكيميائية الناتجة من السكريات والأحماض الأمينية والدهون

متشابهة إلى حد بعيد، ويمكن عندئذ تحويل كل منها للآخر ومقادير هذه الطاقة المخزنة في الشخص البالغ الذي يزن ٧٠ كجم تصل إلى ١٦٦ ألف كيلو كالوري ^(١) تشكل الدهون فيها أعلى نسبة، وهذه الطاقات تكفي لحياة الإنسان من شهر إلى ثلاثة شهور لا يتناول فيها طعاماً قط.

أو تحتزن الطاقة في روابط كيميائية لبعض المركبات ذات القدرة على اختزان كميات هائلة منها في المرحلة الأخيرة من الهدم، حيث تتحول جميع المركبات الكيميائية إلى ثاني أكسيد الكربون وذرات الهيدروجين التي تتأكسد لتكون الماء، وتطلق الطاقة من هذه التفاعلات، ولا تستطيع الخلايا أن تستخدمها مباشرة، ولكنها تحتزن في مركبات فوسفورية عالية الطاقة.

وخير مثال لهذه المركبات هو مركب الأدينوزين ثلاثي الفوسفات، والذي يعتبر المخزن الرئيس للطاقة في الجسم، حيث تحتزن الطاقة في هذا المركب العجيب حسب عدد روابطه الفوسفاتية، فالرابطة الثلاثية تحتزن كمية أكبر من الرابطة الثنائية، والثنائية أكبر من الأحادية، وتنطلق الطاقة منه على مراحل حسب رابطة الفوسفات أيضاً، فعندما تتحول إلى أدينوزين ثنائي الفوسفات تنطلق منه الكمية الأولى، وتنطلق الكمية الثانية عندما يتحول إلى أدينوزين أحادي الفوسفات، ثم يرجع المركب مرة أخرى إلى صورتيه - بعدما تحمل ذرات الأكسجين فيه مزيداً من الإلكترونات - مخزنةً بذلك كميات هائلة من الطاقة أثناء عملية الهدم، ليمد بها العمليات الحيوية في خلايا الجسم أثناء مرحلة البناء، وهكذا دواليك.

(١) الكالوري مُعادل قياس، ويعرف بأنه كمية الطاقة الحرارية اللازمة لرفع درجة حرارة جرام واحد من الماء درجة مئوية واحدة من ١٥ - ١٦ درجة مئوية، والوحدة الأكبر منه هو الكيلو كالوري ويساوي ١٠٠٠ كالوري.

إن الجزيء الواحد من الجلوكوز عندما يدخل إلى فرن الاحتراق في الخلية يُنتج ٣٨ جزيئاً من مركب الأدينوزين ثلاثي الفوسفات. وإذا علمنا أن الجزيء الواحد من هذا المركب يخزن طاقة من ١٠ - ١٢ كيلو كالوري، فانظر كم يعطي جزيء الجلوكوز الواحد من الطاقة المختزنة؟ وهل تتخيل كم يعطي الجرام منه، أو عدة جرامات؟ إنها أرقام فلكية! وهذا يمثل فقط (٤٠٪) من الطاقة المتحررة من جزيء الجلوكوز الواحد، أما الباقي وهو (٦٠٪)، فتنتقل كحرارة تنظم درجة حرارة الجسم. ويعتمد عدد جزيئات الأدينوزين ثلاثي الفوسفات الناتج من أكسدة الأحماض الدهنية على عدد ذرات الكربون في جزيء الحمض الدهني فالذي يحتوي على ٦ ذرات كربون فقط ينتج ٤٤ جزيئاً من مركب أدينوزين ثلاثي الفوسفات. والذي يحتوي منها على ١٦ ذرة ينتج ١٢٩ جزيئاً من أدينوزين ثلاثي الفوسفات، والذي إذا حوّل إلى وحدات الطاقة يبلغ ما يعطيه جزيء الحمض الدهني هذا ١٢٩٠ كيلو كالوري. فكم يعطي الجرام من الدهن؟.

توازن الطاقة:

لقد هيأ الله ﷻ جميع الكائنات الحية بحيث تكون لها طاقة متوازنة مع بيئتها، تأخذ منها على قدر حاجتها، إلا الحيوانات المستأنسة، أو الحيوانات ذات البيات الشتوي أو الإنسان، والذي إن قلّت كمية الطاقة التي يتناولها في طعامه عن الطاقة اللازمة لعملياته الحيوية ونشاطاته المختلفة، يكون توازن الطاقة لديه سلبياً، ويحصل الجسم على ما ينقصه منها مما اختزنه من الجليكوجين، والبروتين، والدهون، وبالتالي ينقص وزنه، كما يحصل التخزين بتناول كمية من الطعام أكثر من الحاجة اللازمة، فيزيد الوزن تبعاً لذلك.

الأضرار الناتجة عن الإفراط في الطعام في الطب الحديث:

السمنة (البدانة) وما يصاحبها من أمراض:

ترتبط السمنة بالإفراط في تناول الطعام خصوصاً الأطعمة الغنية بالدهون، وهي مشكلة واسعة الانتشار، وقد تقترن بزيادة خطر الأمراض القلبية الوعائية، مثل

قصور القلب، والسكتة القلبية، ومرض الشريان التاجي، ومرض انسداد الشرايين المحيطة بالقلب، وارتفاع ضغط الدم، ومرض السكري، وارتفاع دهون الدم.

ولا شك أن جلطة القلب لها علاقة بالسمنة وكذلك حصيات المرارة وداء النقرس وهو مرض مزمن يسبب نوبات من الآلام المفصليّة، وينتج عن زيادة الحامض البولي في الدم، فينشأ عن ذلك ترسب هذا الحامض البولي على شكل بلورات من يورات الصوديوم حول المفاصل، ومن أهم أسبابه: الإفراط في تناول الأطعمة الغنية بالمواد البروتينية (كاللحوم والأسماك) والأطعمة الغنية بالنيكلوبروتين (كالمخ والمخين والكبد ولوزة العجل).

وهناك أمراض أخرى لها علاقة بالسمنة أيضًا مثل: دوالي الساقين، فتق المعدة، الإمساك، التهابات، بطء شفاء الجروح، والتهاب المفاصل التنكسي.

وتحدث السمنة نتيجة لاضطراب العلاقة بين ثلاثة عناصر من الطاقة وهي: الكمية المستهلكة من الطعام، والطاقة المبذولة في النشاط والحركة، والطاقة المخزنة على هيئة دهون بصفة أساسية، فالإفراط في تناول الطعام مع قلة الطاقة المبذولة في الحركة يؤدي إلى ظهور السمنة خصوصًا مع توفر وسائل الحياة المريحة.

إن الإنسان العادي يستهلك حوالي ٢٠ طنًا من الطعام في فترة حياته، وحدوث نسبة ٢٥٪ من الخطأ في توازن الطاقة يؤدي إلى زيادة في الوزن تبلغ ٥٠ كجم، وهذه الزيادة عند شخص بالغ وزن ٧٠ كجم تجعل وزنه ١٢٠ كجم، وهذا من شأنه أن يبين مدى الدقة المطلوبة في تنظيم تناول الطعام للمحافظة على استقرار وزن الجسم.

ومن المعتقد أن السمنة تنجم إما عن خلل استقلابي (خلل في التمثيل الغذائي)، أو عن ضغوط بيئية، أو اجتماعية.

وقد تنجم البدانة أيضًا عن خلل في الغدد الصماء، أو عن أسباب نفسية واجتماعية متضافرة، تظهر على شكل إفراط في الأكل، وكثيرًا ما يتزامن حدوث الاضطرابات الاستقلابية ^(١)، والضغط البيئي، بحيث يكمل أحدهما الآخر فتتفاقم الحالة. وفي المقابل يرى كثير من العلماء أن الاضطراب النفسى الذي يفضى إلى الشراهة في تناول الطعام، والذي يتسبب في السمنة، قد يؤدي إلى ظهور اضطرابات في عملية الاستقلاب أو التمثيل الغذائي، وبالتالي فمن المتعذر تفسير الاضطرابات الرئيسة في توازن الطاقة - في حالة السمنة - بأنها عبارة عن التغير في أحد العناصر، ولكن يظل واضحًا تمامًا أن الإفراط في الأكل هو أحد العوامل الرئيسة في حدوث السمنة.

وهناك تغيرات كيميائية حيوية تصاحب السمنة:

أهمها تغير نمط استقلاب الدهون، إذ تزداد البروتينات الشحمية (نوع بيتا) في البلازما، والأحماض الدهنية الحرة، ويزداد تركيز الأنسولين في الدم زيادة كبيرة، مما يؤدي إلى تضخم البنكرياس، أو زيادة أنسجته، فيؤدي إلى زيادة إنتاج الأنسولين، والذي يتسبب في تكوّن الأحماض الدهنية في الكبد من المواد الكربوهيدراتية، وزيادة ترسب المواد الدهنية في الأنسجة الشحمية، وهذا يؤدي إلى ظهور أعراض مرض السكري، حيث تفقد مستقبلات الأنسولين الموجودة على الأنسجة الاستجابة للأنسولين.

التوازن الغذائي:

تؤكد جميع الأوساط العلمية المهمة بالغذاء وصحة الإنسان على ضرورة مراعاة التوازن الغذائي بين الطاقة المستهلكة، والطاقة التي يتناولها الإنسان من خلال الطعام. ويذكر العلماء أن الغذاء المتوازن يحتاج إلى قدر من المعلومات وحسن تخطيط.

(١) استقلاب: أيض: تحوّل الغذاء إلى طاقة.

والغذاء المتوازن لا يعتمد فقط على حجمه بل على نوعه، ويمكن تحديد كمية الطعام ونوعيته التي يحتاجها الفرد حسب نشاطه وعمله، بناء على المعلومات الآتية:

١- لابد أن يحتوي الغذاء على عناصره الأساسية من الكربوهيدرات والبروتينات والدهون والفيتامينات والمعادن والماء.

٢- ينبغي أن تكون نسبة الكربوهيدرات في كمية الغذاء لليوم الواحد حوالي ٦٠٪، ونسبة البروتينات حوالي ١٥٪، ونسبة الدهون حوالي ٢٥٪.

٣- تقسم كمية السعرات الحرارية اللازمة للشخص حسب طبيعة عمله من العناصر الثلاثة في الخطوة السابقة، على ما يعطيه كل جرام منها من السعرات الحرارية (إذ يمدّه الجرام الواحد من كل من الكربوهيدرات والبروتينات بـ ٤ كيلو كالوري، ويمدّه الجرام من الدهون بـ ٩, ٣ كيلو كالوري) وهكذا تحسب الكمية اللازمة بالضبط للفرد. وبذلك يمكن التحكم في كميات الطعام التي نتناولها على علم وفهم، فإن كان الشخص يعاني من البدانة فليتناول كمية أقل منها ويسحب من مخزونه من الطاقة باقي الكمية اللازمة لاحتياجاته اليومية وبالتالي يمكن أن يتخلص الإنسان من السمنة بسهولة فبتطبيق هذا الحديث العظيم نتوقى الأخطار والمهالك مع تحقق المنفعة والفائدة لأجسامنا وأرواحنا.

وجه الإعجاز في الحديث:

١- الإفراط في الطعام والشراب شر وخطر على صحة الإنسان:

لقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان في عبارة بليغة موجزة هي: (مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ) وهكذا عُرِفَ هذا الشر بيقين في هذا العصر بظهور الأمراض الخطيرة المهلكة للإنسان الناتجة بسبب الإفراط في تناول الطعام، وذلك بعد تقدم وسائل الفحص والتشخيص الطبي الدقيق الذي أفضى لمعرفة حقيقة هذا الشر.

وبينما كان علماء المسلمين يحذرون الناس من أخطار التخمّة وكثرة الأكل عبر خمسة عشر قرناً استناداً لحديث نبينهم ﷺ كان غيرهم يعتقدون أن كثرة الأكل مفيدة

غير ضارة ويتسابقون في ملء البطون بالطعام والشراب؛ ففي إنجلترا يتحدث الطبيب (تشين) (١٦٧١ - ١٧٤٣م) عن عقيدة البروتستانت في الإفراط في الطعام والشراب فيقول: «لست أدري ما عليه الأمر في البلدان الأخرى، ولكن نحن البروتستانت لا نعتبر الإفراط في تناول الطعام مؤذيًا ولا ضارًا، حتى إن الناس يحتقرون أصدقاءهم الذين لا يملؤون بطونهم عند كل وجبة طعام».

وبعد أن أدرك هذا الطبيب - من بين جميع الأطباء المعاصرين له - أخطار كثرة الأكل، حمل الأطباء المسؤولية في عدم إرشاد الناس لهذه الأخطار فقال: «والأطباء لا يدركون أنهم المسؤولون أمام المجتمع وأمام مرضاهم بل أمام الخالق، لأنهم يشجعون الناس على الإفراط في الطعام والشراب، ذلك لأنهم بهذا يعملون على تقصير آجال كثير من مرضاهم».

ولم ينتبه علماء أوروبا إلى هذه الأخطار إلا في عصر النهضة، فأخذوا يطالبون الناس بالحد من الإفراط في تناول الطعام وترك الانغماس في الملذات والشراب. فهذا أحدهم (لودفيك كارنارو) من البندقية يحذر أمته من هذه الأخطار، حيث كان مما قال: «يا إيطاليا البائسة المسكينة! ألا ترين أن الشهوة تقود إلى موت مواطنيك أكثر من أي وباء منتشر أو حرب كاسحة؟»، «إن هذه المآذب المشينة والتي هي واسعة الانتشار اليوم، لها من النتائج الضارة ما يوازي أعنف المعارك الحربية»، «لذلك يجب علينا ألا نأكل إلا بقدر ما هو ضروري لتسيير أجسامنا بشكل مناسب»، «وإن أية زيادة فيما نتناوله من كميات الطعام تعطينا سرورًا آنيًا. ولكن علينا في النهاية أن ندفع نتائج ذلك مرضًا، بل موتًا في بعض الأحيان».

ولعل اكتشاف أمراض السمنة وأخطارها المهلكة وعلاقة ذلك بالشراسة وكثرة الأكل، يجعلنا نزداد يقينًا بعظم القاعدة الذهبية في حفظ الصحة البشرية المتمثلة في ترشيد الأكل والشرب والتي أرشد إليها قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١).

من الذي أنزل على رسولنا ﷺ هذا العلم؟ إنه الله ﷻ.

٢ - إقامة الصُّلب والحد الأدنى من الطعام:

تختلف الحاجة للطعام من إنسان إلى آخر، حسب طبيعة عمله، ومن وقت إلى آخر عند الفرد ذاته، لكن هناك قدر مشترك من الحاجة إلى السرعات الحرارية يتساوى فيها بنو البشر جميعاً على وجه الإجمال، وهو المعدل الثابت من الطاقة التي يحتاجها الإنسان البالغ والتي تستخدم في حفظ العمليات الحيوية الأساسية داخل الجسم كتشغيل القلب والجهاز الدوري الدموي، والجهاز التنفسي، والهضمي، والبولي، والعصبي، وتسيير العمليات الضرورية لحفظ الحياة لنقل الأيونات عبر جدر الخلايا، والإشارات المختلفة عبر الخلايا العصبية، وسائر العمليات والتحويلات الكيميائية في التمثيل الغذائي، وهي تبلغ حوالي ٢٠٠٠ كيلو كالوري من السرعات الحرارية.

وتختلف حاجة الناس لأكثر من هذا حسب طبيعة أعمالهم، فتزيد للدارسين والباحثين وكل العاملين في المجال الفكري حوالي ٥٠٠ كيلو كالوري عن المعدل الثابت، بينما يحتاج الذين يمارسون أعمالاً شاقة؛ كرفع الأثقال وعمل البناء والمناجم وقطع الخشب مثلاً إلى حوالي ٣٥٠٠ كيلو كالوري، إضافة للمعدل الثابت في اليوم.

وقد يشير الحديث إلى هذه الحقيقة فقد يكون ذكر اللقيات لإقامة الصلب كناية عن هذا المعدل الثابت الذي يحتاجه الناس جميعاً، ويمكن أن يتحقق بالقليل من الطعام حيث تنطلق منه الطاقة على مرحلتين: الأولى: الطاقة المباشرة التي يعطيها الجرام من عناصره الغذائية، والثانية: ما يعطيه الجزيء منها من الطاقة المخزنة في مركبات الأدونيزين ثلاثي الفوسفات وأشباهه وهي طاقة هائلة، وهذا يوضح الآن كيف خاض أولئك الرجال الأفذاذ من الصحابة الكرام ومن تبعهم الحروب والأهوال وكان زاد الواحد منهم حفنة من تمرات!

٣ - ملء ثلثي حجم المعدة هو الحد الأقصى:

كما يمكن أن تدرج الزيادة في الحاجة للطاقة عن المعدل الثابت في إشارة النص في قوله عليه السلام: «فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثُ لِطْعَامِهِ وَثُلُثُ لِشْرَابِهِ»، ويمكن أن

تفهم هذه الزيادة من أول درجاتها إلى أعلى معدل لها والتي يحتاجها العاملون في الأعمال الشاقة ولا يتجاوز أعلى حجم للطعام والشراب ثلثي حجم المعدة.

إن تحديد امتلاء ثلثي المعدة للطعام والشراب هو غاية في الإحكام وهو أقصى درجات الشبع عند المسلم بناء على هذا الحديث، فإن هذا الحجم عبارة عن لتر كامل من الغذاء المطحون مع الشراب، والذي يمكن أن يكون أحد مكونات الطعام فيه من الحساء أو يكون عصيرًا أو ماءً، وهو ما يعادل على الجملة أربع كاسات ماء من الحجم الكبير، وتلك كمية هائلة من الطعام في الوجبة الواحدة.

فعلى المسلم ألا يصل إلى تناول هذه الكمية إلا إذا كان عاملاً في الأعمال الشاقة أو عندما تغلبه نفسه أو يقع في مأزق يضطره إلى تناول هذا القدر، بل عليه الاقتصار على أقل من ذلك تطبيقاً لنصيحة النبي الكريم ﷺ وعندما يطبق المسلم هذا الحديث بعناية فمع تحصيله الأجر العظيم لاتباعه سنة النبي ﷺ فإنه يمارس أيضًا أقوى وأنجع برنامج في التوازن الغذائي والتخلص من الوزن الزائد وأمراض السمنة وأخطارها.

٤ - امتلاء المعدة بالطعام يؤثر على أجهزة الجسم:

حينما تمتلئ المعدة تمامًا تضطرب مضخة التنفس ولا يصل كل الدم الوريدي غير المؤكسد إلى القلب بسهولة. وإذا لم تنقبض عضلة الحجاب الحاجز بالقدر المطلوب بسبب امتلاء المعدة سيؤدي ذلك بدوره إلى عدم قدرة الرئتين على التمدد الكامل؛ نظرًا لعدم إتمام اتساع القفص الصدري وبالتالي فلا يحصل تبعًا لذلك دخول الهواء بالحجم الطبيعي أو المدي إلى الرئتين، وتتدخل عندئذ عضلات الطوارئ في إحداث تنفس عميق مما يؤدي إلى ضغط محتويات التجويف البطني لتفريغ مساحة لاتساع التجويف الصدري، وهذا بدوره يؤدي إلى شدة واضطراب يؤثر على جميع أجهزة الجسم المختلفة.

أما إذا ترك ثلث المعدة أو أكثر منه فارغًا وهو ما يوازي حجمه حجم الهواء الطبيعي الداخل للرئتين (٥٠٠ مل) فإنه بذلك يؤدي إلى تنفس انسيابي مريح وانصباب سهل للدم الوريدي للقلب وبهذا يظهر الأثر الضار لامتلاء المعدة على كل من الجهاز

التنفس والدوري عند الإنسان. كما أن امتلاء المعدة بالطعام يؤثر سلباً على هضمه، حيث إن تمدد جدار المعدة يشبط نشاط عضلات هذا الجدار فيؤدي بدوره إلى تأخير وإعاقة الهضم.

٥- ثلث المعدة يطابق تمامًا حجم هواء التنفس:

بالنظر والمقارنة بين أقصى حجم للمعدة يمكن أن تصل إليه وهو حوالي اللتر ونصف اللتر، وبين الحجم المدي للنفس الطبيعي للإنسان؛ والذي يبلغ في العادة حوالي ٥٠٠ ملليمتر من الهواء، يتبين لنا أن حجم الهواء الداخل إلى الرئتين يمثل ثلث حجم المعدة، وفي هذا إعجاز نبوي واضح حيث حدد النبي ﷺ هذه القياسات في زمن لم تُتَح فيه هذه الأجهزة الدقيقة التي تقيس حجم الهواء الداخل إلى الرئتين، وتحدد أقصى حجم لتمدد المعدة، وقياس الضغط بداخلها.

فمن أخبر النبي ﷺ بهذه الحقائق؟ ومن الذي أعلمه بفائدة مراعاة هذه القياسات الدقيقة التي لم تكن قد عرفت في عصره أو حتى في عصور متأخرة بعده؟ إنه الله ﷻ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٢ - ٤).

الإعجاز التشريعي لنظام الميراث في القرآن الكريم

من أوجه الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم تشريعه لنظام متميز في توزيع الميراث، في آيات ثلاث لا تزيد على خمسة عشر سطراً، جاءت في سورة واحدة من سور القرآن الكريم، بنفس الأسلوب البياني، الذي لا يختلف في سموه حين يختلف موضوعه، حتى لو كان في موضوع خاص بالتشريع للمواريث والتركات قوياً الصلة بالأعداد والأرقام.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبُوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (النساء: ١١ - ١٢).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكِلَالَةِ إِنْ أَمْرُؤَا هَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ؕ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦).

إن الذي يدرس نظام الإرث في القرآن الكريم ويقارنه مع ما ورد في التوراة وكذلك في الأنظمة الوضعية يتأكد له أن هذا النظام لا يمكن أن يكون من وضع البشر وخاصة أنه جاء عن طريق رجل أمي عاش في وسط أمة أمية. هذا بالإضافة إلى أن التوراة والإنجيل والتي طالما تشدق بعض أتباعهما بأن محمدًا ﷺ قد أخذ محتويات القرآن الكريم منهما يخلوان تمامًا من مثل هذا النظام البديع.

إن نظام الإرث في التوراة وكذلك في بعض الأنظمة الوضعية قد حرمت أقرب المقربين للمتوفي وهم أبوه وأمه وزوجته من الميراث بمجرد وجود ابن أو ابنة له ولم تراعي ما سيؤول إليه حالهم بعد وفاة من قد كان في الغالب يعيلهم.

لقد تحول كثير من عقلاء أهل الكتاب منذ فجر الإسلام وحتى يومنا هذا إلى دين الإسلام بسبب كمال النظام التشريعي فيه وعلى الخصوص نظام الإرث بعد أن تأكد لهم أن مثل هذا التشريع لا يمكن أن يسن من قبل رجل أمي.

بل مما زاد من دهشتهم وإعجابهم أن نظام الإرث هذا والذي تم فيه معالجة جميع الاحتمالات الممكنة لحالات الورثة من الدرجة الأولى قد تمت صياغته في عشرة أسطر فقط. إن مجرد استخدام الكسور كالنصف والثلث والربع والسدس والثلث في نظام الإرث في زمن يجهل فيه البشر وخاصة العرب منهم مثل هذه العمليات الحسابية هو أكبر دليل على أن هذا النظام لا يمكن أن يكون قد تم وضعه من قبل رجل أمي.

لقد كان من السهل لو كان هذا النظام من وضع رجل أمي أن يقع في ورطة حسابية باستخدام نظام الكسور هذا ولكن الدارس المتفحص لنظام الإرث في القرآن يكتشف مدى الدقة التي تم بها اختيار حصص الورثة باستخدام الكسور.

ومما يؤكد هذا الأمر أننا نجد اليوم ونحن نعيش في القرن الواحد والعشرين بعض المتعلمين والذين درسوا الحساب لمدة طويلة في المدارس والجامعات لا يستطيعون التعامل مع نظام الكسور هذا.

لا يوجد أي نص في أناجيل النصارى يتعلق بنظام الإرث ولذلك فقد اعتمد أهل الإنجيل في قوانين إرثهم على ما جاء في التوراة. وقد كان نظام الإرث عند العرب

أقرب ما يكون لنظام الإرث المذكور في التوراة فلا نصيب للنساء في التركة مع وجود الورثة من الرجال وغالبا ما يستحوذ الكبار من الأبناء على نصيب الصغار منهم.

ولهذا فقد كانت مهمة تغيير نظام الإرث هذا من أصعب المهام التي واجهها النبي محمد ﷺ وخاصة أن اليهود الموجودين في المدينة يعملون بنظام توريث مستمد من التوراة وهو مشابه للنظام الذي تتبعه العرب في جاهليتهم.

لقد جاء القرآن الكريم بنظام إرث جديد أنصف فيه جميع الورثة وخاصة النساء منهم واللاتي كُنَّ محرومات من تركة أقربائهن في نظام الإرث المطبق عند العرب وكذلك عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

لقد بدأ القرآن الكريم بإقرار مبدأ عظيم وهو أن للنساء نصيب من تركة أقربائهن كما للرجال مهما بلغت قيمة التركة وأن هذا الحق مفروضاً لهن من الله ﷻ وذلك في قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (النساء: ٧).

وقد أكد القرآن الكريم كذلك على عدم هضم حقوق صغار الورثة من الذكور والإناث عند القسمة من قبل كبار الورثة وكذلك الحفاظ على أموال هؤلاء اليتامى من قبل إخوانهم أو أعمامهم أو من هم في كفالتهم وخاصة في غياب رقابة الدولة على إجراءات قسمة التركة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء ٩ - ١٠).

وبعد أن وضع القرآن القواعد العامة لنظام الإرث بدأ بتحديد أنصبة كل من ورثة المتوفى سواء كان ذكراً أم أنثى وذلك في ثلاث آيات فقط لا يتجاوز عدد أسطرها العشرة وهي مليئة بالفرائض باستخدام نظام الكسور.

إن نظام الإرث الذي جاء به القرآن الكريم نظام مبتكر وفريد لم يسبق للبشر أن تعاملوا بمثله ولن يتمكنوا كذلك من أن يأتوا بنظام مثله أبداً. فهذا النظام قد تم وضعه على أسس واضحة ولأهداف بينة وليس بطريقة اعتباطية راعى فيه المشرع مصالح ورثة

الميت الأشد قرابة. إن أشد الناس قرابة للميت هم أباه وأمه وأبنائه وبناته وزوجته بحكم المعاشرة وهم أكثر الناس حزنًا عليه عند موته ثم يأتي في الدرجة الثانية أخوته وأخواته ثم أعمامه وعماته.

وعندما حصر الله ﷻ تركة الميت على الأب والأم والأبناء والبنات والزوجة ولا تتعدى إلى الأخوة والأخوات والأعمام والعمات إلا في حالات محددة فإنها حصرها لأسباب منطقية لا يمكن لعقل أن يجادل فيها.

فالأب والأم هما السبب في وجود هذا الإبن فأمه قد حملته تسعة أشهر في بطنها ثم أرضعته ثم قامت على خدمته في حال صحته ومرضه مدة طويلة وأبوه أنفق عليه من ماله والذي قد يكون حصل عليه بشق النفس فوفر له المسكن والملبس والطعام والشراب والتعليم ومعالجته عند مرضه مدة طويلة، وقد يكون الأب وكذلك الأم قد ساهما في بناء البيت الذي سكنه هذا الإبن وربما المصلحة التي كانت مصدر رزقه.

أما الزوجة فهي التي أنجبت أولاده وقامت على خدمته وخدمة بيته وخدمة أولاده وبذلك وفرت له الوقت لجمع هذا المال.

أما أبناء الميت وبناته فهم أحوج الناس لهذا المال إذا كانوا صغاراً وإما إذا كانوا كباراً فإنهم أحق الناس به فقد يكونوا ساهموا بجهدهم في تحصيل هذا المال مع أبيهم بالإضافة إلى أن هذا هو الاتجاه الصحيح لحركة المال المورث فهو ينتقل من الأباء إلى الأبناء.

وعلى هذا فإنه من الظلم الفادح أن يُحرم الأب والأم من تركة ابنهم بمجرد وجود أبناء وبنات لهذا الميت وقد يكونا في أمس الحاجة لمثل هذا المال عند هذه السن الكبيرة التي تقل فيها قدرتهما على جلب الرزق وإذا ما أخذ الأب والأم شيئاً من التركة فهو جزء يسير مما أنفقاه على هذا الابن.

وكذلك فإنه من الظلم الفادح أن تحرم الزوجة حرماناً كاملاً من تركة زوجها سواء ترك أولاداً أم لم يترك كما هو الحال في نظام الإرث التوراتي أو في أنظمة الإرث

الحالية كنظام الإرث الفرنسي. فهل يعقل أن تذهب تركة زوجها إلى إخوانه وأخواته أو أعمامه وعماته وتحرم هي منه.

ولهذا فقد أنصف القرآن الكريم الأب والأم والزوجة في نظام الإرث الذي جاء به وأعطى للأب سدس التركة وللأم السدس كذلك وللزوجة الثمن عند وجود أبناء وبنات للميت وتزداد هذه النسب في حالة غياب الأبناء والبنات.

ولا بد هنا من الرد على الفرية التي يتشدد بها بعض الكفار من أهل الكتاب وغيرهم وهي زعمهم أن القرآن قد تحيز للرجال على حساب النساء في نظام الإرث الذي جاء به فأعطى الرجل ضعف حصة المرأة.

الجواب:

إن مَنْ بَيَّنَّه من زجاج عليه أن لا يرمى الناس بالحجارة فالنص الوارد في التوراة المحرفة قد حرم الزوجة تمامًا من الميراث وحرم البنات والأب والأم كذلك بوجود الأولاد الذكور.

وإذا رجعت لنظام الإرث الفرنسي أو بقية أنظمة الإرث في العالم غير الإسلامية فستجد مدى الإجحاف الذي يلحق بالزوجة والأب والأم عند تقسيم تركة الميت.

إن القرآن الكريم لم يتحيز للرجال في أنصبة الميراث على حساب النساء إلا بسبب طبيعة النظام الاجتماعي السائد في المجتمعات البشرية والذي يقوم على قوامة الرجال على النساء وكذلك مراعاة الفروق الطبيعة بينهما.

إن قوامة الرجال على النساء نظام قائم منذ أن خلق الله البشر ولا زال قائماً إلى يومنا هذا في معظم المجتمعات البشرية وسيبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإن أي محاولات لتغيير مثل هذا الواقع لن تفلح أبداً ما دام أن المجتمعات تقوم على النظام الأسري والذي تكون فيه في الغالب القوامة للرجال بسبب ما ميزهم الله به من قوة الجسم.

والدليل على عدم تحيز القرآن الكريم للرجال هو تساوي نصاب الأب والأم في حالة وجود أولاد للمتوفى وكذلك تساوى نصاب الأخ والأخت من الأم في تركة الكلاله. وحين يحدد القرآن الكريم نصاب الابن بضعف نصاب البنت فهو إنصاف لهذا الابن وليس تحيزاً له وذلك لأسباب كثيرة أولها أن الأعباء المادية المترتبة على الرجال في الأنظمة الاجتماعية السائدة تفوق تلك المترتبة على النساء فهم الذين يقومون ببناء مساكن الزوجية التي لا تشارك النساء فيه بشيء وهم الذين يدفعون المهور وهم الذين ينفقون على زوجاتهم وأولادهم وهم أقدر على العمل بشتى أنواعه بسبب تركيبهم الجسمي وهم أقدر على الحفاظ على الأموال التي يرثونها وكذلك تنميتها وهم أقدر كذلك على حمايتها في مجتمعات لا يصمد فيها إلا القوي وهذا هو واقع البشر منذ أن خلقهم الله وسيبقون كذلك.

إن مزايا التشريع الإسلامي في الميراث شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء، وإنها لتدل على أن القرآن الكريم كلام الله العليم الخبير، لأن هذا التقسيم المحكم العادل الذي جاء به الإسلام لم يسبق له مثيل فيما عرف من قوانين العالم ولا عند قدماء المصريين، ولا الأغريق، ولا الرومان، بل ولا تزال القوانين الأوروبية والأمريكية وغيرها من الدول التي تقرر مبدأ التوارث تتعثر دون أن تصل إلى ما وصل إليه الإسلام من عدل وإحكام. ويمكن إيجاز هذه المزايا في النقاط التالية:

١ - تولى الله سبحانه وتعالى توزيع الميراث على مستحقه بنفسه ولم يترك ذلك لغيره، فجميع أحكامه منصوطة.

٢ - يمتاز نظام الميراث في الإسلام بأن تنفيذه نابع من ضمير الجماعة الإسلامية كما هو الشأن في جميع تشريعات الإسلام لا يمكن لمحتال أن يحتال عليها أو بتهرب منها مع راحة ضميره، واطمئنان نفسه، إلا إذا كان لا إيمان له أو كان ضعيف الإيمان.

٣ - يمتاز نظام الميراث في الإسلام بأن توزيع التركة معلق بإرادة الشارع لا بإرادة الوارث أو المورث، ومن ثم فالميراث هو الملك الوحيد الذي ينتقل من شخص إلى آخر دون اشتراط رضاهما، ولم يترك الإسلام للمالك إلا حرية التصرف في حدود

الثالث حيث أباح له التصرف فيه بالوصية لتدارك ما عساه قد فاته من صلة قرابة أو زيادة في أجره وثوابه.

ومع ذلك حرم هذا الحق إن كانت الوصية فيما لا يجوز شرعاً، لأن المفروض في الإسلام أن يستغل الإنسان ماله فيما يعود عليه بالنفع في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً. كما أن الأصل أنه لا وصية لوarith حتى لا يختل هذا النظام الرباني الدقيق.

٤- بني توزيع الميراث على أساس القرابة، فأعطى الإسلام الأقرب فالأقرب دون تفرقة بين صغير وكبير، ذكر أو أنثى، ولذلك أعطى الأولاد أكثر حظاً من غيرهم في الميراث، لأنهم امتداد لشخص المالك - وهم في الغالب - ضعاف، ومع ذلك لم يستأثروا بالميراث بل يشاركونهم فيه غيرهم كالأب أو الجد أو الأم أو الجدة، وإن كانوا يأخذون أقل من الأولاد.

٥- لاحظ الإسلام في تقسيم الميراث الحاجة لذلك أعطى الأبناء أكثر من الآباء لأن الأبناء مقبلون على الحياة. بينما الآباء مدبرون عنها، وأعطى الذكر ضعف الأنثى أحياناً لأنه أكثر حاجة منها إلى العون المادي لما عليه من واجبات تفوق ما عليها.

٦- يقوم توزيع الميراث في الإسلام على أساس تفتيت الثروة حتى لا تتجمع في يد شخص واحد، وبالتالي تصبح ثروة الأمة في يد أفراد قلائل من الممكن أن يتحكموا في مقدراتها ويستغلوا كل شيء فيها لأهوائهم ونزواتهم، ولكن هذا النظام الذي أقامه الإسلام يؤدي إلى تفتيت الثروة، ثم إعادة جمعها، ثم إعادة توزيعها وهكذا دواليك.

٧- كرم النظام الإسلامي في هذا الصدد المرأة، واحترم الأمومة، فأعطى المرأة نصيباً من الميراث بينما حرمتها كثير من التشريعات، وأعطى من يتصلون إلى المورث بسببها كما في أولاد الأم، والجدة للأم، وهذا بلا شك تكريم للأمومة، وإعزاز لها.

٨- هذا نظام محكم صاغه القرآن الكريم في ثلاث آيات فقط (الآيات رقم ١١، ١٢، ١٧٦ من سورة النساء)، بنفس اللغة الدقيقة الجميلة التي تخاطب العقل والوجدان، لتهيئة النفوس، وقدم لأحكامه بآيات قليلة لقبوله، فقال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ

نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ
أَوْ كَثُرُ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ
فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلِيَخَشَّ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً
ضَعِفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ
الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿النساء: ٧ - ١٠﴾.

وعقب عليه بالآيتين (رقم ١٣، ١٤ من سورة النساء) للحض على العمل به،
والتحذير من الخروج عليه. فقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ
نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (النساء: ١٣ - ١٤).

٩ - أحكام الميراث كما وردت في القرآن الكريم من الثوابت التي لا تقبل
التغيير، ومهمة المجتهد تنحصر في تنزيلها على الواقع لتوجهه وتحكم عليه، وهي قابلة
للتطبيق في كل البيئات إلى أن تقوم الساعة.

الإعجاز التشريعي في أحكام العدة وبراءة الأرحام

بقي الاعتقاد منذ عهد "أرسطو" في القرن الرابع الميلادي ولعدة قرون في فكرة التولد الذاتي للجنين من دم الحيض بناءً على توهم تولد العفن من غير سبب، وبعد اكتشاف المجهر في القرن السابع عشر أعلن "هارفي" عام ١٦٥١م أن الأجنة إفرازات من الرحم لعدم تمكنه من رؤية المراحل الأولى لتكونها، ولكن اكتشاف "جراف" عام ١٦٧٢م لحويصلة المبيض التي سُميت باسمه واكتشاف أجسام في أرحام الأرانب بدت شبيهة لأجنة حديثة قد جعله يستبعد علاقتها بالرحم ويعلن علاقتها بالمبيض الذي سماه خصية المرأة.

واكتشف "لويس باستير" في القرن التاسع عشر أن العفن سببه كائنات دقيقة مُيزت فصائلها بأسماء متنوعة مما أدى إلى القضاء على وهم التولد ذاتيًا للكائنات الحية، وهكذا أخذت المعرفة البشرية تتطور شيئًا فشيئًا حتى عُرف الكثير عن آلية الإنجاب وعرفت علاقة الدورة الرحمية بدورة المبيض وتأكد وقوع الإخصاب في منتصف الدورات.

ولم يكن أحدٌ يعلم زمن التنزيل شيئًا عن آلية التبويض والإنجاب بل اعتبرت إمكانية الحمل قائمة حتى في الحيض وإذا اجتنب الحيض فهو للتوهم بأفضلية الابن ثمرة الطهر، ولم يكن أحد يعلم زمن الإخصاب ولا يدرك أن ظهور الحمل موعده بعد ثلاث دورات معتادة وأن الحامل تبدأ استشعار حركة الجنين في العادة بعد أربعة أشهر تمامًا من الواقع المثمر.

وفي تشريع حكيم يعالج القرآن عدة حالات اجتماعية ويحدد مواعيد ظهور علامات الحمل واستيفاء أدلة تنفيه وفق مصطلح الفقهاء "براءة الأرحام" ويوزعها بما يناسب أحوال النساء:

١- حالة المطلقات ذوات دورة الحيض المنتظمة المعتادة المعبر عنها بالقروء: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة: ٢٨٨)، والتربص يعني الترقب ويتعلق هنا بعلامة تؤيد وقوع الحمل: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ ومع انقطاع الحيض والعلامات الثانوية يتأكد الحمل بنمو الرحم وبروز البطن بعد ثلاث دورات معتادة أي ما يقارب ثلاثة أشهر وهي الغالب في المدة التي تحصل فيها ثلاثة قروء عملاً بالغالب دون النادر، والمدة الغالبة لدورة الحيض: (٣-٥) أسابيع.

٢- حالة اليائسات من استمرار الحيض والصغيرات اللائي لم يحضن كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي بَسَّسَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ (الطلاق: ٤)، والحمل ممكن وإن كان نادراً في حالة اضطراب الحيض عند سن الكمال (اليأس) وعند البلوغ ولا توجد في تلك الحالات دورات حيض منتظمة فاستبدل القرآن مدة الأقراء بقيمة مماثلة وهي ثلاثة أشهر.

٣- حالة وفاة الزوج: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة: ٢٣٤)، وبالفعل تبدأ الحامل في الغالب أول شعورها بحركة الجنين بعد أربعة أشهر منذ يوم الإخصاب.

وللتباين في الخبرات قد يتأخر قليلاً بدءاً من شعور الحوامل بحركة الجنين عند موعده وهو (أربعة أشهر) وهنا أضيفت للمدة الغلبة مدة كافية هي عشرة أيام.

والزيادة في عدة الوفاة عن الأشهر في عدة الطلاق تكشف قصد الاحتياط ومع الاكتفاء بثلاثة قروء أو أشهر لاستيفاء دلائل نفي حمل المطلقات قد شدد القرآن على التيقن التام من استكمال مدة عدتهن بالأمر الصريح موجه الخطاب إلى النبي ﷺ وسائر المسلمين: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ (الطلاق: ١)، والمراجعة من أغراض الانتظار للتعقيب بعده: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ

اللَّهُ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» (الطلاق: ١)، وهي تكشف قصد الإصلاح وحفظ الأسرة من الانهيار وضمان المأوى الصالح لتربية الأبناء.

فالغرض الأول من العدة هو تحقيق براءة الرحم وضمه إلى ذلك غرض آخر هو ترقيب المراجعة فلما حصل الأهم (وهو هنا تحقيق براءة الرحم بانتهاء عدة المطلقة) ألغى ما عداه (المراجعة) مراعاة لحق المرأة في الانطلاق من حرج الانتظار.

والعلة الأولى لتشريع العدة في حالات إمكانية الإنجاب بعد المفارقة بالطلاق أو الوفاة هي منع اختلاط الأنساب ولذا اقترنت حالة زواج المرأة بآخر بالمنع إلا باستيفاء أدلة نفي وقوع الحمل من زوجها الأول: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ (البقرة: ٢٣٥)، أي لا تعزموا على عقد النكاح في زمان العدة حتى تنقضي مدتها، ولا عدة بلا معاشرة؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ (الأحزاب: ٤٩)، بينما تمتد العدة عند الحمل حتى الوضع، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ٤).

وهذا تبين أن العلة في تشريع العدة تتباين وتتعدد فهي ليست مقصورة فقط على براءة الرحم وإنما يراد منها أيضًا إمكانية المراجعة في حالة الطلاق والوفاء للزوج الميت، ولهذا فإن المعرفة بثبوت أو بنفي الحمل مبكرًا بالوسائل الحديثة لا يعني توقف العمل به.

إن الأحداث الرحمية في الدورة النوزجية (٢٨ يومًا)، تبدأ الدورة الرحمية مع بدء الدورة المبيضية منذ اليوم الأول للحيض الذي يستمر لمدة أربعة أيام بانتهاء الطبقة السطحية للبطانة الرحمية، ثم يليه بدء تجددتها، ويقع التبويض غالبًا في اليوم ١٤ ويقع الإخصاب في نفس اليوم لأن القابلية للإخصاب أقل من يوم .

ومدة الحمل منذ الإخصاب ٢٦٦ يومًا، ويُتوقع الوضع بعد ١٤٧ (+ أو - ١٥) يومًا منذ الشعور بحركة الجنين، فتكون الفترة السابقة على حركة الجنين: ٢٦٦ - ١٤٨ =

١١٨ يومًا وهي نفس الفترة في القرآن بالعمر الجنيني: مدة أربعة أشهر: $4 \times 29.5 = 118$ يومًا وهي نفس المدة علميًا لرصد حركة الجنين.

موعد التبويض في الدورات الحوضية: يحدث التبويض غالبًا في منتصف الدورات النموذجية (اليوم ١٤) وكقاعدة عامة مهما اختلف طول الدورات يحدث التبويض قبل اليوم المتوقع لحيض الدورة التالية بأسبوعين كفترة ويرجع الاختلاف في موعد التبويض إلى الفترة قبل التبويض لذا فهو يقع في اليوم ١٤، ٢١ - ٧ = ١٤ يومًا.

ويظهر الحمل بشعور المرأة بالثقل ونمو البطن ليؤيد انقطاع الحيض والعلامات الثانوية في نهاية ثلاث دورات حيض منتظمة معتادة (١٢ أسبوعًا) قد عبر عنها القرآن بثلاثة قروء وبهذا يسبق القرآن في اعتماد العمر الحيضي للحمل بالإضافة إلى اعتماد العمر الجنيني: مدة ٣ قروء = $3 \times 28 = 84$ يومًا (من بدء آخر حيضة).

١٢ أسبوعًا = $12 \times 7 = 84$ يومًا منذ بدء آخر حيضة.

هل القرء يراد به الحيض أم الطهر؟

رغم تباين اجتهادات الفقهاء في الاستدلال فإن "براءة الأرحام" متحققة في كافة الأحوال لأن عدة الحمل تعتبر لأدنى قرينة، واعتبار أي من قرائن الحمل وخاصة انقطاع الحيض يمنع ذوات الدورات القصيرة من الإفلات وكل اجتهاد يمكن اعتباره تجاوزًا لمدة العدة في النص الوثيق للقرآن فهو في جهة الاحتياط، ولن يحدث حمل عادةً وفق تقدير الله لوظيفة الإنجاب إلا بجماع مثمر في منتصف الدورات، والفقهاء يحددون بداية الاعتداد منذ وقوع حادثة الفراق أي الطلاق أو الإيلاء أو وفاة الزوج، فإذا تخلف الفراق عن يوم الوقاع المثمر ظهر الحمل قبل نهاية العدة ومدة التخلف احتياط وإذا وافق الوقاع المثمر بدء الفراق ظهر الحمل وتطابقت مواعيد علاماته مع مواعيد الاعتداد.

إن تشريع العدة في القرآن ليس له نظير في كل حضارات العالم القديمة ومدونات الأديان وأحكام العدة عالمية باقية لأنها توافق طبيعة التكوين الواحدة لتؤيد أن نبوة محمد ﷺ خاتمة، ويكفي التطابق التام بين مواعيد ظهور علامات الحمل

القاطعة كما قررها العلم الحديث ومواعيد الاعتداد التي جاءت بها النصوص كبيّنة على التنزيل لأن الدلالات العلمية وخاصة الرقمية حاسمة لا تحتاج لقريحة ذات ذوق مخصوص لتدركها.

ادعوهم لأبائهم

ما من شيء جاء به الإسلام إلا وأظهرت الأيام صدقه وفائدته للناس جميعاً، ومن التشريع الإسلامي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ٤﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ (الأحزاب: ٤ - ٤).

يُطلق "التبني" في عرف الناس ويُراد به أمران:

الأول: القيام على تربيته، والعناية به، مع عدم تغيير نسبه.

والثاني: القيام على تربيته، والعناية به، مع نسبة ذلك المتبني إلى أسرة المتبني، وجعله واحداً من أفرادها.

ولا شك أن الأمر الثاني هذا كان جائزاً أول الإسلام، ثم أبطل الله ﷺ التبني، وأمر بأن يُدعى كل واحدٍ لأبيه من النسب، ومن لا يُعرف له أب: فيقال: فلان أخو فلان، أو: فلان مولى فلان.

والنسب يتبعه كثير من الأحكام، كالرضاع، والحضانة، والولاية، والنفقة، والميراث، والقصاص، وغيرها.

وأما الأمر الأول، وهو العناية بطفل، يتيم أو فقير، وتربيته كترية المرء لولده، من غير تغيير نسبه الحقيقي: فليس بمحرّم، بل هو من أجل الأعمال، وخاصة في حال كون ذلك المربي من الأطفال المشردين في الحروب، أو من الذين فقدوا أسرهم جميعها في حادث، أو حرب.

وفي كلا الحالين السابقين لا تأخذ الأسرة المتبنية، أو المربية حكم أسرة الطفل الحقيقية، من حيث البر، والصلة، والطاعة؛ لأن ذلك إنما هو للوالدين في النسب.

وقد ذكر العلماء أن القضاء على التبني ليس معناه القضاء على المعاني الإنسانية، والحقوق الإسلامية، من الإخاء، والوداد، والصّلات، والإحسان، وكل ما يوحي بفعل المعروف.

فهناك فروق بين التبني وكفالة اليتيم:

أما التبني: فهو أن يتخذ الرجل يتيماً من الأيتام فيجعله كأحد أبنائه الذين هم من صُلبه ويُدعى باسمه ولا تحل له محارم ذلك الرجل فأولاد المتبني إخوة لليتيم وبناته أخوات له وأخواته عماته وما أشبه ذلك. وهذا كان من فعل الجاهلية الأولى. وظل كذلك في أول الإسلام حتى حرم الله ﷻ ذلك.

وقد حرم الله تعالى التبني لأن فيه تضييعاً للأنسب وقد أمرنا بحفظ أنسابنا. فإن تحريم بنات المتبني مثلاً على اليتيم فيه تحريمٌ للمباح الذي لم يحرمه الله تعالى، واستحلال الميراث من بعد موت المتبني مثلاً فيه إباحة ما حرم الله لأن الميراث من حق الأولاد الذين هم من الصُلب. وقد يُحدث هذا الشحنة والبغضاء بين المتبني وأولاد المتبني لأنه سيضيع عليهم بعض الحقوق التي ستذهب إلى هذا اليتيم بغير وجه حق وهم بقرارة أنفسهم يعلمون أنه ليس مستحقاً معهم.

وأما كفالة اليتيم فهي أن يجعل الرجل اليتيم في بيته أو أن يتكفل به في غير بيته دون أن ينسبه إليه، ودون أن يحرم عليه الحلال أو أن يحل له الحرام كما هو في التبني، بل يكون الكفيل بصفة الكريم المنعم بعد الله تعالى، فلا يقاس كافل اليتيم على المتبني لفارق الشبه بينهما ولكون كفالة اليتيم مما حث عليه الإسلام.

ولكن يجب التنبيه على أن هؤلاء الأيتام متى بلغوا الحلم يجب فصلهم عن نساء الكافل وبناته، وأنه لا يُصلح من جانب ويُفسد من جانب آخر كما أنه ينبغي العلم بأن المكفول قد تكون يتيمة وقد تكون جميلة تُشتهي قبل البلوغ فيجب على الكافل أن يراقب أبنائه من أن يقعوا بالمحرمات مع الأيتام لأن هذا قد يحدث ويكون سبباً للفساد الذي قد يعسر إصلاحه.

تزوج بأخته:

ومن الأشياء التي نشرتها الصحف الغربية حديثاً، أن في ألمانيا تزوج أخٌ بأخته وأنجبا أربعة أطفال!! ولكن كيف بدأت القصة، وما علاقة هذه القصة بالإعجاز التشريعي الذي جاء به القرآن الكريم؟

لقد تعرف الأخ "بأترك" إلى أخته "سوزان" بالصدفة، فقد ولدا قبل عشرين عامًا من أم تخلّت عنهما، ولكن إحدى العائلات قررت أن تتبنى "بأترك"، وعائلة أخرى تبنت "سوزان". وبما أن القوانين الغربية تسمح بالتبني وتنسب الابن لغير أبيه، مخالفةً بذلك شريعة الله تعالى، فقد أخذ كل ولد منهما نسبًا مختلفًا.

وعندما تلاقيا بالمصادفة وأحسّا بأن كل واحد منهما ينجذب للآخر قررا الزواج، ولكن بعد ذلك تبين لهما أنها أخوين، ولكن الغريب أنهما وبالرغم من ذلك قررا الاستمرار، وبعد أن تم عرض موضوع زواجهما على المحكمة لم تسمح به، ولكنهما يدافعان عن زواجهما بشدة.

وعلى الرغم من تحذير الأطباء لهما ومن تحذير رجال القانون ورجال الكنيسة إلا أنها يعتبران أن القانون الذي يحرم زواج المحارم خاطئ! ويجب تغييره، وبالفعل هناك دولة هي السويد تبيح مثل هذا الزواج ولا عقوبة لمن يقوم به!

المهم أن هذين الطفلين لو تمت نسبتهما لأبيهما لم تعد هناك مشكلة، لأن كل واحد منهما سيعرف أنه أخ للآخر، وبالتالي يدرء عن أنفسهما هذه الجريمة، فانظروا إلى أهمية أن يلتزم الإنسان بالتشريع الإلهي.

شيء آخر انتشر الآن في الغرب لدى غير المسلمين خاصة، وهو مطالبة بعض رجال القانون والتشريع بإلغاء القوانين التي تحرم زواج المحارم ويعتبرون هذه القوانين أنها تحد من حرية الفرد! ومع أن الأطباء يحذرون من هذا النوع من أنواع الزواج إلا أن هذه التحذيرات لا تجد أي اهتمام.

تؤكد الأبحاث الطبية أن الزواج بين الأخ والأخت يؤدي إلى مخاطر وبخاصة إذا تم الإنجاب، فإن نسبة أن ينجبا ولدًا معوقًا هي ٥٠٪ ومن هنا ربما ندرك أيضًا لماذا حرم الإسلام نكاح المحارم. ولكن للأسف نرى هذه الظاهرة (ظاهرة الزنا بين المحارم) قد تفشت في بلاد الغرب بنسب مرتفعة.

العجيب أن بعض الباحثين يؤكدون على أهمية أن يتم نسبة الولد لأبيه!! وذلك لعلاج هذه الظاهرة. ويقولون من الضروري للولد أن يعرف أباه الطبيعي، وألا يتم

تسميته باسم عائلة أخرى بل باسم أبيه الحقيقي لأننا مهما حاولنا إخفاء أو تغيير اسم الأب الحقيقي سيظهر ذلك يوماً ما!

وتظهر أهمية التشريع الإلهي - أن ننسب الأولاد لأبائهم - في هذا العصر حيث نلاحظ زيادة كبيرة في نسبة الأولاد غير الشرعيين، ففي دولة "متقدمة" مثل السويد وبسبب إلغائها للقوانين الأخلاقية، فإن نسبة الأولاد غير الشرعيين تصل إلى أكثر من ٥٠ بالمائة!! ماذا تنتظر من مجتمع نصفه غير شرعي؟! لا بد أنه سينهار في النهاية.

كذلك هناك مشاكل كثيرة يسببها نظام التبني في الدول الغربية، فالوالد الجديد يندع الولد عندما ينسبه له ويدعي أنه أباه، وهذه مشكلة بحد ذاتها لأن الولد سيكتشف الحقيقة آجلاً أو عاجلاً، وبالتالي ستسبب له اضطرابات نفسية ويبدأ رحلة البحث عن أبويه الحقيقيين.

كذلك الأولاد الذين تم تبنيهم من قبل عائلات فإن هذه العائلات لا تعطيهم الاهتمام والرعاية الكافية، ولذلك ينشأ هذا الولد نشأة غير طبيعية من الناحية النفسية، ولكن عندما يدرك هذا الولد أن أباه الحقيقي تولى عنه، وأن الذي يقوم على تربيته هو أب آخر سوف يزداد احتراماً لهذا الأب ولن ينشأ لديه نوع من الفصام بسبب هذا التناقض.

عندما نجد العلماء اليوم ينادون بضرورة انتساب الأبناء لأبائهم وذلك بعدما أدركوا خطورة تغيير اسم الأب وأدركوا المشاكل التي سببتها ظاهرة التبني، أليس هذا ما نادى به القرآن قبل أربعة عشر قرناً؟ لنقرأ ونتأمل هذا التشريع الإلهي المحكم: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (الأحزاب: ٥).

الرضاعة التامة بين العلم والقرآن

من الأمور التي أشار إليها القرآن الكريم وأكّدها الطب الحديث، أهمية حليب الأمّ لولدها الرضيع. فقد وجد العلماء أن الغذاء التام للطفل هو من حليب أمه، وأن هذا الغذاء لا يكتمل إلا إذا أرضعت الأم ابنها سنتين كاملتين. فتأمل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ (البقرة: ٢٣٣). إنه نداء إلهي يطلب من كل أم أن ترضع أطفالها، ورحمة بهن فقد حدد لهن المدة المثالية للإرضاع وهي حولان كاملان.

ونلاحظ أن القرآن الكريم استعمل لفظ ﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ ولم يقل «والأمهات»، فلبن الرضاعة المثالي هو لبن الوالدة وليس لبن المرضعة الأم. إن من ميزات لبن الأمّ أنّه معقم بطبيعته، وأنه مخزون في حرز متين بعيد عن التلوث، ومن ميزاته أنّ تركيبه يختلف من وقت لآخر، فتزداد كمية الدسم فيه - على سبيل المثال - مع تقدّم الطفل في العمر، ومع ازدياد قدرة معدته على هضم الغذاء الذي يتناوله.

وقد حدّد القرآن الكريم فترة حولين كاملين لإرضاع الطفل، ثمّ بعدها أوجب فطامه، لأنّ لبن الوالدة يصير في هذه الأثناء مائعاً يفتقر إلى الكثير من عناصره المغذية، فلا يعود قادراً على تأمين حاجة الطفل إلى الغذاء، إضافة إلى أنّ هذا الطفل ينبغي - وقد أدرك هذه المرحلة - أن يعتمد على نفسه في التغذية.

١ - في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ أمر إلهي لكل أمّ أن ترضع أبناءها من لبنها، ولا تلجأ إلى غذاء آخر، وهذا النداء نسمعه اليوم بكثرة في الولايات المتحدة الأمريكية، من منظمة الصحة العالمية ومنظمة اليونيسيف، بسبب الفوائد العظيمة التي اكتشفها العلماء في حليب الأم. إن نزول هذه الآية كان قبل المعرفة البشرية بأربعة عشر قرناً!

٢- في قوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ تحديد دقيق للمدة اللازمة للإرضاع الطبيعي للطفل بحولين كاملين، واليوم نجد الأطباء يؤكدون على أن المدة المثالية للإرضاع هي سنتان. وكلمة ﴿كَامِلَيْنِ﴾ فيها تأكيداً على أهمية إكمال السنتين، ولو تأملنا أقوال الأطباء في القرن الحادي والعشرين نجدهم يؤكدون وبإصرار على ضرورة إرضاع الطفل من ثدي أمه سنتين كاملتين.

٣- في قوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ إشارة إلى أن الرضاعة لا تتم إلا بعد مرور سنتين من عمر المولود. وقد اكتشف العلماء أن هاتين السنتين هما الأهم من عمر الطفل، حيث تعتبر هذه الفترة مرحلة حرجية يتكون خلالها الجهاز المناعي للطفل، وأن العديد من الأمراض تصيب الطفل خلال هاتين السنتين، ولذلك هم يؤكدون على أهمية أن ترضع الأم طفلها سنة كاملة والأفضل أن تتم الرضاعة إلى سنتين!

لقد كان الأطباء يظنون أن الرضاعة الطبيعية تكسب الطفل ارتباطاً نفسياً مع أمه فقط، وليس هنالك أية منافع أخرى، ولكن بعد إجراء البحوث على مدى نصف قرن بدأت تظهر الفوائد الكبيرة لهذا الإرضاع، بل إن العلماء في كل يوم يكشفون منافع جديدة لحليب الأم. فالأجسام المناعية المسماة بـ immunoglobulins اكتُشفت أولاً في حليب الأم. وهي أجسام مضادة للبكتيريا والفيروسات بأنواعها. بل إن العلماء وجدوا أن كمية البكتيريا في أمعاء الطفل الذي يتغذى على حليب البقر أكبر بعشرة أضعاف من تلك الموجودة في أمعاء الطفل الذي يرضع من صدر أمه.

منافع الإرضاع الطبيعي:

تكاد البحوث العلمية في مجال تغذية الأطفال المولودين تجمع على أن الرضاعة هي الوسيلة الأنفع لهم على الإطلاق، حيث إنه قد ثبت حديثاً أن اللبن البشري خاصة من الأم لا يسبب أي حساسية للطفل؛ بينما قد تبلغ نسبة أمراض الحساسية في الرضع نتيجة الرضاعة الصناعية بالألبان الحيوانية حوالي ٣٠٪، وقد تسبب تلك الألبان عسر هضم؛ فضلاً عن عواقب إهمال تعقيم القارورة وما قد يؤدي إليه من نقص في التغذية أو الجفاف نتيجة الإسهال؛ والذي قد ينتهي بالوفاة، فوفق منظمة الصحة العالمية أكثر

من مليون طفل يتوفون سنويا في العالم الثالث نتيجة أمراض الجهاز الهضمي والإسهال، وأكثر من تسعة ملايين طفل يصابون بنقص شديد في التغذية، وأغلب تلك الحالات ناتج عن استخدام الألبان الصناعية.

وقد أظهرت الدراسات الحديثة أن لبن الأم خاصة اللبأ - الذي يفرز في الأيام الأولى - يمد الطفل بحماية ضد عوامل بيئية تؤدي إلى تدمير خلايا البنكرياس التي تفرز الأنسولين، وأن الاعتماد على ألبان الأبقار يفقد الرضيع تلك الحماية، فيتعرض بنسبة أكبر من الرضع بألبان أمهاتهم للإصابة بداء السكري، ويعضد هذا الاستنتاج وجود أجسام مضادة بنسب مرتفعة لبروتين لبن البقر في دماء الأطفال المصابين بداء السكري بالمقارنة مع الأطفال غير المصابين بالمرض.

وقبل تكامل عمل الجهاز الهضمي يمكن لبروتين لبن الأبقار أن يمر بدون هضم من خلال حلقات الغشاء الداخلي الغير مكتمل، وعدم تمكن الإنزيمات من تكسيره بشكل كلي إلى أحماض أمينية مما يحفز على تكوين أجسام مناعية ضده، والمدعش أن تتواجد تلك الأجسام المناعية ضد لبن البقر بنسبة عالية في دماء الأطفال الذين تناولوه قبل عامين؛ بينما لا تتواجد في دماء الأطفال الذين تناولوا لبن البقر بعد عامين؛ مما يتفق تمامًا مع تمام مدة الفطام التي حددها القرآن الكريم؛ فضلا على تكامل الأمعاء وتكامل المخ بعد اكتمال العامين بحيث يماثل في هيئته مخ الشخص البالغ علامة على التكامل العام.

ومن الجانب النفسي نجد أن إرضاع الأم لوليدها ينشئ علاقة خاصة بينهما تشبع رغبة الأمومة عند الأم وتشبع متطلبات الوليد، ومن الجانب العضوي فإن اللبن البشري هو الأنسب للوليد، وأن ألبان الحيوان قد تحمل شيئاً من الضرر.

فالرضاعة الطبيعية هي أفضل أنواع الغذاء على الإطلاق للطفل، وجميع أنواع الغذاء الأخرى تختلف بدرجة كبيرة عن حليب الأم، هذا الحليب الذي يحمي الطفل من كثير من الأمراض. وحليب الأم يحوي دائماً نسباً طبيعية من البروتين والسكريات

والدسم، وهذه النسب يصعب التحكم فيها في حليب البقر وغيره. كذلك حليب الأم دائماً يخرج بدرجة الحرارة الصحيحة والمناسبة للطفل.

منافع للطفل:

- إن الأجسام المناعية immunoglobulins تساعد الطفل خلال الأشهر الأولى على حماية أجهزة جسمه من الهجوم الجرثومي المتكرر الذي يتعرض له، بل وتساعد أيضاً في تشكيل جهازه المناعي الخاص وتقويته. كما تشير بعض الدراسات إلى أن جهاز المناعة لدى الطفل ينمو بسرعة أكبر عندما يتغذى على حليب الأم.

- يحوي حليب الأم أيضاً مواد مناعية تسمى mucins هذه المواد تحوي الكثير من البروتينات والكربوهيدرات وهذه المواد تلتصق بالبكتريا والفيروسات وتزيلها من جسم الطفل نهائياً دون أي تأثيرات جانبية، بعكس الأدوية الكيميائية.

- إن البروتين الموجود في حليب البقر مثلاً يعادل ضعف الكمية الموجودة في حليب الأم، ولذلك لا يستطيع الطفل أن يمتص هذه الكمية من البروتين البقري، فيخترنها في جسده مما يؤدي مستقبلاً لأمراض السمنة. بينما نجد أن الطفل يمتص البروتين الموجود في حليب الأم بنسبة ١٠٠ ٪. كما بينت الدراسات أن المدة اللازمة لهضم البروتين في حليب الأم من قبل الطفل هي ١٥ دقيقة، بينما تستغرق العملية ذاتها مع حليب البقر أكثر من ٦٠ دقيقة. إذن هنالك توفير في الوقت والجهد.

- يؤكد جميع الأطباء أن حليب الأم خالٍ تماماً من البكتريا وأنه الأفضل للطفل من أي حليب صناعي. فقد لاحظ الأطباء أن الأطفال الذين يتناولون الحليب الصناعي بالزجاجة غالباً ما يتعرضون لمختلف الإصابات حتى ولو كانت هذه الزجاجة معقمة!

- انخفاض حدوث الالتهابات الميكروبية لأن لبن الأم معقم جاهز بينما ألبان القارورة تحتوي على العديد من الميكروبات وخاصة في العالم الثالث. ويمكن إنقاذ ملايين الأطفال الذين يتوفون سنوياً بمجرد الرضاعة.

- يحتوي لبن الأم على مضادات الأجسام والبروتينات المناعية ومجموعة كبيرة من خلايا الدم البيضاء المقاومة للأمراض بالإضافة إلى أكثر من مائة أنزيم.
- يحتوي لبن الأم على عامل مهم ينمي نوعاً من البكتيريا المفيدة التي تستوطن الأمعاء والتي تقوم بوقاية الطفل من كثير من أمراض الجهاز الهضمي. وتدعى هذه البكتيريا العصية اللبنية المشقوقة.
- يحتوي لبن الأم على مادة الانتريرون الهامة والتي تقاوم الفيروسات.
- يحتوي لبن الأم على مواد مضادة للسموم وبالذات سموم بكتيريا (ضمات) الكوليرا.
- لا يسبب لبن الأم أي حساسية للطفل بينما تبلغ نسبة أمراض الحساسية في الألبان المجففة ٣٠٪ من الأطفال الذين يتناولونها.
- لبن الأم فقير في الحامض الأميني فينيل ألانين، وبالتالي فإن الأطفال الذين يعانون من مرض وراثي يسمى "بيلة فينيل كيتون" يستطيعون أن يرضعوا من أمهاتهم دون حدوث مضاعفات خطيرة ويمنعون منعاً باتاً من الألبان المجففة المصنعة لاحتوائها على كميات كبيرة من الحامض الأميني فينيل ألانين. ولا بد من تصنيع أغذية لا يوجد بها هذا الحامض الأميني.
- لبن الأم غني بالزنك. ولذا فإن الأطفال الذين يعانون من مرض وراثي خطير لا تظهر عليهم أي أعراض طالما كانوا يرضعون من أمهاتهم أو من مرضعات بشرىات، ولا بد أن تستمر الرضاعة في هذه الحالة حولين كاملين. أما إذا اعتمد الطفل على ألبان الأبقار فإنه يصاب بالمرض بصورة خطيرة جداً وغالباً ما يتوفى دون الحولين.
- وفاة المهد تكثر نسبياً لدى الأطفال الذين يتغذون بالقارورة والألبان المصنّعة، بينما هي نادرة جداً لدى الأطفال الذين يتغذون على الألبان المصنّعة.
- لا يعاني الأطفال الذين يرضعون من أمهاتهم من الإمساك أو الإسهال إلا نادراً جداً بالمقارنة مع من يتغذون على الألبان المصنعة.

● الرضاعة تساعد على تكوين الأسنان وجعل الفك سليماً دون اعوجاج بينما التقام القارورة قد يؤدي إلى اعوجاج وسوء نمو الأسنان مما يجعلها تحتاج إلى عمليات تقويم فيما بعد.

● الرضاعة تحمي من مجموعة خطيرة من الأمراض منها البول السكري الذي يصيب الأطفال (النوع الأول)، وتصلب الشرايين، وبعض أنواع السرطان، والسمنة. وتخفف من وقع أمراض وراثية كثيرة وخطيرة مثل التليف الكيسي، وبيلة فينيل كيتون، ومرض نقص الزنك الوراثي، ومرض سيلياك (المرض الجوفي) الذي يصيب الجهاز الهضمي. وكل هذه الأمراض تحدث بصورة أخف لدى من يرضعون من أمهاتهم بالمقارنة مع من يلتقمون القارورة.

● لا يحدث الكساح لدى من يرضعون بينما يحدث الكساح بنسبة غير قليلة لدى الأطفال الذين يتغذون على ألبان الأبقار المجففة. وذلك لأن لبن الأم (أو المرضع) يحتوي على كمية ذائبة من فيتامين (د) يسهل امتصاصها، بينما لبن الأبقار يؤدي إلى فقدانه جزءاً مما يحويه من الفيتامينات.

● يمتص الأطفال الذين يرضعون من أمهاتهم الحديد بصورة أفضل من أولئك الذين يتغذون بألبان الأبقار. وذلك لوجود مادة "لاكتوفرين" في لبن المرضع وهي مادة تساعد على امتصاص الحديد. كما أن في لبن الأم مادة بروتينية أخرى تتحد بالحديد وأجزاء من الخلايا بحيث لا يترك الحديد حرّاً في الأمعاء. وقد وجد أن الحديد الحر مهم لنمو بعض البكتريا العدوانية. وبالتالي فإن حرمان هذه البكتريا من الحديد يؤدي إلى إضعافها وسهولة القضاء عليها.

- تؤدي التغذية بالألبان المجففة للمواليد إلى زيادة في عدد من الهرمونات في جسم الطفل مثل الأنسولين والموتولين والنيوروتنسين. وهذه كلها لها علاقة بأمراض الاستقلاب^(١) التي تكثر عند مَنْ يُغَدَّونَ بالألبان الأبقار وتندر فيمن يرضعون.
- يحتوي لبن الأم على أحماض دهنية غير مشبعة وحيدة ومتعددة وهي أحماض دهنية هامة لبناء الجهاز العصبي بينما يحتوي لبن الأبقار على أحماض دهنية مشبعة لها علاقة فيما بعد بتصلب الشرايين والسمنة. كما توجد في لبن الأم خثائر خاصة تساعد على تحلل الدهون وسهولة امتصاص الكالسيوم.
- يحتوي لبن الأم على المعادن المطلوبة بكميات متناسبة متناسقة يسهل امتصاصها أما لبن الأبقار فيحتوي على كميات أكبر غير ذات فائدة، بل تسبب إرهاقاً لكلية الطفل من أجل طردها. ولهذا فإن الأطفال الذين يتغذون على ألبان الأبقار المجففة أكثر عرضة للإصابة بأمراض الكلى من الأطفال الذين يرضعون من أمهاتهم (أو المرضعات).
- الفوائد النفسية العديدة للطفل الذي يشعر بدفع الأمومة عند التقامه الثدي. فحليب الأم يمنح الطفل الاستقرار النفسي ويساعده على النوم والتهديئة. ويعمل كأفضل مسكن طبيعي للطفل.
- يساعد حليب الأم الطفل على تطوير جهازه الهضمي بشكل صحيح. حيث يعتبر حليب البقر مثيراً للأمعاء.
- إن حليب الأم يقي الطفل من مرض الحساسية فهو يوقف عنده تطور هذا المرض.
- الرضاعة الطبيعية تقي الطفل من كثير من الأمراض التنفسية أهمها مرض الربو.

(١) استقلاب: أيض: تحوُّل الغذاء إلى طاقة.

- الرضاعة الطبيعية تقي الطفل من أمراض الأذن والتهابات المتكررة.
- الرضاعة الطبيعية تقي الطفل من التهاب السحايا.
- الرضاعة الطبيعية تقي الطفل من نخر العظام ومن الأكزيما، ومن تقرحات المعدة.

• الطفل الذي يتغذى على صدر أمه يكون جلده أنعم من ذلك الطفل الذي يتغذى بحليب البقر، ويكون مستوى الرؤية عنده أفضل أيضًا.

منافع للأم:

- أثبتت كثير من الأبحاث أن الرضاعة تلعب دورًا وقائيًا للحماية من سرطان الثدي وسرطان الرحم.
- إن الرحم يتوسع ٢٠ مرة أثناء الحمل والولادة، وقد بينت الدراسات أن الإرضاع الطبيعي يساعد على عودة حجم الرحم للحدود الطبيعية، بعكس الأم التي لا ترضع طفلها فإن حجم الرحم يبقى عندها أكبر من الحدود الطبيعية. فتنبه عملية الرضاعة أثناء مص الثدي الغدة النخامية الخلفية لتفرز هرمون الأوكسيتوسن. وهو هرمون مهم جدًا لإعادة الرحم المتضخم بعد الولادة إلى حجمه ووضعته الطبيعي. وبالتالي يمنع النزف الشديد أثناء النفاس كما أنه يقي الأم من حمى النفاس الخطيرة.
- إن الرضاعة الطبيعية تساعد الأم على إنقاص وزنها وتقيها من السمنة.
- إن الرضاعة الطبيعية تعمل كمسكن طبيعي للأم أيضًا! إن الإرضاع الطبيعي يساعد الأم على النوم، ويساعد الطفل على النوم أيضًا.
- لبن الأم جاهز ومعقم ولا يحتاج إلى تحضير ومعاونة.
- تستفيد المرضع بعودة جسمها كله إلى وضعه الطبيعي قبل الحمل، وبالتالي تساعد الرضاعة على الرشاقة والحفاظ على الصحة.
- تقي الرضاعة الأم من الجلطات التي قد تحدث أثناء فترة النفاس.

● الرضاعة التامة خلال الأشهر الستة الأولى تعتبر من أهم وأفضل وسائل منع الحمل.

منافع للمجتمع:

● توفر الرضاعة من الأم ثمن الألبان المجففة وهي تبلغ آلاف الملايين من الدولارات سنوياً. إن الإرضاع الطبيعي غير مكلف بعكس الإرضاع الصناعي، ففي بداية الثمانينات من هذا القرن كانت الدول النامية (العالم الثالث) تستورد ما قيمته ألفي مليون دولار سنوياً من الألبان المجففة. وربما نذهل إذا علمنا أن الأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال تؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية لو اتبعت أسلوب الرضاعة الطبيعية فإنها ستوفر كل سنة ٣٦٠٠ مليون دولار.

● إن الرضاعة الطبيعية تنعكس إيجابياً على البيئة أيضاً! وذلك بسبب توفير التلوث الناتج عن عمليات تصنيع زجاجات الحليب وتجفيف حليب البقر، والنفايات الناتجة عن استهلاك هذا الحليب وهذه الزجاجات.

● توفر الرضاعة آلاف الملايين من الدولارات سنوياً التي تنفق على مداواة الأمراض الخطيرة الناتجة عن التغذية بالقارورة.

● تنقذ الرضاعة حياة ملايين الأطفال الذين يُتَوَفَّون، وخاصة في العالم الثالث بسبب عدم التعقيم والإسهال، وهذه لا يمكن أن تقدر بثمن. إذ أن حياة طفل واحد أعلى من أموال الدنيا كلها.

● تنقذ الرضاعة اليافعين والشباب من الانحرافات النفسية. وهذه لها مردود اجتماعي واقتصادي يقدر بآلاف الملايين من الدولارات سنوياً.

● تقلل الرضاعة من إصابة البالغين بأمراض عديدة خطيرة مثل تصلب الشرايين والبول السكري وسرطان الثدي وسرطان الرحم. وهذه لها مردود صحي بالغ ومردود اقتصادي يقدر بآلاف الملايين من الدولارات سنوياً.

ما هي المدة المثالية للإرضاع؟

لقد قامت منظمة الصحة العالمية ومنظمة اليونيسيف بالعديد من الأبحاث على الأطفال الرضع، وخرجوا بنتيجة أبحاثهم أن المدة المثالية هي سنتان! لأن الطفل خلال السنتين الأوليين من عمره يكون بحاجة ماسة لحليب معقم مثل حليب الأم، ولأن جهازه المناعي لا يستطيع مواجهة أي مرض محتمل قبل سنتين من عمره.

لقد اكتشف العلماء أن حليب الأم يحوي مواد مناعية مضادة للجراثيم، مع العلم أن الجنين في بطن أمه يستمد الأجسام المناعية منها طيلة فترة الحمل، وعندما يخرج هذا الجنين يكون محاطاً بعوامل كثيرة ممرضة، ولذلك فهو بحاجة لمناعة إضافية لا يجدها إلا في حليب الأم، ف سبحانه الله الذي هياً له هذا المصدر الطبيعي من الحماية.

لقد عقدت منظمة الصحة العالمية عام ٢٠٠١ مؤتمراً جاء في نتيجته: «إن السنتين الأوليين من حياة الطفل هما نافذة حرجية يتم خلالها بناء التأسيسات للنمو والتطور الصحي. إن تغذية الطفل الرضيع هي بعد جوهرية للعناية خلال هذه الفترة».

وجاء في نتيجة المؤتمر أيضاً أن المدة المثالية للإرضاع هي سنتان، لأن الطفل خلال هاتين السنتين يكون بحاجة ماسة للأجسام المناعية لتطوير جهازه المناعي، وهذه الأجسام لا يجدها إلا في حليب الأم.

ولذلك يؤكد الأطباء أن جميع أنواع الأغذية لا يمكن أن تكون كافية للطفل بمفردها خلال السنتين الأوليين من عمر الطفل؛ لأن الطفل يتعرض للكثير من العوامل والتي يصاب بنتيجتها بالعديد من الأمراض، وعندما يبلغ من العمر سنتين، تصبح العوامل ذاتها غير مؤثرة كما كانت من قبل، لذلك عمر السنتين هو عمر حرج وحساس للطفل وينبغي الاعتماد على حليب الأم خلاله لدرء هذه الأخطار.

يقول العلماء اليوم إن الطفل بعد أن يبلغ سنتين من العمر من الصعب جداً أن ينعكس العامل المعيق للنمو والذي كان ممكن الحصول قبل هذه المدة.

كذلك فقد بيّنت الأبحاث الحديثة أن الإرضاع الطبيعي لمدة ٢٤ شهرًا يقي الأم من خطر سرطان المبيض بنسبة الثلث.

إن أهم وأخطر فترة من عمر الطفل هي الستتان الأوليان وخلالهما يتعرض الطفل لكثير من العوامل والأمراض مثل الإسهال. ويستطيع حليب الأم بما يحويه من مواد مناعية أن يحمي الطفل من هذه الأمراض، حتى إن العلماء لا يزالون يجهلون الكثير من تركيب حليب الأم، ولكنهم يلمسون النتائج الرائعة للأطفال الذين يتغذون على حليب أمهاتهم.

فالخلاصة أن هنالك تأكيد من قبل الأطباء على أهمية إرضاع الأم لابنها سنتين كاملتين، وهذا ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

الإعجاز التشريعي في تنظيم العمليات التجارية

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضٌ فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَقَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَانِثٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ٢٨٢ - ٢٨٣﴾.

معنى الآيتين:

يا من آمنتم بالله واتبعتم رسوله محمدًا ﷺ إذا تعاملتم بدين إلى وقت معلوم فاكتبوه؛ حفظًا للمال ودفعًا للنزاع. وليُقم بالكتابة رجل أمين ضابط، ولا يمتنع من علمه الله الكتابة عن ذلك، وليقم المدين بإملاء ما عليه من الدين، وليراقب ربه، ولا ينقص من دينه شيئًا. فإن كان المدين محجورًا عليه لتبذيره وإسرافه، أو كان صغيرًا أو مجنونًا، أو لا يستطيع النطق لخرس به أو عدم قدرة كاملة على الكلام، فليتول الإملاء عن المدين القائم بأمره، واطلبوا شهادة رجلين مسلمين بالغين عاقلين من أهل العدالة. فإن لم يوجد رجلان، فاطلبوا شهادة رجل وامرأتين ترضون شهادتهما، حتى إذا نسيت إحداها ذكرتها الأخرى، وعلى الشهود أن يجيبوا من دعاهم إلى الشهادة، وعليهم

أداؤها إذا ما دُعوا إليها، ولا تَمَلُّوا من كتابة الدَّين قليلاً أو كثيراً إلى وقته المعلوم. ذلكم أعدل في شرع الله وهديهِ، وأعظم عوناً على إقامة الشهادة وأدائها، وأقرب إلى نفي الشك في جنس الدَّين وقدره وأجله. لكن إن كانت المسألة مسألة بيع وشراء، بأخذ سلعة ودفع ثمنها في الحال، فلا حاجة إلى الكتابة، ويُستحب الإشهاد على ذلك منعاً للنزاع والشقاق، ومن الواجب على الشاهد والكاتب أداء الشهادة على وجهها والكتابة كما أمر الله. ولا يجوز لصاحب الحق ومَن عليه الحق الإضرار بالكتَّاب والشهود، وكذلك لا يجوز للكتَّاب والشهود أن يضارَّوا بمن احتاج إلى كتابتهم أو شهادتهم، وإن تفعلوا ما نهيتهم عنه فإنه خروج عن طاعة الله، وعاقبة ذلك حالة بكم. وخافوا الله في جميع ما أمركم به، ونهاكم عنه، ويعلمكم الله جميع ما يصلح دنياكم وأخراكم. والله بكل شيء عليم، فلا يخفى عليه شيء من أموركم، وسيجازيكم على ذلك.

وإن كنتم مسافرين ولم تجدوا مَن يكتبُ لكم فادفعوا إلى صاحب الحق شيئاً يكون عنده ضماناً لحقه إلى أن يردَّ المدينُ ما عليه من دين، فإن وثق بعضكم ببعض فلا حرج في ترك الكتابة والإشهاد والرهن، ويبقى الدَّين أمانةً في ذمَّة المدين، عليه أدائه، وعليه أن يراقب الله فلا يخون صاحبه. فإن أنكر المدين ما عليه من دين، وكان هناك مَن حضر وشهد، فعليه أن يظهر شهادته، ومن أخفى هذه الشهادة فهو صاحب قلب غادر فاجر. والله المُطَّلِع على السرائر، المحيط علمه بكل أموركم، سيحاسبكم على ذلك.

الإعجاز التشريعي:

قد تحدثت الآيتان عن القوانين التي تنظم العمليات التجارية بين الناس كاللَّيْن والعقود والبيع والشراء، مع إعطاء كل ذي حق حقه، وقد سبق الإسلام في ذلك العالم كله بقرون عديدة.

إن رجال القانون في فرنسا قد وضعوا بعضاً من الأنظمة منذ أكثر من قرنين، وأخذتها معظم الدول العربية فيما بعد على أنها نتاج الحضارة الغربية "المتقدمة" ثم تبين بعد ذلك أن هذه القوانين هي ذاتها في كتاب الله تبارك وتعالى! والذي يثير العجب أن

الله تعالى جمع كل هذه المعاملات في آية واحدة من القرآن وهي آية الدين ولكن بصورة أكثر بلاغة ووضوحاً.

١ - نظام التوثيق:

في القرن السابع الميلادي لم يكن مألوفاً لدى العرب أو لدى الأمم من حولهم عملية توثيق البيع والشراء. فقد كانت العمليات التجارية تتم عشوائياً من دون أي تنظيم، إلا في حدود ضيقة جداً. وبقي الوضع على ما هو عليه حتى جاء الإسلام عندما أمر النبي ﷺ بتوثيق العمليات التجارية بين الناس.

وبالطبع لم يأت النبي ﷺ بهذا النظام من تلقاء نفسه، بل بأمر إلهي في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، ولذلك يمكن القول بأن أول تنظيم للعمليات التجارية تم في العهد الإسلامي. وفي العصر الحديث جاءت الثورة الفرنسية، وبدأت بعدها صياغة مجموعة من القوانين التي تنظم العمليات التجارية.

٢ - نظام الكاتب بالعدل:

هذا النظام لم يكن معروفاً في الدول المتقدمة إلا حديثاً، ثم أخذته الدول العربية منها، وهذا النظام موجود في القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً في قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾، ولذلك يجب القول بأن نظام الكاتب بالعدل والذي يهدف لتوثيق عمليات البيع والشراء بين الناس، هو نظام قرآني وليس نظاماً غريباً!

ثم إن القرآن أمر بكتابة كافة التفاصيل في العقد، وكتابة العقود فن قائم بذاته، لأن كلمة واحدة قد تغير مضمون العقد بشكل كامل، ولذلك فإن القوانين الحديثة تقول بأنه ينبغي كتابة كل التفاصيل صغيرة أو كبيرة، وهذا ما أشار إليه القرآن بقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْمُؤْا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾، تحدد هذه الآية الأجل أو

المدة في العقد، ويقول خبراء القانون، إن أهم ركن من أركان العقد هو الأجل أو مدة العقد أو زمن تسديد الدين!

إن القوانين الحديثة تقول بأنه ينبغي على الكاتب بالعدل أن يكتب الحقيقة كاملة ولا يتواطأ مع أحد الفريقين على حساب الآخر، وهذا ما أكدته القرآن ولم يغفل عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾.

٣- نظام الولي والوكالة:

هناك أشخاص ليس لديهم القدرة على البيع والشراء وليسوا مؤهلين قانونياً لمثل هذه العمليات، ومنهم الأطفال والمصابين بأمراض عقلية وهؤلاء أجاز لهم القانون اتخاذ ولي أو وكيل لهم ينوب عنهم في العقد. والقرآن أيضاً قد ذكر هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ وتأمل التأكيد القرآني على العدل دائماً ﴿فَلْيُمِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ لأن العدل أساس النظام القضائي الناجح.

٤- نظام الشهود:

نظام الشهادة مهم جداً لحل أي نزاع قانوني ينشأ بين المتخاصمين، وقد تم تطوير هذا النظام عبر السنين حيث تم وضع ضوابط تنظم عمل الشهود وقد طرح القرآن هذا التشريع بل وأمر به وهو أن يكون هناك شهود على أي عملية تجارية، ونظام الشهود معروف في القوانين الغربية، ويعتبرونه من إنجازاتهم، مع العلم أن القرآن قد سبقهم إلى هذا الأمر قبل ذلك بزمان طويل فقال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، ثم قال بعد ذلك محدداً عدد الشهود اللازم، ولضمان عدم كذب الشاهد: يقول تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن القرآن ميّز بين الرجل والمرأة، فالشهادة عملية دقيقة وحساسة ويتوقف عليها مصالح الناس، وبالتالي فإن شهادة المرأة الواحدة لا تكفي فلا بد من امرأتين، لماذا؟ ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾.

كذلك فإن القوانين الحديثة تؤكد على ضرورة امتثال الشاهد للشهادة أمام القاضي، ولا يجوز له أن يتخلف عنها، ويؤكدون أن ذلك ضروري من أجل نجاح القضاء وتحقيق العدالة. العجيب أن القرآن لم يغفل ذلك!! يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾.

كذلك حدد القرآن نوعية الشهود وأن يكونوا صادقين: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾، وهذا ما تقول به القوانين الحديثة، حيث يطلب القاضي أن يكون الشاهد عدلاً صادقاً، ولا تقبل شهادة الكاذب أو الذي اشتهر بالكذب.

٥ - نظام التجارة الحاضرة:

يقول خبراء القانون: ليس ضرورياً كتابة كل شيء في العمليات التجارية الجارية، حيث يتعذر على التاجر أن يكتب العمليات التي تتم بالبيع نقداً دون أجل، وبالتالي فإن ذلك يسهّل الكثير من العمليات التجارية الجارية، والعجيب أن القرآن قد أشار إلى ذلك ولم يغفل عنه، يقول تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾، فمثل هذا النوع من أنواع البيع والشراء ليس ضرورياً أن يكتب أو يؤثّق.

والقرآن يؤكد دائماً على نقطة لا نجدها في القوانين الوضعية، وهي أن الله تعالى يعلم كل شيء، ويعلم ما في النفوس، ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وهذا أسلوب نفسي رائع لضمان تطبيق هذه القوانين وعدم التلاعب فيها، أو التحايل على القانون كما نراه اليوم. فعندما تدرك أيها البائع أو أيها المشتري أن الله يعلم ما تفكر فيه، ويعلم نيّتك وسوف يحاسبك عليها، والعقوبة ستكون نار جهنم، عندها لا بد أن تنضبط وتطبق ما أمرك الله تعالى به، وهنا تتجلى روعة هذه القوانين الإلهية.

٦- نظام الرهن:

هناك نظام مهم في العمليات التجارية هو الرهن، وربما نتذكر الأزمة المالية العالمية وأحد أسبابها إساءة هذا النظام، وعقد صفقات وهمية مع البنوك، مما أدى إلى انهيار النظام المالي العالمي. هذا الرهن تحدث عنه القرآن ونظمه بقول تعالى: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ ولذلك فإن القرآن سبق القانونيين في الغرب إلى مثل هذا النظام، ولم يكتف بذلك (كما تفعل البنوك اليوم) بل أمر بأداء الأمانة بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِيَ مَأْمَنَتَهُ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾، وسبحان الله! لو تأملنا معظم الدعاوى والشكاوى في المحاكم وجدناها تحت بند "إساءة الأمانة"، ولو أن الناس طبقوا هذه الآية لزال كل المشاكل والقضايا التي تساهم في دمار الاقتصاد العالمي.

٧- نظام حماية الشهود وعقوبة الشهادة الكاذبة:

يؤكد المشرعون حديثاً على ضرورة الاهتمام بموضوع حماية الشهود، وهذا الموضوع أخذ مساحة كبيرة من المؤتمرات والمناقشات بهدف تحسين حماية الشهود، حتى إن بعض القانونيين يعتبرون أن النظام القضائي لن يكون ناجحاً من دون تأمين الحماية الكافية للشهود، وعدم خوفهم من بطش أحد الفريقين المتخاصمين.

ربما نعجب أن هذه الآية العظيمة لم تغفل هذا الجانب المهم، بل أضافت له جانباً مهماً وهو حماية الكاتب بالعدل أيضاً، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، وحذر من خطورة الإضرار بالشهود أو بالكاتب، فقال: ﴿وَأِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾. ومثل هذه التعاليم تجد صدى كبيراً في النفس البشرية.

ولكن الشاهد أحياناً لا يقول الحقيقة كاملة، وهذا يحدث كثيراً في المحاكم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ فهذا أمر صريح بضرورة قول الحقيقة كاملة، وانظروا كيف أن الله تعالى أمر باتخاذ الشهود، ونظم عملهم وأمر بحمايتهم وأمرهم بقول الحقيقة.

وهناك شيء ملفت للانتباه، وهي موضوع التقوى الذي تكرر ثلاث مرات:

• في قوله تعالى: ﴿فَلْيَكْتُِبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أمر إلهي بالتقوى وأن الله يراك ويرقبك.

• وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾. وهنا أمر إليه بالتقوى للجميع (الكاتب والشهود والبائع والمشتري).

• وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَمَنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أمر بأداء الأمانة وبالتقوى وعدم كتمان الشهادة.

ولكن ماذا يعني ذلك؟ إن مشكلة القوانين الوضعية أنه عند غياب الرقيب، فلا توجد وسيلة فعالة تمنع الإنسان من الخطأ أو الغش أو إساءة الأمانة، ولكن القرآن جعلك تشعر بمراقبة الله لك في كل لحظة، وهنا ضمن التطبيق العملي للقوانين حتى أثناء غياب الرقابة عليه، وهذه هي عظمة التشريعات الإلهية.

كذلك يؤكد خبراء القانون أن وضع القانون لا يكفي إنما ينبغي وضع الآلية التي تضمن تطبيق القوانين، مثل دراسة جدوى هذه القوانين وفائدتها وانعكاساتها على المجتمع، والعجيب أن القرآن لم يغفل هذه الناحية الهامة، ولم يضع القوانين من دون هدف وحكمة وتوجيه، بل وضع التوجيهات اللازمة والتي تضمن تطبيق هذه القوانين، ولذلك فقد وضع لنا الله ثلاثة أهداف من هذه القوانين وهي في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَم أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾.

١ - ﴿ذَلِكَم أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: فقبل كل شيء، يجب أن تشعر بمراقبة الله لك، وعندما تحقق ذلك فإنه يستحيل أن تخون الأمانة أو تغش أو تبخس الآخرين حقوقهم، وهذا ما لم تحققه القوانين الوضعية التي "تهمل" وجود خالق عظيم يتصرف في هذا الكون، ولذلك نرى بأن تطبيق القوانين الوضعية يكون ضعيفاً، وغالباً ما تخضع لتعديلات وإضافات مستمرة، على عكس القوانين الإلهية الثابتة.

٢- ﴿وَأَقِمْ لِلشَّهَادَةِ﴾: هذا الهدف يحدد الطريقة المثالية للتعامل من خلال توضيح الشهادة، حيث إن معظم النزاعات التجارية التي نراها اليوم، تحدث نتيجة غموض العقد والتباس ذلك على الشهود، ولكن القرآن كان حريصاً على التدقيق على هذه النقطة، أي ضرورة إحكام الشهادة ووضوحها وتوثيقها، وضمان عدم الالتباس والابتعاد عن الأخطاء.

٣- ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾: هذا الهدف مهم جداً لدفع أية شبهة أو خطأ أو ارتياب. ويقول القانونيون والمشرعون، من الضروري جداً أن تتم كتابة العقد بوضوح كامل مراعية كل التفاصيل، وأن يتم دفع أي ارتياب يمكن أن يحدث. ونقول أليس هذا ما أمر به القرآن؟

إن النظام القرآني للعمليات التجارية يتميز بأنه من عند الله تعالى، ولذلك فإنه يمثل أمراً إلهياً من تركه فقد أثم، ومن فعله أخذ الأجر والثواب، وهذا لا نجده في القوانين الوضعية التي جاءت فقط لحماية الحقوق.

قد يقول قائل كيف يمكن بكلمات قليلة أن نختصر كتب القانون التي تملأ المكتبات والجامعات؟ إن المسلمين بفضل هذه التعليمات القليلة بكلماتها ولكنها عظيمة بآثرها، استطاعوا أن يفتحوا العالم وأن يحققوا العدل بشكل لم يحققه أحد على مر العصور!! وهذا يدل على أثر تعاليم القرآن على الناس، ولكننا عندما ابتعدنا عن هذا الكتاب وعن تعاليم الخالق ﷻ، ركبتنا الهموم وأصبحنا أكثر الأمم تخلفاً: غثاء كغثاء السيل!!

وقد يقول آخر: هناك العديد من القوانين في شريعة حمورابي والقوانين الرومانية والقوانين التي كانت سائدة في حضارة الصين والهند وغيرها قبل الإسلام، ونقول: إن هذه القوانين كانت مزيجاً من الصواب والخطأ، بل هذه القوانين كانت تعطي الحصانة المطلقة للملك أو الإمبراطور، والذي فعله الإسلام أنه صحح القوانين الخاطئة، وأبقى على القوانين الصحيحة، وهذا لم يكن باستطاعة بشر يعيش في ذلك الزمن، ولذلك فإن هاتان الآيتان من آيات الإعجاز التشريعي والتي تشهد على صدق القرآن وأنه كتاب

صالح لكل زمان ومكان. فمن أين جاء النبي ﷺ بتشريعات دقيقة كهذه، واختصرها في آيتين اثنتين، لو لم يكن رسولاً من عند الله؟!

خمسون حكماً:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَالْكُتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكُتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكُتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ٢٨٢ - ٢٨٣﴾.

قال الشيخ السعدي رحمه الله في تفسير الآية الأولى:

«هذه آية الدين، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار:

أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذاكراً أحكامها، وذلك يدل على الجواز.

الثاني والثالث: أنه لا بد للسلم من أجل وأنه لا بد أن يكون معيناً معلوماً فلا يصح حالاً ولا إلى أجل مجهول.

الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات إما وجوباً وإما استحباباً لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم.

الخامس: أمر الكاتب أن يكتب.

السادس: أن يكون عدلاً في نفسه لأجل اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته.

السابع: أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقراءة أو صداقة أو غير ذلك.

الثامن: أن يكون الكاتب عارفاً بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾.

التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا.

العاشر: قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾ أي: لا يمتنع من من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتدائنين، فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم.

الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق.

الثاني عشر: أن الذي يملئ من المتعاقدين من عليه الدين.

الثالث عشر: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يخس منه شيئاً.

الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يمل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجهه ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطاً أو سهواً.

الخامس عشر: أن مَنْ عليه حقا من الحقوق التي البينة على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول مَنْ له الحق، لأنه تعالى لم ينه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته.

السادس عشر: أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئاً من مقدارها، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه ولواحقه.

السابع عشر: أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار.

الثامن عشر: أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البخس لقوله ﴿بِالْعَدْلِ﴾.

التاسع عشر: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق.

العشرون: ثبوت الولاية في الأموال.

الحادي والعشرون: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم.

الثاني والعشرون: أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئاً لطفاً بهم ورحمة، خوفاً من تلاف أموالهم.

الثالث والعشرون: صحة تصرف الولي في مال مَنْ ذُكر.

الرابع والعشرون: فيه مشروعية كَوْن الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتدانيون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع.

الخامس والعشرون: أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم.

السادس والعشرون: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه النذب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان المتصرف ولي يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجباً.

السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضاً أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي^(١).

الثامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل.

التاسع والعشرون: أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تُقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات، والله أعلم.

الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ والعبد البالغ من رجالنا.

الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكوراً كانوا أو نساءً غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل.

الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها.

الثالث والثلاثون: أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله: ﴿فَتَذَكَّرْ أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى﴾.

(١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بَيِّمِينَ وَشَاهِدٍ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

الرابع والثلاثون: يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأتى لقوله: «وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا».

السادس والثلاثون: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء.

السابع والثلاثون: النهي عن السامة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود.

الثامن والثلاثون: بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه «أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا» فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر.

التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها بل لا بد من اليقين.

الأربعون: قوله: «إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا» فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرة بحاضر، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة.

الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يُشَرِّعُ للإشهاد لقوله: «وَأَشْهَدُوا إِذَا بَيَّعْتُمْ».

الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه.

الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضا بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك، هذا على جعل قوله: «وَلَا

يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴿ مَبْنِيًّا لِلْمَجْهُولِ، وأما على جعلها مَبْنِيًّا للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاكتب أن يَضَارَّ صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجره شاقة ونحو ذلك، وهذان هما الرابع والأربعون والخامس والأربعون.

والسادس والأربعون: أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق لقوله: ﴿وَأِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾.

السابع والأربعون: أن الأوصاف كالفسق والإيثار والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله: ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾، ولم يقل فأنتم فاسقون أو فُسَّاق.

الثامن والأربعون: وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه - اشتراط العدالة في الشاهد لقوله: ﴿مَنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾.

التاسع والأربعون: أن العدالة يشترط فيها العُرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضياً معتبراً عند الناس قُبِلَت شهادته.

الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى، فهذه الأحكام مما يُسْتَنْبَط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، والله في كلامه حكم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده.

ثم شرع الشيخ السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْكُمْ بَعْضٌ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٣). فقال:

أي: إن كنتم مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب بينكم ويحصل به التوثق ﴿فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً﴾ أي: يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق، ودل أيضاً على أن الراهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهن به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله

جعل الرهن عوضاً عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهن به لم يحصل المعنى المقصود.

ولما كان المقصود بالرهن التوثق جاز حضراً وسفراً، وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة إليه لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يجب أن يتوثق لحقه، فأما إن كان صاحب الحق آمناً من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملاً غير ظالم له ولا باخس حقه.

﴿وَلَيَتَّقِ اللَّهَ رَبُّهُ﴾ في أداء الحق ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكتُمها من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وجب عليه من الخبر الصدق ويخبر بصدقه وهو الكذب، ويترتب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حكم عظيمة ومصالح عميمة دلت على أن الخلق لو اهتموا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم، لاشتغالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا نحصي ثناء عليه^(١).

(١) تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ١١٨ - ١٢٠).

من أوجه الإعجاز التشريعي في الصيام

يعتقد كثير من الناس أن للصيام تأثيراً سلبياً على صحتهم، وينظرون إلى أجسامهم نظرتهم إلى الآلة الصماء، التي لا تعمل إلا بالوقود، وقد اصطلحوا على أن تناول ثلاث وجبات يومياً، أمر ضروري لحفظ حياتهم، وأن ترك وجبة طعام واحدة سيكون لها من الأضرار والأخطار الشيء الكثير كنتيجة طبيعية للجهل العلمي، بطبيعة الصيام الإسلامي وفوائده المحققة.

الوقاية من العلل والأمراض:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣). أخبر الله ﷻ أنه فرض علينا الصيام وعلى مَنْ قَبْلَنَا، لنكتسب به التقوى الإيمانية التي تحجزنا عن المعاصي والآثام.

وبالصيام نتوقى كثيراً من الأمراض والعلل الجسمية والنفسية، وقد ثبت من خلال الأبحاث الطبية بعض الفوائد الوقائية للصيام ضد كثير من الأمراض والعلل الجسمية والنفسية، منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- يقوّي الصيام جهاز المناعة، فيقي الجسم من أمراض كثيرة، حيث يتحسن المؤشر الوظيفي للخلايا اللمفاوية عشرة أضعاف، كما تزداد نسبة الخلايا المسؤولة عن المناعة النوعية زيادةً كبيرة، كما ترتفع بعض أنواع الأجسام المضادة في الجسم، وتنشط الردود المناعية نتيجة لزيادة البروتين الدهني منخفض الكثافة.

٢- الوقاية من مرض السمنة وأخطارها، حيث إنه من المعتقد أن السمنة كما قد تنتج عن خلل في تمثيل الغذاء، فقد تسبب عن ضغوط بيئية أو نفسية أو اجتماعية، وقد تتضافر هذه العوامل جميعاً في حدوثها، وقد يؤدي الاضطراب النفسي إلى خلل في التمثيل الغذائي، وكل هذه العوامل التي يمكن أن تتجم عنها السمنة، يمكن الوقاية منها بالصوم من خلال الاستقرار النفسي والعقلي الذي يتحقق بالصوم نتيجة الجو

الإيماني الذي يحيط بالصائم، وكثرة العبادة والذكر، وقراءة القرآن، والبعد عن الانفعال والتوتر، وضبط النوازع والرغبات، وتوجيه الطاقات النفسية والجسمية توجيهًا إيجابيًا نافعا.

٣- يقي الصيام الجسم من تكون حصيات الكلى، إذ يرفع معدل الصوديوم في الدم فيمنع تبلور أملاح الكالسيوم، كما أن زيادة مادة البولينا في البول، تساعد في عدم ترسب أملاح البول، التي تكون حصيات المسالك البولية.

٤- يقي الصيام الجسم من أخطار السموم المتراكمة في خلاياه، وبين أنسجته، من جراء تناول الأطعمة، وخصوصًا المحفوظة والمصنعة منها وتناول الأدوية واستنشاق الهواء الملوث بهذه السموم.

٥- يخفف الصيام ويهدئ ثورة الغريزة الجنسية، وخصوصًا عند الشباب، وبذلك يقي الجسم من الاضرابات النفسية والجسمية، والانحرافات السلوكية، إذا التزم الشاب الصيام وأكثر منه، وذلك تحقيقًا للإعجاز في حديث النبي ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» (رواه البخاري ومسلم). (فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ) أي فليكثر من الصوم المتواصل. (وَجَاءٌ): قاطع للشهوة.

وقد وُجد أن الإكثار من الصوم مع الاعتدال في الطعام والشراب، وبذل الجهد المعتاد يقترب من الصيام المتواصل، ويحني الشاب فائدته في تثبيط غرائزه المتأججه بيسر، كما لا يتعرض إلى أخطار هذا النوع من الصيام.

والإعجاز في قول النبي ﷺ: «فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» من وجهين:

الأول: الإشارة إلى أن الخصيتين هما مكان إنتاج عوامل الإثارة الجنسية، حيث إن معنى الوجود رَضُ الْخُصْيَيْنِ وَقِيلَ رَضُ عُرْوَقِهِمَا (أي دَقَّ عروق خصتيه بين حجرين) وَمَنْ يُفْعَلْ بِهِ ذَلِكَ تَنْقَطِعَ شَهْوَتُهُ، فيكون شبيهًا بالخصاء، ويتنزل في قطعه منزلة الخصي، وقد ثبت أن في الخصيتين خلايا متخصصة في إنتاج هرمون

التستوستيرون، وهو الهرمون المحرّك والمثير للرغبة الجنسية، وأن قطع الخصيتين (الخصي) يُذهب هذه الرغبة، ويخمدّها تمامًا.

الثاني: إن الإكثار من الصوم مثبط للرغبة الجنسية وكابح لها، وقد ثبت هبوط مستوى هرمون الذكورة (التستوستيرون)، هبوطًا كبيرًا أثناء الصيام المتواصل، بل وبعد إعادة التغذية بثلاثة أيام، ثم ارتفع ارتفاعًا كبيرًا بعد ذلك، وهذا يؤكد أن الصيام له القدرة على كبح الرغبة الجنسية مع تحسينها بعد ذلك، وهذا يؤكد فائدة الصوم في زيادة الخصوبة عند الرجل بعد الإفطار.

بعض الأمراض التي يعالجها الصيام:

يعالج الصيام عددًا من الأمراض الخطيرة أهمها:

أ- الأمراض الناتجة عن السمّة: كمرض تصلب الشرايين، وضغط الدم، وبعض أمراض القلب.

ب- يعالج بعض أمراض الدورة الدموية الطرفية مثل: مرض الرينود ومرض برجر.

ج- يعالج الصيام المتواصل (الطبي) مرض التهاب المفاصل المزمن (الروماتويد).

د- يعالج الصيام الإسلامي ارتفاع حموضة المعدة، وبالتالي يساعد في التئام قرحة المعدة مع العلاج المناسب.

فوائد أخرى تجنى بالصوم:

١- يمكن الصيام آليات الهضم والامتصاص في الجهاز الهضمي وملحقاته، من أداء وظائفها على أتم وأكمل وجه، وذلك بعدم إدخال الطعام والشراب على الوجبة الغذائية، أثناء هضمها وامتصاصها.

كما يتيح الصيام راحة فسيولوجية للجهاز الهضمي وملحقاته، وذلك بمنع تناول الطعام والشراب لفترة زمنية، تتراوح من ٩ - ١١ ساعة بعد امتصاص الغذاء كما تستريح آليات الامتصاص في الأمعاء طوال هذه الفترة من الصيام.

وتتمكن الانقباضات الخاصة بتنظيف الأمعاء، من عملها المستمر دون توقف.

٢- يمكن الصيام الغدد الصماء ذات العلاقة بعمليات الاستقلاب^(١)، في فترة ما بعد الامتصاص، من أداء وظائفها في تنظيم وإفراز هرموناتها الحيوية على أتم حال، وذلك بتنشيط آليات التثبيط والتنبه لها يوميًا، ولفترة دورية ثابتة، ومتغيرة طوال العام، وبالتالي يحصل توازن بين الهرمونات المتضادة في العمل، مثل هرموني: النمو والأنسولين، كهرمونات بناء من ناحية، وهرموني: الجلوكاجون والكورتيزول، كهرمونات هدم من ناحية أخرى، والذي يتوقف على توازنها الدقيق، تركيز الأحماض الأمينية في الدم، توازن الاستقلاب.

٣- ينشط الصيام آليات الاستقلاب أو التمثيل الغذائي في البناء والهدم للجلوكوز والدهون، والبروتينات في الخلايا، لتقوم بوظائفها على أكمل وجه.

٤- أما إذا اقتصر الجسم على البناء فقط، وكان همه التخزين للغذاء في داخله، فإن آليات البناء تغلب آليات الهدم، فيعترى الأخيرة - لعدم استعمالها بكامل طاقتها - وهن تدريجي، تظهر ملامحه عند تعرض الجسم لشدة مفاجئة، بانقطاع الطعام عنه في الصحة، أو المرض، فقد لا يستطيع هذا الإنسان مواصلة حياته، أو مقاومة مرضه.

٥- يحسن الصيام خصوبة المرأة والرجل على السواء.

٦- يستفيد الإنسان من العطش أثناء الصيام استفادة كبيرة، حيث يساعد في إمداد الجسم بالطاقة، وتحسين القدرة على التعلم، وتقوية الذاكرة.

(١) استقلاب: أيض: تحوّل الغذاء إلى طاقة.

٧- تتهدم الخلايا المريضة والضعيفة في الجسم عندما يتغلب الهدم على البناء أثناء الصيام، وتتجدد الخلايا أثناء مرحلة البناء.

٨- كذلك فإن أداء الصيام الإسلامي طاعة لله ﷻ وخشوعاً له، ورجاء فيما عنده ﷻ من الأجر والثوبة، عمل ذو فائدة جمّة لنفس الإنسان وجسمه، حيث يث في النفس السكينة والطمأنينة، وينعكس هذا بدوره على آليات الاستقلاب فيجعلها تتم في أوفق وأيسر وأنفع السبل، مما يعود بالنفع والفائدة على الجسم.

إن الصيام كإقتناع فكري وممارسة عملية، يقوّي لدى الإنسان كثيراً من جوانبه النفسية، فيقوي لديه الصبر، والجلد، وقوة الإرادة، وضبط النوازع والرغبات، ويُضفي على نفسه السكينة والرضا والفرح.

وقد أخبر بذلك النبي ﷺ فقال: «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ» (رواه البخاري ومسلم).

يُسّر الصيام الإسلامي وسهولته:

تشير الدراسات العلمية في وظائف أعضاء الجسم أثناء مراحل التجويع، إلى يسر الصيام الإسلامي وسهولته، فيتجلى يسر الصيام الإسلامي في إمداد الجسم بجميع احتياجاته الغذائية، وعدم حرمانه من كل ما هو لازم ومفيد له، فالإنسان في هذا الصيام، يمتنع عن الطعام والشراب فترة زمنية محدودة، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وله حرية المطعم والمشرب من جميع الأغذية والأشربة المباحة ليلاً، ويعتبر الصيام الإسلامي بهذا النظام تغييراً لمواعيد تناول الطعام والشراب فحسب، فلم يفرض الله ﷻ الانقطاع الكلي عن الطعام لمدد طويلة، أو حتى لمدة يوم وليلة، تيسيراً وتخفيفاً على أمة خاتم الأنبياء ﷺ، وقد تجلّى هذا اليسر بعد تقدم وسائل المعرفة والتقنية في هذا العصر.

فقد قسمت المراجع الطبية التجويع إلى ثلاث مراحل: مرحلة مبكرة، ومتوسطة، وطويلة الأجل، وتقع المرحلة المبكرة بعد نهاية فترة امتصاص آخر وجبة (أي بعد حوالي ٥ ساعات من الأكل) وحتى نهاية فترة ما بعد الامتصاص والتي

تتراوح مدتها حوالي ١٢ ساعة، وقد تمتد إلى ٤٠ ساعة عند بعض العلماء، في هذه الفترة يقع الصيام الإسلامي كما يقع في فترة امتصاص الغذاء.

وهذه الفترة من الانقطاع عن الطعام آمنة تمامًا بالمقاييس العلمية، فالجلوكوز هو الوقود الوحيد للمخ، والدهون لا تتأكسد بالقدر الذي يولد أجسامًا كيتونية بالدم أثناء هذه الفترة، كما لا يُستهلك البروتين في إنتاج الطاقة بالقدر الذي يحدث خللاً في التوازن النروجيني في الجسم؛ مما حدا ببعض العلماء أن يسقط فترة ما بعد الامتصاص من مراحل التجويع أصلاً، وهذه الحقيقة تجعل الصيام الإسلامي متفرداً في يسره وسهولته عكس مراحل التجويع الأخرى.

من خلال عرض الحقائق السابقة، ندرك أن مدة الصيام الإسلامي والتي تتراوح من ١٢ - ١٦ ساعة في المتوسط، يقع جزء منها في فترة الامتصاص، ويقع معظمها في فترة ما بعد الامتصاص، ويتوفر فيها تنشيط جميع آليات الامتصاص والاستقلاب بتوازن، فتنشط آلية تحلل الجليكوجين، وأكسدة الدهون، وتحللها وتحلل البروتين، وتكوين الجلوكوز الجديد منه، ولا يحدث للجسم البشري أي خلل في أي وظيفة من وظائفه، فلا تتأكسد الدهون بالقدر الذي يولد أجسامًا كيتونية تضر بالجسم، ولا يحدث توازن نروجيني سلبي لتوازن استقلاب البروتين، ويعتمد المخ البشري، وخلايا الدم الحمراء، والجهاز العصبي، على الجلوكوز وحده للحصول منه على الطاقة بينما التجويع أو الصيام الطبي - القصير والطويل منه - لا يقف عند تنشيط هذه الآليات، بل يشتد حتى يحدث خللاً في بعض وظائف الجسم.

يعتبر الصيام الإسلامي تمثيلاً غذائياً فريداً، إذ يشتمل على مرحلتين البناء والهدم، فبعد وجبتي الإفطار والسحور، يبدأ البناء للمركبات الهامة في الخلايا، وتجديد المواد المخزنة، والتي استهلكت في إنتاج الطاقة، وبعد فترة امتصاص وجبة السحور، يبدأ الهدم، فيتحلل المخزون الغذائي من الجليكوجين والدهون، ليمد الجسم بالطاقة اللازمة، أثناء الحركة والنشاط في نهار الصيام.

وقد أكد النبي ﷺ على ضرورة تناول وجبة السحور، بقوله: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَهً» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وفي ذلك إمدادٌ للجسم بوجبة بناء يستمر لمدة ٤ ساعات، محسوبة من زمن الانقطاع عن الطعام، وبهذا أيضًا يمكن تقليص فترة ما بعد الامتنصاص إلى أقل زمن ممكن.

كما أن النبي ﷺ قد حث على تعجيل الفطر وتأخير السحور حيث قال: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَعَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: «تَسَحَّرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ»، قُلْتُ: «كَمْ كَانَ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالسَّحُورِ؟» قَالَ: «قَدَرُ خَمْسِينَ آيَةً» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

وهذا من شأنه تقليص فترة الصيام أيضًا إلى أقل حد ممكن، حتى لا يتجاوز فترة ما بعد الامتنصاص ما أمكن، وبالتالي فإن الصيام الإسلامي لا يسبب شدة، ولا يشكل ضغطًا نفسيًا ضارًا على الجسم البشري، بحال من الأحوال.

وبناء على هذه الحقائق يتبين أن الذي يتوقف أثناء الصيام، هو عمليات الهضم والامتصاص، وليست عمليات التغذية، فخلايا الجسم تعمل بصورة طبيعية، وتحصل على جميع احتياجاتها اللازمة لها، من هذا المخزون بعد تحلله، والذي يعتبر هضمًا داخل الخلية، فيتحول الجليكوجين إلى سكر الجلوكوز، والدهم والبروتينات إلى أحماض دهنية وأحماض أمينية، بفعل شبكة معقدة من الإنزيمات، والتفاعلات الكيميائية الحيوية الدقيقة، والتي يقف الإنسان أمامها مشدوهاً معترفاً بجلال الله ﷻ وعلمه، وعظيم قدرته وإحكام صنعه.

فمن أخبر النبي محمدًا ﷺ أن في الصيام وقاية للإنسان من أضرار نفسية وجسدية؟ ومن أخبره أن فيه منافع وفوائد يجنيها الأصحاء؟ ومن أخبره ﷺ بأن الصيام سهل ميسور، لا يضر بالجسم ولا يجهد بالنفس؟ ومن أطلعه ﷺ على أن كثرة الصوم تثبط الرغبة الجنسية وتخفف من حدتها وثورتها خصوصًا عند الشباب، فيصير الشباب آمنًا من الاضطرابات الغريزية النفسية، ومحصنًا ضد الانحرافات السلوكية؟! وخصوصًا أنه ﷺ نشأ في بيئة لا تعرف هذا الصيام ولا تمارسه. إنه الله ﷻ.

حكمة النهي عن وصال الصيام:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ (البقرة: ١٨٧)، في هذه الآية يظهر لنا التوجيه الرباني لهذه البشرية ورحمة الله بعباده، فيوجههم لما فيه سلامة أجسامهم وصحتهم، حيث يشير إلى عدم الوصال في الصيام.

ثم يأتي النهي من متلقي الوحي الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْوَصَالَ»، قَالَهَا: ثَلَاثَ مَرَارٍ، قَالُوا: «فَإِنَّكَ تَوَاصَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟». قَالَ: «إِنَّكُمْ لَسْتُمْ فِي ذَلِكَ مِنِّي، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي، فَالْكُفُوفُ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ» (رواه البخاري ومسلم).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَوَاصِلُوا، فَإِنَّكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

الحقيقة العلمية:

النصوص السابقة من الكتاب والسنة تنهى عن الوصال في الصيام، حيث يترافق الصيام في رمضان مع تغيرات هرمونية في جسم الصائم، تهدف إلى المحافظة على تزويد خلايا الجسم بحاجتها من الطاقة الحيوية اللازمة للقيام بالوظائف الحيوية والفسيولوجية المختلفة، إذ يقل منسوب هرمون الأنسولين بعد ساعات من تناول وجبة السحور، ويبدأ بعدها هرمون الجلوكاجون بالارتفاع ليضمن المحافظة على منسوب سكر الدم (الجلوكوز) ضمن مستوياته الطبيعية، من خلال القيام بعمليات تحلل الجليكوجين حين يبدأ الجسم بالتحول إلى الاعتماد على أكسدة الأحماض الدهنية الموجودة في الأنسجة الدهنية لإنتاج طاقة الغذاء.

لذا يزداد اعتماد الجسم على أكسدة الأحماض، وإنتاج الأجسام الكيتونية لمصدر الطاقة، والتي تؤدي ارتفاع منسوبها في الدم، وتراكمها في الجسم إلى حصول تغيرات سلبية على صحة الجسم وحيويته.

وجه الإعجاز:

ظهر من خلال النصوص الشرعية من الكتاب والسنة أن الحقيقة العلمية اتفقت مع الدلالة الشرعية، إذ أن الدلالة الشرعية نصت على عدم الوصال في الصيام، إذ كان النهي واضحاً من خلال قوله ﷺ: «لَا تُوَاصِلُوا، فَأَيُّكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحْرِ»، وجاءت الحقيقة تبين أن مرحلة الصيام "الطويل" تؤول إلى تطور الأعراض السلبية، والمتمثلة في زيادة تركيز الأجسام الكيتونية وزيادة حموضة الدم، كما أنها تؤول إلى لجوء الجسم إلى استخدام العضلات كمصدر للأحماض الأمينية المنتجة للجلوكوز من خلال عملية تصنيع الجلوكوز من غير مصادره السكرية التي تؤدي إلى حصول الهزال، وضمور العضلات، وضعف الجسم العام.

فظهر التطابق بين الحقيقة العلمية والنصوص الشرعية في أجمل صور الإعجاز المبهرة.

أوجه الاتفاق والاختلاف بين الصيام الشرعي والتجويع!!

هناك أوجه اتفاق واختلاف بين الصيام في الإسلام، وبين ما يعرف بالصيام الطبي (التجويع المطلق)، وتتيح أوجه الاتفاق بينهما مساحة مشتركة تجعل كل الفوائد الثابتة علمياً للصيام الطبي، تتحقق بالصيام الإسلامي المثالي، الذي تقل فيه فترة الهضم والامتصاص، وذلك بالاعتدال في الطعام أثناء السحور والإفطار، وتتاح فيه فرصة أكبر لعملية تحليل المدخرات الغذائية، وذلك ببذل الجهد والعمل الدائب والتخلص من الكسل وكثرة النوم أثناء الصيام.

ويمكن تلخيص أوجه الاتفاق والاختلاف بين الصيام الطبي والصيام الإسلامي في النقاط التالية:

1- يتفق الاثنان في تحقيق هدف مشترك، هو إراحة الجسم من هضم الغذاء، وإتاحة الفرصة لاستهلاك المدخر منه، وطرح السموم المتراكمة فيه، وتنشيط عمليات الاستقلاب الحيوية.

2- كلاهما يمتنع فيه عن تناول المواد الغذائية في فترة زمنية محددة.

3- يختلفان في أن للصيام الإسلامي فترة زمنية محددة بنهار اليوم، ومتابعة لمدة شهر، ودورية كل سنة على وجه الإلزام للمسلم، ولعدة أيام متفرقة في بقية العام على وجه الاختيار (صيام التطوع)، أما في الصيام الطبي فهو امتناع عن الغذاء فترة زمنية متصلة تحدد لكل إنسان حسب ظروفه، أو مرضه، وهي على وجه الاختيار.

4- الصيام الإسلامي يستطيعه كل المكلفين الأصحاء في شتى الأقطار والأزمان، وهو سهل ميسور، وليس فيه أية أخطار على الجسم، ولا يمثل أية شدة، والمسلمون يصومون طائعين، فرحين محبين، أما الصوم الطبي فلا يستطيعه الناس جميعاً، وهو قهر شديد للنفس، ويمثل مشقة وعَتّاً للجسم، ولا يقبل عليه إلا من طغى عليه المرض، أو استيقن بفائدة يجنيها من ممارستها، ويصوم محاطاً بالأطباء والممرضين وأجهزة الإسعاف والطوارئ.

5- للتجوع أخطار لا توجد في الصيام الإسلامي؛ فالجسم يُحرم أثناء التجوع من إمداده بالأحماض الدهنية الأساسية، والأحماض الأمينية الأساسية، والتي لا تتوافر إلا في الغذاء، وتتجمع كميات كبيرة من الأحماض الدهنية في الكبد، نتيجة لتحلل الدهن المخزن في أنسجة الجسم بمعدلات كبيرة، مما يؤدي إلى ترسب الدهن بكثرة (ثلاثي الجليسول في خلاياه، الأمر الذي ينجم عنه حالة تشمع للكبد فتضطرب وظائفه ويصاب الجسم بالعلل).

وهذا بفضل الله ﷻ لا يحدث في الصيام الإسلامي، حيث يمد الجسم بالأحماض الدهنية الأساسية، والأحماض الأمينية الأساسية، في وجبتي السحور والفطور، ويقوم الكبد بتركيب البروتين والمواد الدهنية والفوسفورية، بمعدل كاف لعملية تصنيع البروتين الشحمي منخفض الكثافة جداً، وهو المركب الذي يسهل نقل الدهون من الكبد، وحتى لا تتجمع بكميات كبيرة تعوق هذه العملية الحيوية، فلا يحدث التشمع الكبدي كما في حالة التجوع.

والحرمان من الأحماض الأمينية والدهنية يؤدي إلى خلل في الجسم فلا تكون بعض البروتينات، والهرمونات، والإنزيمات الهامة، والتي يتوقف تكوّنها على توافر

الأحماض الأساسية، كما أن الحرمان من الأحماض الأمينية في الغذاء يؤدي إلى تدهم مزيد من خلايا الجسم، خصوصاً العضلات لإنتاج هذه الأحماض واستخدامها في تصنيع الجلوكوز، أو إنتاج الطاقة بعد تحويلها إلى أحماض ألكسوجينية، ويحدث بذلك توازن نروجيني سلبي.

كما أنه في حالة التجويع تحدث أكسدة كثيفة للأحماض الدهنية المتجمعة في الكبد، مما ينتج عنه كميات كبيرة من الأجسام الكيتونية، والتي تؤدي بدورها إلى حموضة شديدة بالدم.

للصيام الإسلامي مميزات لا توجد في التجويع، وهي كما يلي:

أ- يحدث توازن لدورتي البناء والهدم أثناء الصيام الإسلامي، وذلك بتناول الطعام في المساء، والامتناع عنه أثناء النهار، ويصب في مجمع الأحماض الأمينية كمية كبيرة من هذه الأحماض القادمة مع الغذاء، مما يساعد على التجديد السريع للخلايا، ومكوناتها، وتوفير القدر اللازم منها لإنتاج جلوكوز الدم أثناء النهار وتوفير الأحماض الأمينية الحرة في بلازما الدم.

ب- وجود كمية مخزونة من البروتين في خلايا الكبد، بواسطة التضخم وفرط التنسج بعد وجبتي الفطور والسحور يجعل الجسم قادرًا على تكوين البروتينات الحيوية اللازمة كبروتينات البلازما (الألبومين والجلوبيولين والفيبرونوجين)، وعوامل تخثر الدم، وكثير من البروتينات اللازمة لنقل المواد والمركبات الحيوية فيما بين الأعضاء والأنسجة المختلفة، وذلك كالبروتين اللازم لنقل الحديد، وفيتامين ب١٢، والأدوية، وغير ذلك، وهذا لا يتوفر بكميات كافية أثناء التجويع لفترات طويلة، مما يسبب سيولة في الدم، وتورمًا في الجسم، وانخفاضًا في الأجسام المضادة، وظهور أعراض نقص فيتامين ب١٢ وبعض المعادن الحيوية الأخرى.

ج - يحدث مزيد من إنتاج اليوريا من الأمونيا المتكونة من الأحماض الأمينية، بعد تناول الغذاء في المساء، ولا يحدث غالبًا أي خلل في التوازن النروجيني أثناء

النهار، نتيجة لتخزين الكبد لكمية من البروتين في خلاياه بعد وجبتي السحور والإفطار.

د- يتخلص الجسم من الدهون بطريقة طبيعية آمنة في الصيام الإسلامي، فلا تؤدي إلى تشمّع الكبد، حيث لا تتجمع كميات كبيرة منها كما في التجويع.

هـ- تنشط عمليات الكبد الحيوية في الصيام الإسلامي، فيقوم بتصنيع البروتين، والمواد الدهنية الفوسفورية، لتكوين البروتين الشحمي الحيوي للجسم، والذي يقوم بنقل الدهون من الكبد، بعكس التجويع الذي يثبط هذه العملية الحيوية.

و- تتأكسد الأحماض الدهنية ببطء، ولا تتجمع الأجسام الكيتونية في الدم، وتحدث حموضة الدم الخطيرة كما في حالة التجويع.

والصورة المثل للصوم الإسلامي يمكن أن تتحقق بالآتي:

أ- تقليل فترة الصيام اليومي، وذلك بتعجيل الفطور وتأخير السحور.

ب- تناول وجبة السحور وعدم إهمالها.

ج- الاعتدال في الطعام والشراب أثناء السحور والإفطار، والاقتصار عليهما، وترك عادة كثرة الأكل طوال الليل.

د- القيام بالحركة والنشاط والجهد اليومي المعتاد.

هـ- نوم جزء من الليل وترك السهر المتواصل.

وبهذا يمكن أن يحقق الصوم الإسلامي كل فوائد الصيام الطبي ويتحاشى أخطاره وتأثيراته الجانبية.

وصدق الله القائل: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٨٤).

الإعجاز التشريعي في أحاديث النوم

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَقَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، أَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتَّ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ فَاجْعَلْنِي آخِرَ مَا تَقُولُ». (رواه البخاري ومسلم).

وقد جاء النهي عن النوم على البطن، فعَنْ طِخْفَةَ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: أَصَابَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ عَلَى بَطْنِي فَرَكَضَنِي بِرِجْلِهِ، وَقَالَ: «مَا لَكَ وَلِهَذَا النَّوْمُ، هَذِهِ نَوْمَةٌ يَكْرَهُهَا اللَّهُ أَوْ يُبْغِضُهَا اللَّهُ» (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني).

العلم الحديث يكشف فوائد النوم على اليمين:

كشف العلم عن العديد من فوائد النوم على اليمين، وأنه الهيئة المثلى للنوم، وفي الوقت نفسه توصل العلماء إلى العديد من مضار النوم على البطن، فحين ينام الشخص على بطنه يشعر بعد مدة بضيق في التنفس؛ لأن ثقل كتلة الظهر العظمية تمنع الصدر من التمدد والتقلص عند الشهيق والزفير كما أن هذه الوضعية تؤدي إلى انثناء اضطراري في الفقرات الرقبية، كما أن الأزمة التنفسية الناجمة تُتعب القلب والدماغ.

أما عند النوم على الشق الأيسر فالقلب حينئذ يقع تحت ضغط الرئة اليمنى، والتي هي أكبر من اليسرى مما يؤثر في وظيفته ويقلل نشاطه وخاصة عند المسنين، كما تضغط المعدة الممتلئة عليه فيزيد الضغط على القلب، وأما الكبد الذي هو أثقل الأحشاء فإنه ليس بثابت بل معلق بأربطة وهو موجود على الجانب الأيمن فيضغط على القلب وعلى المعدة مما يؤخر إفراغها.

فقد أثبتت التجارب أن مرور الطعام من المعدة إلى الأمعاء يتم في فترة تتراوح بين ٢,٥ - ٤,٥ ساعة إذا كان النائم على الجانب الأيمن ولا يتم ذلك إلا في ٥ - ٨ ساعات إذا كان على جنبه الأيسر.

فالنوم على الشق الأيمن هو الوضع الصحيح لأن الرئة اليسرى أصغر من اليمنى فيكون القلب أخف حملاً، ويكون الكبد مستقرًا لا معلقًا، والمعدة جاثمة فوقه بكل راحتها، وهذا أسهل لإفراغ ما بداخلها من طعام بعد هضمه، كما يعتبر النوم على الجانب الأيمن من أروع الإجراءات الطبية التي تسهل وظيفة القصبات الرئوية اليسرى في سرعة طرحها لإفرازاتها المخاطية.

وفي هذا الحديث إعجاز نفسي أيضًا، فعندما يذهب الإنسان للنوم يكون محملاً بأعباء نفسية طيلة يومه وكل هذه الأحداث قد تتفاعل عند نومه وقد تسبب له أحلامًا مزعجة أو عدم استقرار في النوم فجاء الهدي النبوي ليأمرنا بالالتجاء إلى الله تعالى والاعتراف بتسليم الأمر لله تعالى.

إن هذا الدعاء مع اليقين به يخلص المؤمن من مختلف الاضطرابات النفسية الناتجة عن حياته اليومية، وتأمل قوله ﷺ: «وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ» إنه تصريح من المؤمن، واعتراف بتفويض كل أمره وهمومه ومشاكله ومصاعبه إلى الله ﷻ. إن بقاء هذه الهموم النفسية قد يؤدي إلى تراكمها وتفاقمها وتحولها إلى أمراض نفسية وهذا ما نجده عند غير المؤمنين الذي يعانون من القلق والاكتئاب ومختلف الأمراض النفسية.

أهمية نوم القيلولة:

دراسات كثيرة تؤكد أهمية أخذ إغفاءة قصيرة كل يوم خلال النهار. وهذا سينشط الدماغ ويفيد صحة الإنسان. النوم معجزة من معجزات الخالق تبارك وتعالى، ولكن لماذا أمرنا الرسول الأعظم ﷺ أن نأخذ غفوة في النهار؟ وهل هناك حكمة علمية من ذلك؟

أمرنا رسول الله ﷺ أن نأخذ غفوة خلال النهار فقال: «قِيلُوا، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ» (رواه الطبراني، وحسنه الألباني). وقد أظهر بحث علمي جديد أن قيلولة الإنسان أثناء العمل تفيد القلب لأنها تقلل من الإجهاد والاضطراب، حيث يشكل العمل المصدر الرئيسي للإجهاد. وفي بحث آخر يؤكد العلماء أن النوم بالنهار ضروري جدًا ليعوض الإنسان ما فاتته من نوم الليل، بل إن نوم الليل لا يكفي، وقد يكون ضارًا إذا امتد لفترة طويلة!

تظهر صور الدماغ بالمسح المغنطيسي أن النوم يساعد الدماغ على التذكر وتثبيت المعلومات ويخلصه من التراكمات والتعب ولذلك القيلولة ضرورية جدًا ومفيدة للكبار والصغار.

الهدى النبوى فى منع وقوع الغضب وعلاجه إذا وقع

كيف يغضب الإنسان؟

ينبه مؤثر الغضب منطقة (Amygdala) المسئولة بالمدخ عن إرسال التنبيهات عندما تُواجه مسببات الغضب، وعند حدوث مثير الغضب ترسل Amygdala رسائل سريعة تحمل بواسطة التيار العصبى إلى غدة تحت المهاد التى تفرز فىضا متتابعا من الهرمونات

استعدادات الجسم لمواجهة الغضب:

كقاعدة عامة ينشط الجهاز العصبى الودى الأجهزة التى يحتاجها الجسم عند المرور بخبرة الضغوط ومنها الغضب، بينما على الجانب الآخر يلعب الجهاز العصبى الجار ودى دوره لتثبيط الأجهزة التى ليس لها احتياج فى مواجهة الضغوط الواقعة على الجسم عند الغضب.

- فمثلاً تحدث زيادة سريعة فى ضغط الدم ومعدل ضربات القلب والتنفس لتسريع نقل الأوكسجين والمواد الغذائية للعضلات والجوارح.
- ويتم التحرك السريع للطاقة من مخازنها فى الكبد والعضلات والخلايا الدهنية بتوافر الجلوكوز والدهون والبروتينات البسيطة.
- تفرز "الببتيدات" وهى وسيلة الاتصال بين أجزاء الجسم المختلفة ولها مستقبلات فى كل عضو حيث تشكل "الببتيدات" ومستقبلاتها كيمياء المشاعر.
- تستدعى الذاكرة الخبرات السابقة لمواجهة موقف الغضب.
- على الجانب الآخر تثبُط المناعة، لأجل توفير الطاقة للغضب.

- يتوقف الهضم وتتلقى الأمعاء أمرًا بتفريغ الطعام المهضوم ليخف وزن الجسم.
- تتوقف وظائف التبويض والانتصاب والرغبة.
- يتوقف الأنسولين وهرمونات النمو والهرمونات الجنسية لتوفير الطاقة للجسم.
- يقل الإحساس بالألم.

الآثار الصحية السيئة للغضب على الجسم:

يؤثر الغضب على قلب الشخص تأثير الجري على القلب، وانفعال الغضب يزيد من عدد مرات انقباضاته في الدقيقة الواحدة فيضاعف بذلك كمية الدم التي يدفعها القلب إلى الأوعية الدموية مع كل انقباض وهذا بالتالي يجهد القلب لأنه يقسره على زيادة عمله عن معدلاته الطبيعية، والفارق أن الجري في إجهاده للقلب لا يستمر طويلاً لأن المرء يتوقف إن أراد، أما في الغضب فلا يستطيع الإنسان أن يسيطر على إجهاده لا سيما إن كان اعتاد على عدم التحكم في مشاعره كما تحدث الإصابة بعدم انتظام ضربات القلب.

وقد حذر علماء الطب الألمان من أن الغضب يشكل خطراً على القلب، مشيرين إلى أن أكثر الذين أصيبوا بأمراض في القلب كان "الغضب" أحد أسبابه الرئيسية.

وأعلن الأطباء في مؤتمر عقدوه يوم الثلاثاء ١٦-٤-٢٠٠٢م في برلين أن أكثر الذين توفوا بجلطة قلبية كان "الغضب" أحد أسباب الوفاة الرئيسية، إذ أن الغضب يعمل على تقوية سرعة القلب بحيث تخرج عن السيطرة.

وقد لوحظ أن الإنسان الذي اعتاد على الغضب يصاب بارتفاع ضغط الدم حيث إن قلبه يضطر إلى أن يدفع كمية من الدماء الزائدة عن المعتاد ويزيد عن معدله الطبيعي كما أن شرايينه الدقيقة تتصلب جدرانها وتفقد مرونتها وقدرتها على الاتساع لكي تستطيع أن تمرر تلك الكمية من الدماء الزائدة التي يضخها قلب الغاضب.

كما أن الارتفاع المفاجئ للضغط قد يسبب لصاحبه نزفاً دماغياً صاعقاً يؤدي إلى إصابة الغضبان بالجلطة المخية، وقد يصاب بالجلطة القلبية أو الموت المفاجئ، وقد يؤثر على أوعية العين الدموية فيسبب له العمى المفاجئ، وكلنا يسمع بتلك الحوادث المؤلمة التي تنتج عن لحظات غضب.

وبتحرر الجليكوجين من مخازنه في الكبد يطلق سكر العنب مما يرفع السكر الدموي، إذ من المعلوم أن معظم حادثات السكر تبدأ بعد انفعال شديد أو غضب. وارتفاع الأدرينالين يعمل على صرف كثير من الطاقة المدخرة مما يؤدي إلى شعور الغاضب بارتفاع حرارته وسخونة جلده.

كما يؤدي زيادة الهرمون إلى تثبيط حركة الأمعاء ومن ثم إلى حدوث الإمساك الشديد. وهذا سبب إصابة ذوي المزاج العصبي بالإمساك المزمن.

ويزداد أثناء الغضب إفراز الكورتيزون مما يؤدي إلى زيادة الدهون في الدم على حساب البروتين، ويحل الكورتيزون النسيج اللمفاوي مؤدياً إلى نقص المناعة وإمكانية حدوث التهابات جرثومية متعددة، وهذا ما يعلل ظهور التهاب اللوزات الحاد عقب الانفعال الشديد.

كما يزيد الكورتيزون من حموضة المعدة وكمية البسین فيها مما يهيء للإصابة بقرحة المعدة أو حدوث هجمة حادة عند المصابين بها بعد حدوث غضب عارم.

يسبب تكرار الغضب حدوث تصلب في العضلات وانتفاخ الأوداج وآلام في الرقبة أو الكتف أو الظهر، مع صداع الغضب، وحدث الفزع والقلق الدائم والتوتر مع فقد القدرة على النوم وقلة التركيز مما يؤدي لخوار قوة البدن وسقوطه فريسة للإنهاك.

تتضاعف الأحاسيس بفعل التوتر والغضب ويصبح الغاضب أكثر حساسية للضوضاء كأجراس الهاتف والباب وأكثر حساسية للمس وللضوء والروائح مما قد يجعله في حالة متزايدة من الإثارة ويزيد من حجم المشاكل.

الهدي النبوي في منع وقوع الغضب:

إن من فضل الله ﷻ على المسلمين أن جعل لهم قدوة يقتدون بها؛ تتمثل فيها مكارم الأخلاق التامة؛ التي أخذت من مشكاة النبوة وذلك هو رسول الله ﷺ الذي أننى عليه ربه ﷻ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

ومن مكارم الأخلاق التي عنيت بها السنة وأمر بها القرآن العظيم الحلم، ومجاهدة نوازع الغضب، وكظم الغيظ؛ والعفو عند المقدرة حتى في مواجهة المتطاولين والجهلاء وفي ذلك منهج رباني أمرنا كمسلمين بالأخذ به، وهدي نبوي يحقق لنا النجاح في الدنيا والنجاة في الآخرة.

وقد جاءت السنة النبوية المطهرة بخطة فعالة لمنع وقوع الغضب ومن ثم تفادي تأثيره على الفرد والمجتمع. وقد أوتي رسول الله ﷺ - كما نعلم من سيرته المباركة - أوفى قدر من الحلم وضبط النفس عند الغضب.

ومن الهدى النبوي في منع وقوع الغضب:

١- الأمر المباشر: "لا تغضب":

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: «لَا تَغْضَبُ» فَرَدَّدَ مَرَارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبُ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

٢- الترغيب في رضا الله ﷻ وحبّه:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَغْظَمَ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غَيِّظَ كَظْمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ». (رواه ابن ماجه، وصححه الألباني). وقال ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمِضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَضًى يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (رواه الطبراني، وحسنه الألباني). وقد مدح النبي ﷺ أشج عبد القيس فقال: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُجِبُهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاءُ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

٣- الترغيب في الجنة:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُخَيَّرَهُ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ مَا شَاءَ» (رواه أبو داود والترمذي، وحسنه الألباني). وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَدْخِلُنِي الْجَنَّةَ»، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ وَلَكَ الْجَنَّةُ» (رواه الطبراني، وصححه الألباني).

٤- الترغيب ببيان أن الشدة والشجاعة في حجز النفس عن الغضب:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ؛ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» (رواه البخاري ومسلم).

(بِالصُّرْعَةِ) بِضَمِّ الصَّادِ وَفَتْحِ الرَّاءِ: الَّذِي يَصْرَعُ النَّاسَ كَثِيرًا بِقُوَّتِهِ، وَالْهَاءُ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الصِّفَةِ، وَالصُّرْعَةُ بِسُكُونِ الرَّاءِ بِالْعَكْسِ وَهُوَ مَنْ يَصْرَعُهُ غَيْرُهُ كَثِيرًا.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يَصْطَرِعُونَ فَقَالَ: «مَا هَذَا؟»، قَالُوا: «فُلَانٌ مَا يُصَارِعُ أَحَدًا إِلَّا صَرَعَهُ». قَالَ: «أَفَلَا أَدْلُكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ، رَجُلٌ كَلَّمَهُ رَجُلٌ فَكَظَمَ غَيْظَهُ فَغَلَبَهُ وَغَلَبَ شَيْطَانُهُ وَغَلَبَ شَيْطَانُ صَاحِبِهِ». (رَوَاهُ الْبَزَّازُ، بِسَنَدٍ حَسَنٍ).

٥- التهيب من فساد الإيثار وغضب الله ﷻ:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي، «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ»، قَالَ: فَقُلْتُ: «لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا». (رواه مسلم).

٦- القدوة بالمثال: هديه ﷺ في التحلم والتبسم في مواطن الغيظ والغضب

لِلنَّفْسِ، وَهَذِهِ السِّمَةُ مِنْ أَخْلَاقِهِ ﷺ وَاضِحَةٌ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثٍ مِنْ أَبْرَزِهَا حَدِيثُ أَنَسٍ ابْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظٌ

الحَاشِيَّة، فَأَذْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرَدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ»، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). (الْبُرْدُ): جَمْعُ بُرْدَةٍ، كِسَاءٌ أَسْوَدُ مُرَبَّعٌ فِيهِ صُورٌ تَلْبُسُهُ الْأَعْرَابُ. (جَبَذَهُ): جَذَبَهُ.

٧- نهي الصائم عن الغضب:

قال ﷺ: «الصَّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ، وَلَا يَصْحَبْ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ» (رواه البخاري ومسلم).

يكون الصائم أكثر استجابة لدواعي الغضب في آخر النهار عندما ينقص السكر في الجسم. فالصائم إذا غضب وانفعل ازداد إفراز الأدرينالين ٢٠ إلى ٣٠ ضعفاً عن معدله العادي.

فإن حدث هذا في أول الصوم أثناء فترة الهضم والامتصاص اضطرب هضم الغذاء وامتصاصه ذلك لأن الأدرينالين يعمل على ارتخاء العضلات الملساء في الجهاز الهضمي ويقلل من تقلصات المرارة ويعمل على تضيق الأوعية الدموية الطرفية وتوسيع الأوعية التاجية كما يرفع الضغط الدموي الشرياني ويزيد كمية الدم الواردة إلى القلب وعدد دقاته.

وإن حدث الغضب في منتصف النهار أو آخره أثناء فترة ما بعد الامتصاص تحلل ما تبقى من مخزون الجليكوجين في الكبد وتحلل بروتين الجسم إلى أحماض أمينية وتأكسد المزيد من الأحماض الدهنية. كل ذلك ليرتفع مستوى الجلوكوز في الدم فيحترق ليمد الجسم بالطاقة اللازمة في الشجار وبهذا تُستهلك الطاقة بغير ترشيد وبالتالي يهدر الجسم كميةً من الطاقة الحيوية الهامة بغير فائدة تعود عليه ويضطر إلى استهلاك الطاقة من الأحماض الدهنية التي يؤكسد المزيد منها وقد تؤدي إلى تولد الأجسام الكيتونية الضارة في الدم.

كما أن الارتفاع الشديد للأدرينالين في الدم يعمل على الآتي:

- خروج كميات كبيرة من الماء من الجسم بواسطة الإدرار البولي.
- يؤدي لنوبات قلبية أو موت الفجأة عند الأشخاص المهَّيَّين لذلك؛ نتيجة لارتفاع ضغط الدم وارتفاع حاجة عضلة القلب للأوكسجين من جراء ازدياد سرعته.
- وقد يسبب النوبات الدماغية لدى المصابين بارتفاع ضغط الدم.
- يزيد من تكون الكوليسترول من الدهون منخفضة الكثافة وثبتت علاقته بتصلب الشرايين.

وسبحان الله العظيم، فما أعجب نصيح النبي ﷺ الصائم بالسكينة وعدم الغضب.

هل هناك برامج مطبقة لمنع وقوع الغضب؟

أطلق الموقع الإخباري (بي بي سي) بتاريخ ٢٥ مارس ٢٠٠٨ صيحة في تقرير بعنوان "مشاكل الغضب بلا علاج" جاء فيه: مؤسسة الصحة النفسية تقول: «لا يتم التعامل مع الغضب إلا بعد أن يرتكب شخص ما جريمة عنف مدمرة» في إشارة واضحة أنه ليس هناك برامج لمنع وقوع الغضب!

يقول التقرير أيضًا: «نحتاج للمزيد من الأبحاث وطرق التعليم لمواجهة الغضب والتدخل المبكر قبل المشاكل الناتجة عنه». «حالات الغضب الشديد والمزمن ترتبط بأمراض القلب والسرطان والصدمات الدماغية وأذى النفس بل والأمراض المعدية كالانفلوانزا».

وقال المدير التنفيذي للمؤسسة الدكتور "أندرو مكلوك": «إنه لمستنكر أن يخذل الناس حين يتعلق الأمر بالغضب بينما تتم مساعدتهم لعلاج الإحباط والقلق واضطرابات الغذاء وكثير من الأدواء النفسية. وأجمع الباحثون أن التغلب على مشكلة الغضب بات أمرًا ليس سهلاً!».

وأكد التقرير أن الغضب أصبح معضلة كبرى تشمل ربع المجتمع إحصائياً ونادى بضرورة ألا يغضب الإنسان - خاصة الشباب - كوسيلة لهدف هو علاج غالبية مشاكل المجتمع.

الهدى النبوي في منع الغضب:

لقد بين لنا النبي ﷺ بنور وحي النبوة خطورة انفعالات الغضب قبل أن يكتشفها الطب بقرون ودعا المسلمين - بحكمة - إلى تفادي الغضب فكثرت أحاديثه التي وردت بها تلهم النصيحة الذهبية الغالية "لا تغضب" والتي ثبت نفعها العظيم طبيًا ونفسيًا، وقدم النبي ﷺ أساليب مختلفة في الترغيب في حفظ النفس من الغضب، ثم الترهيب من الوقوع فيه، أساليب شملت العلم والعمل، أخذًا بأيدي المسلمين إلى جادة الصواب رحمةً بهم وحفاظًا على صحة أبدانهم من مجموعة من الأمراض المهلكة.

الهدى النبوي في معالجة الغضب:

١ - السكوت فور الغضب:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَلِّمُوا، وَيَسِّرُوا، وَلَا تَعَسِّرُوا، وَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وصححه الألباني).

٢ - الاستعاذه بالله من الشيطان الرجيم:

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَرَجُلَانِ يَسْتَبَانِ، فَأَحَدُهُمَا احْمَرَّ وَجْهُهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ» (رواه البخاري ومسلم).

ينصح علماء الطب النفسى الأشخاص الذين يتعرضون إلى نوبات الغضب إلى تمارين خاصة تؤدي إلى نتائج مذهلة، هذه التمارين تسبب استرخاء في الذهن يؤدي إلى انطفاء نار الغضب وإخماد الثورة العصبية، منها أن يعد الشخص من ١.٢.٣. وحتى ٣٠ قبل أن ينطق بأي حرف.

هذه الحقائق في مجال الطب النفسى سبق بها وطبقها النبي ﷺ قبل الأطباء بقرون حين أمر الغاضب أن يسكت وذلك أن الغاضب ربما يخرج عن شعوره فيتلفظ بكلمات قد يكون فيها كفر أو سب يجلب له العداوات أو طلاق يهدم بيتاً، فالسكوت حل وقائي لتلافي كل ذلك أولاً ثم أن يتعوذ بالله وهذا أفضل ولا شك من أن يعد أرقاماً بل أنه الأمثل لاستعانتة بالله أن يدرء عنه الغضب ويعيده ممن يدفعه إليه ألا وهو الشيطان.

٣- تغيير الوضعية:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ، وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ» (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

إن القائم مُتَهَيِّءٌ للحركة والبطش والقاعد دونه في هذا المعنى، والمضطجع ممنوع منهما، فيشبهه أن يكون النبي ﷺ إنما أمره بالقعود والاضطجاع لئلا ييدر منه في حال قيامه وقعوده بادرة يندم عليها فيما بعد.

وقد جاء في كتاب "هاريسون الطبى" أنه من الثابت علمياً أن هرمون الأدرينالين يزداد بنسبة ٢-٣ أضعاف لدى الوقوف بهدوء لمدة خمس دقائق، ويرتفع ارتفاعاً بسيطاً في الوقوف لكن الضغوط النفسية تزيد من نسبته في الدم، ولا شك أن العاملين معاً، الغضب والوقوف يرفع نسبة الهرمونين بشكل كبير.

هـدي الإسلام في العطاس والتثاؤب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعُطَّاسَ وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ، فَإِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ وَحَمِدَ اللَّهَ، كَانَ حَقًّا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ: فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَزِدْهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا تَثَاءَبَ ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ عَلَى فِيهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ» (رواه مسلم). وفي رواية: «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَى فِيهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ مَعَ التَّثَاؤُبِ» (رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَزِدْهُ مَا اسْتَطَاعَ، وَلَا يَقُلْ: آهَ آهَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا فَتَحَ فَاهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَضْحَكُ مِنْهُ» (رواه الإمام أحمد في المسند، وصححه الألباني).

إن الأطباء في العصر الحاضر يقولون: التثاؤب دليل على حاجة الدماغ والجسم إلى الأوكسجين والغذاء، وعلى تقصير جهاز التنفس في تقديم ما يحتاجه الدماغ والجسم من الأوكسجين، وهذا ما يحدث عند النعاس والإغماء وقبيل الوفاة فإذا بقي الفم مفتوحاً أثناء التثاؤب تسرّب مع هواء الشهيق إلى داخل الجسم مختلف أنواع الجراثيم والغبار والهباء والهوام.

والعطاس هو عكس التثاؤب، فهو قوي ومفاجئ يخرج معه الهواء بقوة من الرئتين عن طريقي الأنف والفم، فيجرف معه ما في طريقه من الغبار والهباء والهوام والجراثيم لذلك كان من الطبيعي أن يكون العطاس من الرحمن لأن فيه فائدة للجسم،

وأن يكون التثاؤب من الشيطان لأن فيه ضرراً للجسم، وحق على المرء أن يحمده الله ﷻ على العطاس، وأن يضع يده على فمه في حالة التثاؤب^(١).

والتدبير النبوي الرائع في العطاس أن يضع العاطس يده على فمه ليمنع وصول الرذاذ إلى الجالسين؛ فقد كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا عَطَسَ وَضَعَ يَدَهُ أَوْ ثَوْبَهُ عَلَى فِيهِ وَخَفَضَ بِهَا صَوْتَهُ. (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

وهذا الأدب النبوي له حكمته الصحية الجليلة إذ يندفع مع العطاس رذاذه إلى مسافة بعيدة يمكن أن يصل معها إلى الجالسين مع العاطس أو أن يصل إلى طعام أو إلى شراب قريب منه، وهذا يمكن أن ينقل العدوى بمرض ما (كالزكام) - إذا قدر الله ﷻ - إن كان العاطس مصاباً به وليس من خُلق المسلم في أن يتسبب في شيء من ذلك - لذا علّمنا رسول الله ﷺ الأدب في أن نضع يدنا أو منديلاً على فمنا عند العطاس لمنع وصول رذاذه إلى الغير وفي ذلك غاية الأدب ومنتهى الحكمة.

لغز التثاؤب:

التثاؤب فترة تعتري الشخص فيفتح عندها فمه. وهو فعل طبيعي من أفعال التنفس يشترك فيه الإنسان مع غيره من الكائنات؛ فالسمك، والطيور، والزواحف بل معظم الثدييات ومنها القطط تتثاءب، وفي الإنسان يبدأ التثاؤب في رحم الأم، ولا يتوقف إلا مع انتهاء العمر.

(١) لم يَرِدْ أن الإنسان إذا تناءب يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وإنما الوارد أن يكتُم الإنسان التثاؤب ما استطاع، وإذا لم يستطع فليضع يده على فيه، والنبى ﷺ أرشد إلى هذا عند التثاؤب، ولم يقل: وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

وللتأؤب عند المسلم آداب بيئها الهدي النبوي منها:

- محاولة كظم التأؤب ورده قدر الإمكان.
- وضع اليد على الفم.
- عدم قول: آه، آه.

وأضيف التأؤب إلى الشيطان لأنه يدعو إلى الشهوات، إذ يكون مع ثقل البدن واسترخائه وامتلائه، والمراد التحذير من السبب الذي يتولد عنه ذلك وهو التوسع في الأكل، وما يكون معه من ميل إلى الكسل والنوم. وقد صرح العلماء بكراهة التأؤب مطلقاً في كل حالة، وأنه غير مقيد بعبادة كصلاة وقراءة قرآن.

والتأؤب قد يكون تمهيداً للنوم، وآية على الرغبة الدالة عليه، ولكنها ليست رغبة فيه. وهو عند الأطباء فعلٌ من أفعال التنفس الذي يتم بطريقة رد الفعل! كغمض العين مثلاً، إذا رأت شيئاً سيصيبها، كما قد يكون مفيداً للصحة (أو علامة اعتلال). ومن غرائبه تلك (العدوى النفسية) الموجودة فيه، فما إن يتشاءب شخص ما في مجلس، حتى تسري (العدوى التأؤبية) إلى معظم الحاضرين (٥٥٪)، بل إن المتأؤب الجيد يصيب سبعة آخرين بعدهواه.

ومن المعلوم أن فعل التأؤب يُشرك معه عدة أجزاء من الجسم: فالفم يفتح، والفكان يفترقان، تهينة لشهيق كثير من الهواء، والذي بدوره يمدد الرئتين، فتتشد عضلات البطن دافعةً بالحجاب الحاجز باتجاه القدمين، ثم يتلو ذلك زفير بعض من الهواء.

ومن الحقائق اللطيفة في موضوع التأؤب ما يلي:

- تستغرق التأؤبة الواحدة (٦) ثوان.
- يزداد معدل نبض القلب بمقدار (٣٠٪) خلال التأؤبة الواحدة.
- قد يتشاءب (٥٥٪) من الناس خلال (٥) دقائق من رؤيتهم لشخص يتشاءب.

- قد يتشاءب كيف البصر أكثر عند سماعه لشريط فيه ثاؤب الآخرين.
- القراءة عن الثاؤب قد تجعلك تتشاءب.

إن الهدى النبوي في آداب الثاؤب يدل على التالي:

١ - دلالة إيمانية غيبية:

لحبس دخول الشيطان في جوف المثائب، كجولات الإنسان مع الشيطان حال المبيت، والعشاء، والنوم .. إلخ. وعلينا تصديقها والإيمان بها فقط دون تحليلها.

٢ - دلالة اجتماعية سلوكية:

للتقليل من إشاعة المظهر والسلوك غير المستحسن في المجتمع المسلم، كإظهار باطن الفم لدى المثائب، ونشر دواعي الكسل والاسترخاء في المجتمع المثائب. والمجتمع المسلم، يُفترض أن تغلب عليه مظاهر النشاط والحيوية، والجد والاجتهاد. فإن كان لابد منه (فطرياً)، فلا أقل من التقليل من أثره بسلوك الهدى النبوي في ذلك.